kitabweb-2013.forumsmaroc.com

منشورات جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث 9

النعيم المقيم

في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المرير

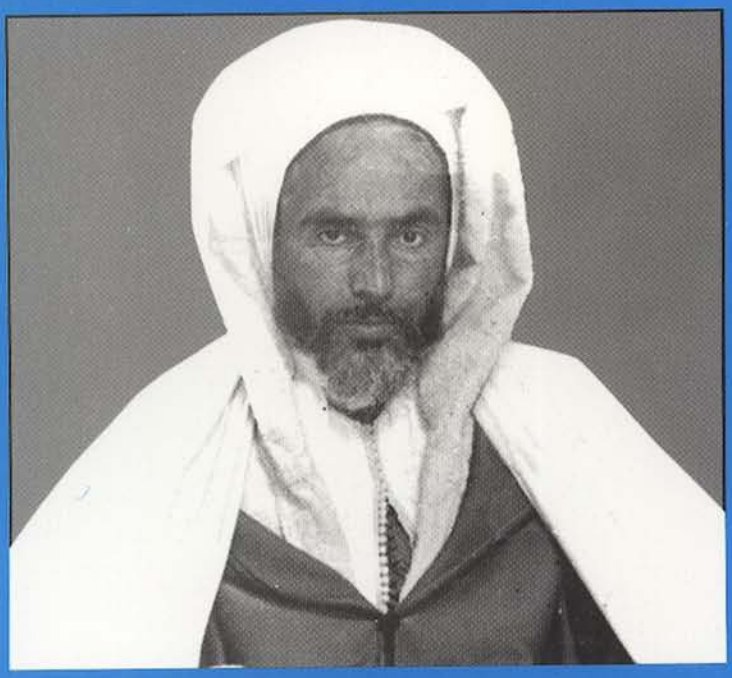

تخريج: ذ. أحمد بن محمد المرير
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي

الجزء الثاني
تطوان - 1424 هـ - 2003 م

الكتاب : النعيم المقيم (في ذكرى مدارس العلم. ومجالس التعليم)
(الجزء الثاني)

تخريج : ذ. أحمد بن محمد المرير

مراجعة : أ.د. جعفر بن الحاج السلمي

الناشر : جمعية تطاون أسمير

الطبعة : 1424 هـ - 2003 م.

الحقوق : محفوظة

رقم الإيداع : 2000/1420

الطباعة : مطبعة الخليج العربي - تطوان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

(تمهيـــد)

بدأ المؤلف، رحمه الله، في جَمْع وكتابة هذه "الفهرسة "، المسماة بـ: "النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم"، في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين. وهي مذكرات لأطوار حياته التعليمية، واهتماماته الثقافية، بالإضافة إلى ما تضمنته من مباحث في قضايا ونوازل متنوعة اعترضته أثناء كتابتها، مع ما أثار انتباهه من أحداث ومستجدات. وقد يُضيف أحياناً ما كان كتبه في فترات سابقة إلى الموضوع الذي هو بصدده، مع حرصه على دعم رأيه بنصوص واجتهادات كبار علماء الإسلام المقتدى بهم، ناقلًا كلامهم بنصه، رغم طوله أحياناً، ومعقباً عليه عند الاقتضاء.

وقد تعمَّق في وصف منهجية هذه "الفهرسة"، والتعريف بمؤلفها: الدكتور السيد امحمد ابن عبود، في تقديمه القيِّم لها عند إصدار الجزء الأول منها.

هذا، وإذا كان محتوى الجزء المذكور؛ يُعدّ مقدمة للموضوع الأصلي، الذي هو ترجمة شيوخ المؤلف بكل من تطوان وفاس، حيث صدَّرهُ بالكلام على طلب العلم، وتقسيم العلوم، وما يتبع ذلك. ثم تكلم عن والده، ومسقط رأسه، وموطن أجداده، وبيئته العلمية والصوفية، مع ذكر نخبة من أعلام تطوان في العلم والتصوف، وما يرتبط بهم من فوائد واستطرادات، ثم نُبذة تاريخية عن هذه المدينة..الخ

فإن الجزء الثاني هذا؛ استهله بالدخول في الموضوع، حيث مهَّد لذلك - بعد ما ختَم كلامه عن تاريخ تطوان، بقصيدة أنشأها في مدحها -؛ بالكلام على المناهج التعليمية التي كانت متَّبعة آنذاك بالمغرب، ووصفِ طريقة ابتداء حفظ القرءان الكريم، وقراءة العلم.

ثم بدأ يُترجم لشيوخه بتطوان، وهم بالنسبة لمن شملهم هذا الجزء: الفقيه المقرئ السيد عبد الكريم كركيش الحوزي، والأستاذ المقرئ السيد الأمين بوحديد، والفقيه البركة السيد عبد الله لوقش، والفقيه العلامة السيد أحمد الرهوني، والفقيه العلامة السيد محمد ابن الأبار، والفقيه العلامة السيد محمد البقالي.

وقد كان حريصاً على إعطاء وصف دقيق وجلي وشامل، لسيرة جل هؤلاء الشيوخ، وذكر أحوالهم، وتحديد علاقته بهم، وأسلوب إقرائهم، وتقييم مقروءاته عليهم، مع التنويه بالمفيد منها. وكذا الإشارة إلى سندهم في العلم، أو في طريق التصوف، الذي خصه بمبحث جامع، مع الاهتمام بترجمة أهم شيوخهم. إلى جانب ما تفرَّع عن ذلك من استطرادات وفوائد متنوعة، حسب النهج الذي سلكه في الجزء الأول.

ثم ختم هذا الجزء؛ بتقييد - حسب تسميته له - يتعلق بعلوم الفلك، مشيراً في مقدمته إلى الدوافع التي أملت عليه، آنذاك، الكتابة في هذا الموضوع. وقد يندهش البعض من طريقة تناوله لمسألة الصعود إلى القمر، بصفة خاصة، وبالتالي قد يتساءل عن جدوى نشر هذا الموضوع الآن، بعد أن أصبح متجاوزاً، بل من الأمور المسلمة والمألوفة لدى عامة الناس وخاصتهم.

ولكن القارئ اللبيب المُنصف؛ قد يرى، من الأمانة العلمية، الحفاظ على النص الأصلي للمؤلف كما هو، والذي يعكس في الواقع رؤيته الخاصة، وبالتالي رؤية علماء الإسلام في العصور السابقة؛ لهذا الموضوع بصفة عامة، ومدى اهتمامهم به.

ويبدو جليا أن المؤلف، بحكم نشأته وبيئته، وتكوينه وتأثُّره بشيوخه وبكتابات من تقدم من الفقهاء وأعلام التصوف؛ لم يخرج عن النهج الإسلامي السلفي الذي لا يقبل من العلوم؛ إلا ما فيه فائدة ملموسة تعود بالخير على الإنسان المسلم في الحال والمآل، مع الحرص، بصفة خاصة، على الابتعاد عن كل ما قد يؤدي إلى التأثير سلباً على العقيدة.

لهذا يلاحظ تحفظه الشديد، في تناوله لهذا الموضوع، الذي لم يطّلع آنذاك على حقيقة أهدافه وفوائده، وهو ما جعله يشك في نجاح تلك المحاولات، ونوايا أصحابها، بل اعتبر سعيهم من باب التحدي والتمويه، وضياع الوقت والمال فيما لا يجدي نفعاً، مع شعوره باستكبارهم، واغترارهم - حسب تعبيره - بالنزر اليسير من العلم الذي ألهمهم الله إليه، ويسره لهم.

فهذه لمحات، ارتسمت في ذهني أثناء تخريجي لهذا الجزء، ارتأيت إثباتها هنا، عسى أن يُنظر إليها بعين الاعتبار، يضاف إلى ذلك أن كتابة المؤلف قد مرّ عليها الآن؛ ما يقرب من

نصف قرن، وهي فترة عرفت تطورات كبيرة، وتحقق فيها الكثير مما كان يُعدّ من الخيال. ولهذا فإن فهم بعض مواقفه لا يتأتى؛ إلا في السياق التاريخي والظرفي.

وختاما يسعدني أن أنوه بالعمل الجليل المستمر، الذي تضطلع به "جمعية تطاون أسمير"، من أجل إحياء التراث الثقافي لهذه المدينة، بفضل المثابرة والعمل الجماعي المخلص الذي تشخصه تلك النخبة الفاضلة من أعضائها، وفي الطليعة؛ الدكتور السيد امحمد ابن عبود، والدكتور السيد جعفر ابن الحاج السلمي، فإليهما يرجع الفضل في إخراج هذه "الفهرسة" إلى عالم النور والتداول. فشكرا جزيلا لهما، ولكل من ساهم في ذلك، والله ولي التوفيق.

تطوان في 15 رجب عام 1424 موافق 12 شتنبر سنة 2003

أحمد بن محمد المُرير.

الجزء الثاني من الفهرسة المسماة بـ :

النعيـــــــم المقيـــــــم

في ذكرى

مدارس العلم و مجالس التعليم

لجامعها العبـــد الفقير:

محمد بن محمد المُرير

وفقه مولاه

لما يحبه ويرضاه

وهو نعم المولى ونعم النصير

فهرســـة:

علمية تفسيرية حديثية فقهية صوفية

كلامية أدبية تاريخية حاوت أبحاث عصرية

وحوادث وقتية زيادة على موضوعـــــاتها

الأصليـــــــة

تطوان (المغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد و على آله

الجزء الثاني من فهرسة
النعيم المقيم في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم

[قصيدة في مدح تطوان
ذيّل بها المؤلف ما ذكره في الجزء الأول عن تاريخها]

ولتذيل هذه النبذة الغراء، والجملة المعربة الصغرى الخاصة بأخبار تطوان؛ بقصيدة كنت أنشأتها في هذه الأثناء، في مدحها وذكر منازهها العلياء، وحدائقها الغناء، والإشارة إلى بعض ما تقلبت فيه من سراء وضراء، وما أسسته فيها مهاجرة الأندلس بعد الجلاء :

تطوانُ يا بلدةً بالمدن قِسناها فكنتِ أسمى مدينة وأسناها
أنتِ العروسُ تجلت في منصّتها من وجْه (درْسَة) ينجلي محياها
برزتِ في حلة بيضاء راكبةً ظهر الربى، والدّيولُ الخضر بطحاها
وأنتِ جنةُ حُسنٍ تحتَّها نَهَرٌ يزين رؤيتها، ويجيد ريّاها
منازهُ بكِ فاقت كل مُنتزهٍ تُحيي النفوس، إذا الوسْمي حيّاها
ذات المناظر ترقينا بسورتها فيذهب الغم من آيات رقياها
بك (المُحَنَّشُ) إن غنت حدائقه فما أحيْلى أغانيها ومغناها
يجري به الوادي في أنحائه قِطعاً من فِضّةٍ صاغها الباري وأجراها
وللبساتين في (كِيتّان) بهجتُها رقت، وراقت بمائها ومرعاها
صُفّتْ بها شجر النارنج رافلة من خُضْر سندسها يَسُر مرءاها
وفي (الطَّوَابِل) تُطوى كل كارثةٍ إذ المسرات جاءتها ببشراها

قصرٌ مشيدُ وأشجارٌ منوعةٌ — ومَرْبَعٌ حسن، وطيبُ أرجاها

علو(البُوجرَاح) يَسقي كل جارحة — خمر السرور، وينشيها بصهباها

خُضر البطاح، وسمُر الهضب مُبهجةٌ — وبيض أزهاره بالحسن قد باها

طيبُ الهواء به أشجىالطبيب فكم — من علة أعضلت في الحين أبراها

حلوُ المَّياهِ (بعين المرِّ) مُعجزةٌ — العَيْنُ مرٌ، وماء العين أحلاها

موتُ النسيم بها يَحيى العليلُ به — فاعجبْ لموت به للنَّفس مَحياها

لكِ المفاخِرُ في الأزمانِ بارزةٌ — تحلو لمستمع الأخبار ذكرَاها

ضمّتك أبناء إدريس لدولتها — فشِمتِ بَرق سناها صوْبَ عَلْيَاها

وساقكِ الناصرُ الأسمَى لدولته — ورام طيكِ إن طويت جفاها

وصنتِ ثغرك في عصر المريني إذ — أصبحتِ بين ثغور القطر أحماها

أصفاك ودّاً لذا قد صرتِ مُودعَة — لعُدَّةِ الحرب أوقاها وأقواها

أشاد فيكِ حصوناً يستعدُ بها — حتى إذا ما العِدَا هاجته أرداها

ظلتِ الثغور زماناً تزهو آمنة — لا تختشي من ليالي الدهر عقباها

ثم اعتراكِ الرَّدى وأنتِ غافلة — فصير العلو من دنياكِ سُفلاها

ولم تزل لخطوب الدهر خاضعة — يعلو ربوعكِ بومُها وبُهماها

وإذ هوى الدهر من ضيم بأندلس — ولم يراع لها إلّا ولا جاها

وروَّعتْها عِداها كلَّ آونة — وحمَّلتها خطوباً أوْهَت قواها

وضاقت الأرض عن رحب بأندلسٍ — إذ أوسعتها العدا ضيما بطغواها

واخضَلّتِ التربةُ الجدباءُ من سكنٍ — بأدمع هطلت تَعُمُّ سقياها

علىالفرادسِ من أرضٍ بهاضحكت — دهراً، وخان فأنكاها و أبكاها

طارت إليكِ نسوراً فوق أغربة — مُزْوَرَّةً عن أليفِ الوكْر مثواها

وغادرتْهُ كأفراخ بذي مَرخ — خُمْص الحَواصِلِ لا مرعى ولا ماها

أتت إليكِ حيارى لا فؤاد لها — لا تدْري أين مَسْراها ومَرسَاها

مستجدياتٍ ثواء من ذوي كرم — تروم منهم مقامها ومأواها

نعم أتت إليكِ وأنتِ اليوم لابسةٌ — من حلة الوَهْي والتخريب سوداها

أتت إليكِ ولم تـحمل سوى هِمَــم   دركَ الأمانـي مغزاهـا ومرمـاها
لا تنتحي راحة أو تنتقـي دعــة   لكنهـا سمة الإقـدام سيمـاها
جدت فجددتِ الأوهى وقد وجـدت   نشاطها في قرار منكِ يهـواها
قامت على ساقها في رد مَا اختلست   منكِ النوائب حسَّها ومعنـاها
إذ قد سمت بكِ في التحضير همتـُها   وألهمتـك فنونـاً كنت تلغـاها
والمنظريّ الهمام الشهم قائدهـا   أجـاد في ذبـه إذ كـان أقـواها
حَمَى حِماكِ وقَلَّ غَرْبَ رَائعِـهِ   ولم يَدَعْ ثغرةً في الثغـر يغشـاها
أبقى لديكِ مـآثراً مُخلَّـدةً   يحبذ الدهر منشأها ومبـناها
ديماسه لم يزل بوسمـه ناطقـا   والمسجد الجامع المشهور يرعـاها
دمتِ الوحيدة في البلدان لابسـة   من حلة العز أوفـاهـا وأبهـاها
محفوظة من زمان صفوُهُ كـدرٌ   يُعدي عليكِ من الأكدار أعـداها
فتياته في بحُور اللّهـو سـابحـة   فتيـاتـه بثـياب الصون ثـقلاها
كُـهُوله جهلتْ، شيوخـه وهِلـتْ   خيَّارُه وجلِت من بـثّ شكـواها
عـم الضلال على الآراء يا عجبـا   أن صار ذو بصر في النـاس أعـماها
عصر يرى أهله في الديـن منقصةٍ   يؤخـر النـاس عن تنظيم دنـياها
يسام ذو الدين بالرُّجْعَى عندهُـمُ   وذو الضلالة والإلحـاد أرقـاها
يارب دارك بفضلٍ منك أمتنـا   وأصلح حـالتـها فأنت مـولاها
وانظر إلينا بعين اللطـفِ سيِّدنـا   وإذ عصينـا فإنَّـا نرتجِـي الله

ابتداء القراءة بتطوان
والمناهج التي كانت متبعة في المغرب في التعليم

العادة التي كانت مقررة بالمغرب الأقصى، في مراحل التعليم، أن الصبي إذا بلغ أربع سنوات أو خمساً، أسلمه وليّه للمكتب القرآني، فيلقنه الأستاذ القرآن، مبتدأ بتعليم حروف

الهجاء وبالفاتحة، ثم سورة الناس، ثم سورة الفلق، وهكذا على طريق التنكيس إلى سورة البقرة. وهي عادة قديمة بالمغرب. قال سيدي العربي الفاسي في "المرآة":

فقرأت عليه - أي على الفقيه ابن سعيد - على الطريق المعهود في التعليم بالمغرب، من الابتداء بالحروف، ثم الفاتحة، ثم سورة الناس، ثم سورة الفلق، وهكذا صاعداً إلى سورة البقرة هـ[ص160].

قلت؛ وهذا في الختمة الأولى، وأما الثانية؛ فإن القراءة تكون من البقرة إلى الختام، دون تنكيس. وفي هذا الأثناء، يلقنه الأستاذ بعض مبادئ القراءة والكتابة، وبعض قواعد التجويد، ورسم القرآن.

فإذا تيسرت الأسباب للطالب، واستمر في التعليم وحفظ القرآن، انتقل من هذه المرحلة الأولى، إلى المرحلة الثانية ؛ فإنه يتصدى لحضور دروس العلم، مبتدئاً في العقائد وفقه العبادة؛ بنظم ابن عاشر بشرح المرشد المعين ، وفي النحو بمقدمة ابن آجروم بشرح الأزهري. وفي هذه المدة يعمر غالب وقته بحفظ المتون، من متن ابن عاشر، ومتن الألفية لابن مالك، ومختصر الشيخ خليل.

ثم إن اتصل في التعلم ولم ينقطع، أخذ في قراءة ألفية ابن مالك بالمكودي، ثم بتوضيح ابن هشام، وربما قرأها بالأشموني، وهو الغاية في النحو. وفي قراءة الفقه؛ بمختصر الشيخ خليل بشارحه الخرشي، لأن نسقه أسهل للفهم، هذا هو الذي أدركنا عليه الحال. وفي هذه الأيام الأخيرة صار يُقرأ بشرح الدردير، وتحفة ابن عاصم بشرح الشيخ التاودي. وربما خُلِّلَ ذلك بدروس في المعاني والبيان، والمنطق وأصول الفقه.

فإذا استمر في هذه المرحلة، واستقصى ما عند علماء بلده، فإنه يتشوف للمرحلة الثالثة، وهي العليا، وهو التعليم العالي، ومنها يتخرج، فإن أمكنت هذه المرحلة ببلده، انتقل إليها، وإلا فالعادة التي كانت جارية ببلاد المغرب، أن الطالب إذا أشرف على هذه المرحلة فإنه يُعمِل الرحلة لإتمام دروسه بمدينة فاس، إذ هي العاصمة العلمية بالمغرب الأقصى منذ سقطت قرطبة والقيروان، فيأخذ الطالب عن أكابر العلماء بها، ويتم دروسه العليا، حتى يتخرج بها، ويستجيز علماءها.

منهج المغرب كان يخالف مناهج تونس والأندلس

وهذا المنهج الذي كان متبعاً بالمغرب يخالف ما كانت عليه العناهج في الأندلس وتونس. أما بالأندلس؛ فكانوا يشاركون المغرب في افتتاح التعليم بالقرآن الكريم، وجعله هو الأصل، إلا انهم لا يقتصرون عليه، بل يدخلون في التعليم الأولي رواية الشعر، وتعليم الإنشاء، وقوانين العربية، وتجويد الخطّ والكتابة، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والتصريف، ومهر في الخط والكتابة، وتعلق بأذيال العلم. ·

وأما بتونس؛ فيقاربون الأندلس في التخليط، وإضافة علوم أخرى إلى تعليم القرآن، من الحديث ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته؛ أكثرُ مما سواه، وعنايتُهم بالخط تبع لذلك، كما قاله ابن خلدون.

وللإمام أبي بكر ابن العربي، منهج في التعليم أغرب به، فقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس، قائلا:

"إن الشعر ديوان العرب، ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم، ضرورةُ فساد اللغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب، فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة." ثم قال:

"ويا غفلة أهل بلادنا، في أن يُؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيرُه أهمُّ عليه." قال: " ثم ينظر في أصول الدين، ثم في أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه."هـ

ونهَى مع ذلك، أن يخلط في التعليم علمان، إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك، بجودة الفهم والنشاط.

وهذا المنهج الذي قرره ابن العربي، وإن استحسنه ابن خلدون، تعقّبه بأن العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال. قال:

"ووجه ما اختصت به العوائد، من تقديم دراسة القرآن؛ إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا، من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن، لأنه مادام في الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ، وانحل من رَبقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة. فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم، تحصيلَ القرآن، لئلا يذهب خلوا منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم، وقبوله للتعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي، أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق"هـ[المقدمة ص492].

المناهج العصرية
وكونها كانت سبباً لارتفاع حفظ القرآن

أما أهل عصرنا فإنهم خلطوا في التعليم، وقسَّموه إلى حصص. وكل حصة وقَّتوا لها وقتا، وجعلوا للقرآن حصة من تلك الحصص. ولكن، كان المآل أن قلَّ حفظ القرآن، بل عدم بالمدن بالكلية بسبب هذا النظام، ولولا أهل البوادي الذين لا يزالون في الجملة محافظين على تقديم حفظ القرآن؛ لانعدَم القرآن من الصدور. فصحّ قول ابن خلدون، إن التخليط في تعليم القرآن، أو تقديم أ ي علم عليه، لا تساعد عليه العوائد.

نعم؛ ذوو الفطنة والتقدم والحضارة، في زعمهم، يرون حفظ القرآن لا قيمة له. وهو غلط، بل ضلالٌ جاءهم من عدم تمكنهم من فهم روح الديانة الإسلامية، وجهلهم بمقام القرآن فيها، وأنه كتابها الجامع، وحصنها المانع، وحجتها الساطعة، ومعجزتها الباهرة، وأنه الكتاب الذي فيه علم الأولين والآخرين، والعروة الوثقى، التي هي عصمة للسابقين واللاحقين.

المكتب الأول الذي ابتدأتُ فيه
قراءة القرءان الكريم

أما نحن فعلى المنهج العاديّ سلكنا، وعلى الصراط المستقيم قرأنا. فأخذت القرآن الكريم، عن الفقيه سيدي عبد الكريم كريش الحوزي، بالمكتب الذي قرب مسجد الرزيني، المجاور

لدار صديقنا المرحوم، وابن حبنا، الشريف الجليل، سيدي محمد الموذن، رحم الله الأصل والفرع.

وكان هذا الفقيه كثير الاعتناء بي، إذ يقدمني على سائر التلاميذ، إذ كان والدي، رحمه الله، يحسن إليه.

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

ثم بعد أن حفظت القرآن عليه، ولم يكن رحمه الله، له إلمام بعلوم تجويد القرآن، فأرشِدت إلى الأستاذ المقرئ، سيدي الأمين بوحديد، إذ كان يُشار إليه بذلك. فلازمته مدة للغرض المذكور، بالمكتب الذي بالجامع الكبير، الشهير بمسيد أهرار.

وفي هذه الأثناء، كنت أتعاطى دروساً من العلم، مع المحافظة على أوقات القرآن. ولم أزل كذلك، إلى أن انقطعت إلى متابعة الدروس العلمية.

شيخنا الفقيه البركة، سيدي عبد الله لوقش
وما قرأته عليه من المصنفات

فقرأت على الفقيه البركة، سيدي عبد الله بن عبد الرحمان لوقش: "مقدمة ابن آجروم"، وجملة من "صغرى" الإمام السنوسي، في التوحيد. وهي من أجل ما ألف في التوحيد، بحيث لا يعادلها غيرها في بابها، وقد أثنى عليها العلماء كثيراً.

قال ابن مريم[الشريف المليتي التلمساني]، في "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان": حدثني بعض من لقيته، قال لي: مات رجل قريب، وكان صالحا، فرأيته في النوم فسألته عن حاله فقال: دخلت الجنة فرأيت فيها إبراهيم الخليل، عليه السلام، يُقرئ صبياناً عقيدة الشيخ السنوسي، يدرسونها في الألواح، ويجهرون بقراءتها هـ [ص245].

قلت؛ وقد قال الشيخ في أول شرحها إنها عقيدة صغيرة الجرم، كثيرة العلم، محتوية على جميع عقائد التوحيد. ثم قال:

" فدونك أيها المتعطش للدخول في زمرة أولياء الله تعالى، عقيدةً لا يعدل عنها بعد الإطلاع عليها والاحتياج إلى ما فيها؛ إلا من هو من المحرومين، إذ لا نظير لها فيما علمت، وهي بفضل الله تعالى، تزهو بمحاسنها على كبار الدواوين، فثق أيها الحافظ لها إن فهمتها، بغاية الأمنية، واشكر الله تعالى إذ منَّ عليك بنعمة عظيمة طُردَ عنها كثير من الخلق، فباءوا في أصول عقائدهم بأعظم رزية"هـ [شرح أم البراهين للسنوسي ص21].

وشهرة الإمام السنوسي، تغني عن التعريف به، إذ هو عالم تلمسان وصالحها، وزاهدها وعلامتها. توفي سنة خمسة وتسعين، بتقديم التاء، وثمانمائة (895).

وكان الشيخ عبد الله لوقش المذكور، يجيد تعليم المبتدئ، إذ كان يحفظ كثيرا من القواعد النحوية المنظومة، التي تليق بتعليم المبتدئ، مع ما كان يمزج به الدروس من الحكايات الفكاهية التي تنشط الطالب المبتدئ، وتبعثه على الغبطة بحضور الدروس. وكان هذا الشيخ أول من ابتدأت عليه قراءة النحو.

شيخنا الرهوني
وما قرأته عليه من المصنفات

وقرأت على العلامة أبي العباس، سيدي أحمد الرهوني: "المرشد المعين"، و"شمائل" الترمذي، في شهور رمضان، و" شفاء" القاضي عياض، ومواضع من "رسالة" ابن أبي زيد، و"سلّم" الأخضري في المنطق، و"ألفية" ابن مالك. أما "الألفية" فكنا نقرأها عليه بالجامع الكبير، وأما الباقي فكان بمسجد المصمدي.

وشيخنا الرهوني، كان لنا شيخاً وصديقاً. فكما قرأنا عليه واستفدنا منه، كان لنا به اتصال كبير، وصداقة أكيدة، عمرنا بها أوقاتا كان ملؤها الانشراح، وروحها المسرات والأفراح؛ فتارة إثارة مسائل علمية، وطوراً أحاديث فكاهية هزلية؛ إذ كان الفقيه المرحوم، يغلب عليه الانبساط، ومزج الجد بفكاهات تبعث على النشاط. وربما كان، رحمه الله، يفرط في ذلك في بعض الأحيان حتى يخرج بذلك عن حد الاعتدال. ذلك خلقه المطبوع عليه، ولا تبديل لخلق الله.

إراحة النفس المكدودة بالجدّ، بفسح المزاح، مباح أو مطلوب

إلا أن المزاح، وإن كان مباحاً أو مطلوباً، في بعض الأوقات، لإراحة النفس من تعب الجد، فشرطه أن لا يخرج عن دائرة الحد، كما قال [ ] :

أفد طبعك المكدودَ بالجدِّ راحـــةً يَجِمُّ وَعلّلهُ بشـــيءٍ من المَـــــزْح

ولكن إذا أعطيته المَزْحَ فليكُـــن بمقدار ما يُعطى الطعام من المِلْح

وإنما كان بعض المزاح مطلوباً أو مباحاً، فإن نفس الإنسان إن استمرت على الجد، وحملت عليه، أدى ذلك بها إلى الملل، والترك للجد بالكلية، فطِلب ترويضها بشيء من المزاح، حتى تستجد نشاطها لعمل الجد.

وفي الحديث: "عليكم من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملوا ". وقال صلى الله عليه وسلم، لحنظلة، لما قال له: نافق حنظلة: "لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة، ولكن يا حنظلة؛ ساعة وساعة". ثلاث مرات. والحديث في صحيح مسلم، وسيأتي بتمامه بعد.

وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي ببعض اللهو ليكون ذلك عونا لي على الحق.هـ[سنن المهتدين ص66].

وحيث إن النفس كالطفل، فلابد من البرور بها، كي تساعد على الحق، وتسير على الصراط المستقيم. ومن البرور بها، نقلها من حال إلى حال، لئلا تقع في الغم والفكرة الموجبة للاضطراب.

لا يصلح النفس إذا كانت مدبرةً إلا التنقلُ من حال إلى حالِ

وللأطباء في هذا الموضوع، وصايا وإرشادات. قال جالينوس:

" يحدث من النظر في العلم من الهم والغيرة والفكرة أمراض كثيرة. وقال في كامل الصناعة: ينبغي للمرء أن لا يُدمن الغم، ولا يُكثر من الفكر، فإن ذلك كله مما يغير مزاج البدن، ويعين على إنهاكه، وضعف الحرارة الغريزية، ومن كان مزاجه حاراً، فإن هذه الأعراض تولد حُمَّياتٍ رديئة بمنزلة حمى الدرق، وقرحة السل، وما يجري هذا المجرى.

ولذلك ينبغي أن يجتنب الإنسان الأعراض النفسانية كلها، وأن يلهي نفسه بالسرور، فإنه يقوي الحرارة الغريزية، ويحركها إلى ظاهر البدن، ويزيد في النشاط، ويقوي النفس". قال في "سنن المهتدين" : وانظر قوله يلهي نفسه بالسرور: يقول الفقهاء بالمزاح، ويقول الصوفية بالغناء.هـ[ص69].

وإذا كان لابد من ترويح النفس الملولة، بالفكاهة والمزاح، فلابد من تقييده شرعا، بأن لا يكون بشيء حرام، وأن لا يكثر حتى يصير عادة مستمرة.

أما المزاح بالمحرمات، فإنه لا يجوز أصلا. وأما الإكثار من المباح، فإنه منهيٌّ عنه، لأنه يورث القساوة والاشتغال عن المهمات من العبادات وغيرها، ويؤول في كثير من الأوقات، إلى فساد الأخلاق، وعدم مراعاة المقامات، فيعود بسطه قبضاً، وأنسه إيحاشاً وإيذاءً، يوجب عداوة وحقداً، ويُميط عن وجه المروءة الستار، حيث لا تبقى مع ذلك مهابة ولا وقار.

فالمزاح المباح، ما وافق الشريعة واتبع السنة المحمدية، إذ كان، صلى الله عليه وسلم، من محاسن أخلاقه، وجمال عشرته، وكمال تواضعه، أن يتنزل مع أصحابه، ويعاملهم معاملة النظير للنظير، رفقاً بهم، وتوسيعا على الأمة، ويمزح معهم، ولا يقول إلا حقاً.

جاءت إليه، صلى الله عليه وسلم، عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله يدخلني الجنة. فقال: "يا أم فلان: إن الجنة لا تدخلها عجوز". فولّت تبكي، فقال:" أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. إن الله تعالى يقول:(إنّا أنشَأناهُنَّ إنشاءً فَجَعلناهُنَّ أبكاراً)".

وسأله رجل أن يحمله، أي أن يعطيه دابة يركبها، فقال، صلى الله عليه وسلم: " إني حاملك على ولد الناقة ". فقال يا رسول الله: ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ولمَ؟ وهل تلد الإبل إلا النوق ".

وهكذا كان مزاح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كله حق. كما قال، لما قالوا له إنك تداعبنا، أي تمازحنا، مع أنك نهيتنا عن المزاح: "إني لا أقول إلا حقا ". أي فمن قدر على أن يمزح، ولا يقول إلا الحق، يُساغ له المزاح، بخلاف من يُخاف عليه أن يقع في حال مزحه في الباطل، من السخرية والاستهزاء، ونحو ذلك من الأذى من كل ما لا يحلّ. ولهذا ورد عن

السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنه كان، صلى الله عليه وسلم، يمزح ويقول: " إن الله لا يواخذ المزّاح الصادق في مزاحه".

وقلت فيما كنت شرعت فيه من نظم شمائل الترمذي:

وكان ينبسط للصّحـــــابِ بالمزح لا يعدو عن الصــوابِ
كقوله لأنس ذا الأذنـــــين مداعبا له بحق دون مـيــــن
وقال في مزاح ذي نُغـيـــر وهو صبيٌّ يا أبا عُمَـيــــر
وإذ أتاه رجل يستحمـــــلُ قال على ابن نـاقة ستُحْمَـــلُ
وزاهر باسطـه وجــــدًا فقال من يشتري هذا العبـــدَا
وقال للعجــوز ليست تدخلُ جنةَ عدنٍ إذ أتتــه تســــألُ

وعلى هذا، يحمل ما ورد في وصف أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب، من أنه كان ذا دعابة وفكاهة، أي ذا طلاقة وجه، وحسن معاشرة، وتهلل محيا، وابتسام وبشر، وتنزّل مع أصحابه، وهو الأمير.

تراه إذا ما جئته مُتهــللاً كأنك معطِيهِ الذي أنتَ سائله

ولاشتهاره بهذا الوصف، قال له سيدنا عمر، لما عزم على استخلافه: لله أبوك، لولا دعابة فيك.

وعلى هذا المنحى، جرى السلف الصالح، ومن سلك في طريقهم من أكابر العلماء، وأفاضل الفقهاء، وعُمَدِ الأتقياء الأصفياء، إذ كانوا يُريحون أصحابهم، ويستمعون إلى أخبارهم، ويشاركونهم في حديثهم عن أمر دنياهم، مما لا يقدح في دين، أو يثلم عرضا من أعراض المسلمين. قال البخاري:

" لم يكن أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، متخوفين ولا متهاونين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريدَ أحد منهم على شيء من دينه، دارت حَماليقُ عينيه في وجهه، كأنه مجنون."

وقال مالك: كان عمر بن الخطاب إذا صلّى الظهر، قعد يُحدِّثُ الناس عما يأتيه من أخبار الأجناد، ويحدّثونه، فقال مالك: وقوم إذا رأوا الناس يتحدثون، قالوا: اذكروا الله. ولم يكن ذلك من شأن الأخيار؛ كانوا يتحدثون.

وروى في "الحِلية"، عن قُرَّة بن خالد، قال: قلت لمحمد بن سيرين: هل كانوا يتمازحون؟، يعني أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: ما كانوا إلاَّ كالناس، كان ابن عمر يمزح وينشد الشعر، ويقول:

يُحب الخمْرَ من كَيْسِ النَّدامَى ويكرَهُ أن تُفارقهُ الفُلوسُ

وفيها: عن ابن عون، عن ابن سيرين، قال: كانوا يرون حسن الخلق عونا على الدين.

وفيها: عن مهدي بن ميمون، قال: كان محمد بن سيرين، يتمثل الشعر، ويذكر الشيء ويضحك، حتى إذا جاء الحديث من السنة، كَلَحَ وانضم بعضه إلى بعض.

وفيها: عن يوسف بن عطية، قال: رأيت محمد بن سيرين، وكان كثير المزاح، كثير الضحك.

وفيها: عن ابن شعيب، قال: كنت عند محمد بن سيرين، فجاءه إنسان فسأله عن شيء من الشعر، وذاك قبل صلاة العصر، فأنشد هذه الأبيات:

كأن المدامة والزنجبيلْ وريح الخُزامى ودَوْبَ العَسَلْ

يُعْدَلُ به بَردُ أنيابها إذا النجمُ وسْط السماءِ اعتدلْ

ثم دخل في الصلاة.

وفيها: سئل محمد بن سيرين، أينشد الرجل الشعر وهو على وضوء؟ فقال:

نبئت أن فتاةً كنتُ أخطبُها عرقُوبها مثل شهر الصَّوم في الطول

أسنانها مائة أو زدنَ واحدةً وسائرُ الخلق منها بعد ممطول

هـ[274/2]. وجاءت امرأة إلى الإمام مالك، رضي الله عنه، مع زوجها، كلاهما يشكو صاحبه، فقال للرجل: ما تنقم منها؟ قال: تضحك إذا خرج مني ريح. فقال مالك: فتباعد عنها، إذا كان ذلك منك. قالت المرأة: هو رعد كرعد الخريف. فقال لها مالك: احشي في أذنك قطنا. فقالت: والله لو جعلت في أذني سندار حداد، لنفذه. فقال مالك: إذهبي، فاضحكي حيث شئت. وقال للرجل: عليك بأكل السعتر، فداوم عليه، فانقطع عنه هـ[سنن المهتدين ص54].

والخلاصة هنا؛ أن ترويح النفس، وتعليلها بشيء من الملح والفكاهات، التي لا تخرج عن الآداب الشرعية، والحقوق المرعية، ولم تتعدَّ حدود الاعتدال، ولم تُتَّخذ عادة في سائر

الأحوال؛ هو مباح ليس فيه على المقتصد من جناح، إذ ذاك نزهة النفس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومَجْلَبُ الراحة، ومعدن السرور. وقد قدمنا ما يشهد لك بهذا.

ومنه قوله عليه السلام، فيما رواه أبو داود في مراسيله، والقضاعي: "روحوا القلوبَ ساعة فساعة". قال المناوي: أريحوها بعض الأوقات، من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب.

وذكر عند المصطفى، صلى الله عليه وسلم، القرآن، والشعر، فجاء أبو بكر فقال: أقراءة وشعر؟ فقال صلى الله عليه وسلم :" نعَم. ساعة هذا، وساعة هذا ". وعنه عليه السلام فيما ذكره صاحب "العِقد" : "لا خير فيمن لا يطرب ". وقال: "كل كريم طروب" هـ. قلت: وهذان الحديثان، لم أقف على من خرجهما من أهل الحديث الآن.

وقال سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: أجمُّوا هذه القلوب، والتمسوا بها طرق الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان، والنفس مؤثرة الهوى، آخذة الهوينا، جانحة إلى اللهو، أمَّارة بالسوء، مستوطنة للعجز، طالبة الراحة، نافرة عن العمل. فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها.هـ

وعنه، صلى الله عليه وسلم، قال: "يدخل نُعيْمَانُ الجنة ضاحكا، لأنه كان يضحكني". وذلك أن النبي، صلى الله عليه وسلم، دخل عليه وهو أرمد، فوجده يأكل تمراً، فقال له:" أتأكل تمراً وأنت أرمد؟" فقال: إنما آكل من الجانب الآخر. فضحك النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى بدت نواجده. وفكاهات هذا الصحابي مع النبي، صلى الله عليه وسلم، كثيرة، ذكرت في السير والشمائل.

ثم إن كل ما مرّ من الأحاديث والآثار، وكلام أهل العلم وذوي الأفكار، إنما هو موضوعه فيمن دأبه الاجتهاد في المهمات من أمور الدين أو الدنيا، التي يقوم بها الذين يملأون أوقاتهم بالمجاهدة، كي ينالوا عند الله المرتبة العليا، جاعلين الآخرة في المقصد الأهم، وأن الدنيا إنما هي طريق إليها، فلا ينظرون إليها إلا شزراً، ولا يعدّون سرورها إلا شراً.

فهؤلاء، هم القوم الذين يُطلب منهم ترويح أنفسهم ببعض المباح، كي لا يقع من النفس نفور عن العمل وجماح. وحديث حنظلة الصحيح، الذي أشرنا إليه سابقاً، يُبين لك المراد، ولنأت بتمامه هنا، لأهمية موقعه، وحسن بيانه، فنقول:

ترجم في نسخة صحيح مسلم المجردة، بقوله: باب فضل دوام الذكر والفكر، في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا. وأخرج عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي، قال، وكان من كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله. ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا. قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟" قلت: يا رسول الله: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم. ولكن يا حنظلة؛ ساعة وساعة". ثلاث مرات.هـ[442/2]. قال الإمام القرطبي إثر الحديث، حسبما نقله الأُبّي عنه:

"سنة الله تعالى، في عالم الإنسان، أنّ فعله متوسط بين عالم الملائكة، وعالم الشياطين، فمكّن الملائكة في الخير، بحيث يفعلون ما يؤمرون، ويُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون. ومكّن الشياطين في الشر والإغواء، بحيث لا يغفلون. وجعل عالم الإنسان متلونا، وإليه أشار صاحب الشرع، صلوات الله وسلامه عليه، بقوله: "ولكن، يا حنظلة؛ ساعة وساعة ". وقال في حديث أبي ذر: "وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب" هـ[شرح صحيح مسلم7/ 156].

رجوع إلى ترجمة شيخنا الرهوني

ولنرجع إلى الكلام على شيخنا الرهوني، فنقول: إنه كان، رحمه الله، مع مزيد الصداقة والوداد، شديدَ الاعتناء بنا، منوها بمعرفتنا، ينظر إلينا نظرة يفضلنا بها عن كثير من أقراننا

في الطلب. ولقد قال لي يوما بمجلس درس الألفية، لما أجبته عن مسألة ضلّت عنه، وكانت تلك المسألة فيما أظن، مذكورةً بهامش شرح الأزهري للتوضيح؛ مقالة ما يسرني بها حُمْرُ النَّعَم، إذ كنت تيمنت بها، واتخذتها فألاً حسنا، وهو أنه قال لي: أنت ولد المقدم ـ يعني مقدم الطريقة الدرقاوية ـوستكون إن شاء الله، عالماً غنيا كالفقيه ابن الأبار، لأنه كذلك ولد المقدم.

فكانت كلمة طيبة، أثرت في قلبي، ووقعت مني موقعا حسنا، وآنست بها، وارتحت لها، وصرت أترجى أثرها، وأتوكّف من الفاعل المختار تحقيقها. ولقد وقع والله ما رجوته، وأدركت بفضل الله من ذلك الفأل الحسن ما أمّلته. وهذا هو الفأل الذي كان يعجبه، صلى الله عليه وسلم.

الكلام على الفأل وما قاله
النبي، صلى الله عليه وسلم، في تفسيره

ففي صحيح البخاري: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لا طيرة؛ وخيرها الفأل". قال: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: " الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم". وفيه: عن أنس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح؛ الكلمة الحسنة "هـ[فتح الباري166/10].

والطيرة في الشرع ما يسوء، والفأل ما يسر. ومن شرطه أن لا يُقصد إليه، فيصير من الطيرة. قال ابن بطال: جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة، والأنسَ بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنطق الأنيق، والماء الصافي، وإن كان لا يملكه ولا يشربه.

وأخرج الترمذي وصححه، من حديث أنس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا خرج لحاجته، يعجبه أن يسمع: يا نجيح، يا راشد.

وأخرج أبو داود، بسند حسن، عن بريدة، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملا يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به. وإن كره اسمه، رُئي كراهة ذلك في وجهه. قال الحليمي: وإنما كان، صلى الله عليه وسلم، يعجبه الفأل، لأن

التشاؤم سوء ظن بالله تعالى، بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به. والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال هـ[فتح الباري167/10].

الطيرة والفرق بينها وبين الفأل

وأما الطيرة، بكسر المهملة، وفتح التحتانية، وقد تُسكَّن، هي التشاؤم، بالشين، مصدر تطير مثل تحير حيرة. وأصل التطير؛ أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير. فإذا خرج أحدهم لأمر، فإن رأى الطير صار يمنة، تيمن به واستمر. وإن رآه طار يسرة، تشاءم به ورجع. وربما كان أحدهم يهيج الطير لتطير فيعتمدها. فجاء الشرع بالنهي عن ذلك، وكانوا يسمونه؛ السانح، بمهملة، ثم نون، ثم حاء مهملة. والبارح، بموحدة، وآخره حاء مهملة. فالسانح ما ولّاك ميامنه، بأن عبر عن يسارك إلى يمنتك. والبارح بالعكس. وكانوا يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح، لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه. وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما اعتقدوه. وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز، فيستدلّ بفعله على مضمون معنى فيه. وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله. وقد كان بعض عقلاء الجاهلية يُنكر التطيرَ ويتمدَّح بتركه. قال شاعر منهم:

ولقد غدوتُ وكنـتُ لا أغدو على واقٍ وحاتمْ

فإذا الأشائمُ كالأيامـنِ والأيامنُ كالأشـانـمْ

قال الحافظ ابن حجر: وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك، ويصح معهم غالبا لتزيين الشياطين ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين. وقد أخرج ابن حبان في صحيحه، من حديث أنس رفعه: "لا طيرة، والطيرة على من تطير". وأخرج عبد الرزاق، عن معمر، عن إسماعيل بن أمية، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يسلم منهن أحد؛ الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق". وهذا مرسل، أو معضل، لكن، له شاهد من حديث أبي هريرة؛ انفرد به البيهقي في الشعب.

ثم أورد الحافظ، في هذا الباب، أحاديث أخر، ثم ساق حديث أبي داود والترمذي، وصححه، عن ابن مسعود، رفعه: "الطيرة شرك ". قال ابن مسعود: وما منا إلا تطير، ولكن الله يذهبه بالتوكل. قال الحافظ: وإنما جعل ذلك شركاً، لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً، أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى. وقوله: ولكن الله يُذهبه بالتوكل؛ إشارة إلى أن من وقع له، ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة؛ أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك. وأخرج البيهقي في الشعب من حديث عبد الله ابن عمرو، موقوفاً: "من عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل: اللهم لا طير إلا طيرُك، ولا خير إلا خيرُك، ولا إله غيرك".هـ[فتح الباري10/ 166].

وقد علمتَ مما سبق، أن من شرط الفأل أن لا يُقصد إليه، كما قاله ابن حجر. ولكن يَرد عليه ما ورد في "الصحيح"، من أنه عليه السلام، حوّل أسماء مكروهة من أقوام كانوا في الجاهلية، بأسماء حسنة، ومنه تسمية الولد والغلام، بالإسم الحسن. فهذا ونحوه مقصود، وهو فأل حسن جائز.

تقسيم الفأل إلى أقسام ثلاثة،
منها أخذ الفأل من المصحف، واختلاف العلماء في ذلك

وعليه فينقسم الفأل إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الكلمة الحسنة، يسمعها الرجل اتفاقاً من غير قصد، كمن كان يطلب حاجة، فسمع من يقول يا فلاح أو يا نجيح، أو من تزوج مثلا امرأة، فسمع قائلا يقول: يا سعيدة.

الثاني: أن يقصد إلى ذلك، كتسمية ولده حسناً، أو طيباً، أو طاهراً، أو غلامه؛ مسعوداً أورابحاً.

فهذان القسمان، من الفأل الحسن الجائز، وفيه ورد عنه، عليه السلام، أنه كان يحب الفأل الحسن، كما تقدم، لأنه يبعث على حسن الظن بالله.

الثالث: ما هو متردد بين الخير والشر، وهو ممنوع وحرام، كالضرب بالرمل، والقرعة، والضرب بالشعير. ومن هذا القسم؛ أخذ الفأل من المصحف.

قال القرافي، عن الطرطوشي: "إن أخذ الفأل من المصحف، وضرب الرمل، والقرعة، والضرب بالشعير، وجميع هذا النوع؛ حرام، لأنه من باب الاستقسام بالأزلام".هـ[الفروق 221/4] وعلى هذا القسم قول ابن منظور:

ما للعطاس وما للفأل من أثر فثق فديتك بالرحمان واصطبر

وسلم الأمر فالأحكام ماضية تجري على السنّن المربوط بالقدر

قال القرافي:

"والأزلام؛ أعواد كانت في الجاهلية، مكتوب على أحدها: إفعل. وعلى الآخر: لا تفعل. وعلى الآخر غفل. فيخرج أحدها فإن وجد عليه: افعل، أقدم على حاجته التي يقصدها. أو: لا تفعل، أعرض عنها واعتقد أنها ذ ميمة. أو خرج المكتوب عليه: غفل، أعاد الضرب. فهو يطلب قسمه من الغيب بتلك الأعواد، فهو استقسام، أي طلب القسم الجيد ليتبعه، والرديء ليتركه ".قال:

"وكذلك، من أخذ الفأل من المصحف، أو غيره، إنما يعتقد هذا المقصد، إن خرج جيداً اتبعه، أو رديئاً اجتنبه، فهو عين الاستقسام بالأزلام، الذي ورد القرآن بتحريمه، فيحرم. وما رأيته حكى في ذلك خلافا" هـ [الفروق221/4].

وقال ابن العربي:

"قوله تعالى: (وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ) معناه: تطلبوا ما قسم لكم وجعل من حظوظكم وآمالكم ومنافعكم، وهو محرم فسق ممن فعله، فإنه تعرض لعلم الغيب، ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يتعرض للغيب ويطلبه، فإن الله سبحانه قد رفعه بعد نبيه، إلاّ في الرؤيا. فإن قيل فهل يجوز طلب ذلك في المصحف؟ قلنا لا يجوز. فإنه لم يتبين المصحف ليعلم به الغيب، إنما بينت آياته ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به، ولا يتعرض أحدكم له".هـ [الأحكام225/1].

لكن، نقل العلامة الرهوني، في حاشية الزرقاني، ما يفيد الجواز، إذ نقل عن "مدارك" عياض ما لفظه:

"قال الخطيب: حدثني أبو الفضل، عبد الله بن علي المغربي، قال: ذهبت أنا، وأبو علي بن شاذان، وأبو القاسم الصيرفي، إلى قبر القاضي أبي بكر، بعد موته بشهر، لنترحم عليه،

فرفعت مصحفاً كان على القبر، وقلت: اللهم بين لي في هذا المصحف، حال القاضي أبي بكر وما صار إليه. ثم فتحت المصحف فإذا فيه: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)".

"وكان أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الجهني الطليطلي، يستحسن التفاؤل في المصحف لالتماس البركة، فحكى أنه ضرب مرة، وكان أراد ركوب البحر فألفى: (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُم جُندٌ مُّغْرَقُونَ) قال: فتخلفت. وركب غيري، فغرقوا بأجمعهم" هـ. قال الشيخ الرهوني إثره، قلت: ظاهر كلام عياض، أنه قبل ما للجهني، كما قاله ابن ناجي، فإنه لما ذكر حكايته قال ما نصه: وقبله عياض في مداركه بسكوته عنه" هـ [37/3].

قلت: والمسألة خلافية، كما قاله شيخنا سيدي محمد بن جعفر الكتاني، رحمه الله ورضي عنه، في درس الشفا، إذ كنا نقرؤها عليه بالقرويين بفاس، ولفظ تقريره الذي كتبته عنه، في هامش شرح ابن سلطان، إذ ذاك:

"وفي أخذ الفأل من المصحف قولان: الذي أفتى به الطرطوشي، وتبعه تلميذه ابن العربي، هو المنع، وقال بعضهم إنه جائز. وهذا في مذهب مالك. وأما في مذهب الشافعية، فهو الجواز". ولم يتعرض شيخنا، رحمه الله، في تقريره هذا، إلى ترجيح أحد القولين.

بسط الكلام في هذه المسألة،
وتحرير القول فيها

وبعد هذا كله، لا بد من زيادة بسط المسألة، ونقل ما فيها من المآخذ والآراء، والإشارة إلى مثار الخلاف، وما أورده المخالف من الإشكال، وتحقيق القول في تأويل الآية التي استدلّ بها المانع، فنقول:

قال الله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيكُم الميتَةُ والدَّمُ ولَحمُ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُم فِسْقٌ) جاءت هذه الآية الكريمة لتفصيل المطعومات المحرمة، التي

أشارت لها الآية السابقة، وهي قوله تعالى (أحِلّتْ لكُمْ بَهيمَةُ الأنعام إلاّ مَا يُتلى عَليكُمْ) وقد اشتملت على أحد عشر محرما، وهي:

- الميتة، وهو ما مات حتف أنفه، عدا ميتة البحر، لورود الدليل على حليتها.

- والدم المسفوح.

- ولحم الخنزير.

- وما أهل لغير الله به، أي ذبح إشراكا واعترافا بما عُبِدَ من دون الله، من الأصنام وغيرها.

- والمنخنقة، أي الحيوانات التي انخنقت بشيء، فماتت.

- والموقوذة، أي التي ضُرِبَت بحجر أو عصا أو نحوهما، فماتت.

- والمتردية، أي التي تردت، أي سقطت من مَحلٍّ عال، أو غيره، فماتت.

- والنطيحة، أي التي نطحها غيرها فماتت.

- وما أكل السبع، أي الحيوان الذي ابتدأ السبع ونحوه، في أكله، أي شرع في أكله، وترك البقية. واستثنى مما عدا الميتة والدم؛ ما أدرك حياً حياة معتبرة شرعاً، وذُكِّيَ ذكاة شرعية، كما قال: (إلاَّ مَا ذَكَّيتُم).

- (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصِبِ)، جمع نِصاب، وهي حجارة كانت حول الكعبة، وكان أهل الشرك من الجاهلية، يذبحون عليها تقربا لغير الله.

- المحرم الحادي عشر، قوله تعالى: (وَأنْ تَستَقسِمُوا بالأزْلاَمِ)، وهو المحرم الذي استدعاه بحثنا، وأردنا تفصيله، فنقول:

إننا إن ذهبنا على أن معنى تأويل قوله تعالى: (وَأنْ تَستَقسِمُوا بالأزْلاَمِ)، أي طلب ما يأتي وينوب كل واحد في قسمته من الجزور بالأقداح، على الأنصباء المعلومة في عُرف الجاهلية، وكان ذلك متفاوتا عندهم، ويرجعون في ذلك إلى التماس مدد معبوداتهم من الأوثان والأنصاب. ولا شك أن في هذا تعلقا بغير الله، واستدعاء وطلبا لعلم الغيب من عند غير الله، وهو شرك ظاهر.

كما أن فيه نوعا من الميسر، بل هو الميسر نفسه عند العـرب، حيث إنـهم يتخاطـرون

ويرمون بسهامهم، وكل يرجو أن يأخذ الحظ الأوفر، والقسم الأكبر، ويقامرون في ذلك. فأكل لحم هذا الجزور، المأخوذ بطريق المقامرة، على هذا التأويل، حرام.

وعلى هذا فلا دليل في الآية لمنع من منع أخذ الفأل من المصحف. وهذا التأويل مروي عن علي ابن إبراهيم، من أئمة أهل البيت. ورُجِّحَ هذا التأويل بأنه يناسب سياق الآية التي أتت لبيان المحرمات من المأكولات.

قلت؛ وهذا الترجيح حسن ظاهر، إلا أن جمهور المفسرين على خلافه، إذ قالوا في تأويل الآية؛ إن الأزلام جمع زَلَم، كجمل، أو كصُرَد، وهي الأقداح. أي وحُرِّمَ عليكم الاستقسام بالأقداح. وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، وأبقوا الثالث غفلا لم يكتب عليه شيء. فإن خرج الأمر، مضوا، وإن خرج النهي إجتنبوا، وإن خرج الغفل أعادوا الضرب. فمعنى الاستقسام، طلب علم الغيب في معرفة ما قسم وقدر لهذا المستقسم بهذه الأقداح أو الأعواد أو الأوراق، من الخير أو الشر، فهو نوع من الفأل أو هو نفسه.

وعليه فالآية، تحرم كل سبب من هذه الأسباب، أو غيرها، التي تُتخذ للاطلاع على الغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله. وأخذ الفأل من المصحف من هذا القبيل، فيكون ممنوعاً، وبهذا تمسك المانعون.

ولكن هذا الأخذ، مشكل، لأمور:

أولا: إن الأخذ من المصحف من قبيل الفأل، وهو جائز بنص رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ذلك.

وثانيا: الرؤيا، فإن تأويلها جائز، وهو علم التعبير، وقد ورد في القرآن والسنة، ولا قائل بالمنع منه.

ثالثا: الكرامات، والإلهامات، وأمر جوازها والاستناد إليها في الأمة معروف.

وخلاصة القضية من هذا كله؛ ان قوله تعالى (ذَلِكُمْ فِسْقٌ) أي كفر أو معصية، إما أن يكون راجعاً لجميع ما ذكر من المحرمات، ويحتمل أن يكون لخصوص الاستقسام. فإذا ذهبنا على ما تقدم من[أن] الاستقسام بالأزلام، هو الميسر، فظاهرٌ تحريمه. وإن قلنا إنه بمعنى طلب معرفة الخير والشر، من إجابة تلك الأقداح، فوجه التفسق أنهم كانوا يفعلون ذلك عند

أصنامهم، ملتمسين بركتها وإمدادها، ويعتقدون أن ما خرج من الأمر أو النهي، هو بإرشاد تلك الأصنام وإعانتها. ولا يخفى ما في هذا من نوع الإشراك، فلذلك كان فسقاً أوكفراً.

أما طلب الظن بالأمارات المتعارفة، كالتعبير والفأل، والكرامات والإلهامات، فليس من هذا القبيل، لأنه تعلقٌ بالله واسترشاد منه لا بغيره، ومنه أخذ الفأل من المصحف. وعليه، فأخذ تحريمه من هذه الآية ضعيف. وقد أشار لبعض هذا الفخر الرازي، واختصر ذلك النيسابوري [في تفسيره] بقوله:

(ذَلِكُمْ فِسْقٌ)، إشارة إلى جميع ما تقدم من المحرمات، أي تناولُها فسق. ويحتمل أن يرجع إلى الاستقسام بالأزلام فقط. وكونه فسقاً بمعنى الميسر، ظاهر. وأما بمعنى طلب الخير والشر، فوجهه أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم، ويعتقدون أن ما خرج من الأمر أو النهي، هو إرشاد الأصنام وإعانتها، فلذلك كان فسقاً وكفراً.

وقال الواحدي: إنما حُرِّم لأنه طلب معرفة الغيب، وأنه تعالى مختصٌ بمعرفته. وضُعِّف بأن طلب الظن بالأمارات المتعارفة غير منهيّ، كالتعبير والفأل، وكما يدعيه أصحاب الكرامات والفراسات هـ [غرائب القرآن بهامش تفسير ابن جرير53/6].

وبهذا التقرير، يتقوى ما نقله القاضي عياض، في مداركه، عن الجهني الطليطلي، من أنه كان يستحسن أخذ الفأل من المصحف. ويزيده قوة ما نقلوه من فتاوى الصوفية عن الزندوستي، من أنه لا بأس بذلك، وأنه قد فعله علي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، ومعاذ بن جبل، رضي الله عنه، وروى عن علي أنه قال:

"من أراد أن يتفاءل بكتاب الله تعالى، فليقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) سبع مرات، وليقل ثلاث مرات: اللهم بكتابك تفاءلت، وعليك توكلت. اللهم أرني في كتابك ما هو المكتوم من سرك المكنون في غيبك. ثم يتفاءل بأول الصحيفة "هـ.[روح المعاني6-52].

ولكن في النفس من هذا النقل شيء ـ كما قاله الألوسي ـ لكونه ليس له سند صحيح عمن ذُكِر، إذ لم يُنقل بطريق متّصل عن الصحابة، أو السلف الصالح، أنهم كانوا يفعلون ذلك.

وعليه، فالأولى هو الترك، والاستعاضة عنه بالاستخارة الواردة في الصحيح، عن النبي، صلى الله عليه وسلم.

رجوع الى ترجمة الشيخ الرهوني، وذكر شيوخه بتطوان وفاس

ولنرجع إلى تتميم ترجمة الشيخ الرهوني، فأقول:

هو العلامة المشارك، الذي أدرك في حدة الذهن وسرعة الفهم أعلى المدارك. كان نسيج وحده، ووحيد دهره ذكاء وفطنة ومشاركة واتساعاً في التفنن، ريانَ من العلوم الإسلامية، من فقه وأصول وحديث وتفسير، وبيان ومنطق، إلى التبحر في فنون الأدب من قرض شعر، وإبداع نثر، وتاريخ ومعرفة بتراجم رجال المغرب وغيره، مع بعض اطلاع على علوم العصر من جغرافية وغيرها.

وبالجملة فقد كان ممتع المحاضرة، حلو المجالسة، مع اتساع في الأخلاق التي جعلته صالحاً للاتصال بطبقات الناس، على اختلاف أقدارها ومناصبها، وتباين مقاصدها ومشاربها.

إلا أنه كان مع نبله، وحدة ذهنه، كثير الميل لمن يدعي الاطلاع على الغيب، بالكرامة أوغيرها؛ ينخدع لكل مدَّع، وينقاد لكل مشعوذ، حتى ضاعت له في ذلك أموال. والكمال للكبير المتعال.

قرأ العلم ببلده تطوان، على أشياخ الوقت، كالعلامة السلاوي، والقاضي عزيمان، والأديب سيدي المفضل أفيلال، والعلامة البقالي، والعلامة ابن الأبَّار، والعلامة الزواقي، وغيرهم.

ثم انتقل لفاس، فأخذ بها عن العلامة كنون الصغير، والعلامة ابن الخياط، والعلامة سيدي المهدي الوزاني، والعلامة الهواري، والعلامة سيدي التهامي بن المدني كنون، وسيدي التهامي الوزاني، وغيرهم.

ثم قفل إلى بلده ممتلئ الوطاب، ممتازاً على الأقران. فتصدى لبثّ العلم ونشره، وإفادة الخاطبين لبنات فكره، فانثالت عليه طلبة المدينة، واغتبطوا بدروسه المتنوعة، من توحيد، وفقه، ونحو وتصريف، ومنطق، وحديث، وغير ذلك.

وكان من عادته، رحمه الله، أنه لا يتكلَّف للدرس، بل يأتي وبيده كراسه، فيملي منه على الطلبة، ويلقي إليهم الواضح، ويشرح لهم الغامض.

ومن عاداته أنه لم يكن يقرأ درساً إلاّ ويكتب على كراسة الشرح أوالمتن الذي يقرؤه. ولهذا ترى جميع هوامش كتبه محلاّة الطرر، بغرر الفوائد ومستدركات الدرر.

أما مؤلفاته المستقلة، فهي كثيرة في موضوعات مختلفة، منها: حادي الرفاق إلى فهم لامية الزقاق، وشرح على ألفية ابن مالك. وابتدأ شرح مختصر الشيخ خليل، أظنه ناهز إتمام الربع الأول منه؛ كان يعتمد فيه على ما انفصل عليه بناني والرهوني، وله اختصار نفح الطيب، واختصار الاستقصا، وكلاهما مختصر جداً يشبه البرنامج، وله في تاريخ تطوان؛ عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، في عشر مجلدات.

طريقته في التصوف:

أما طريقته في التصوف، فكانت أولًا درقاوية، أخذها عن الشيخ المربي العارف، سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة، شيخ والدي السابق الذكر، فبقي برهة في هذه الطريقة.

ثم لما ظهرت بالمدينة الطريقة التجانية، انتقل إليها، وأخذ وردها، وتعلق بها تعلقاً شديداً، واغتبط بها اغتباطاً فائقاً، وصار يعتقد في شيخها العارف، سيدي أحمد التجاني، اعتقاداً لا يعادله اعتقاد، إذ صار من رؤسائها وحماتها، ومن له الإذن في تلقين أذكارها وأورادها، مع ما كان له من التعظيم في شأن ذرية الشيخ المذكور، والتفضل عليهم بوفرة، وإيثارهم على ما أمكنه، بكل ما لديه، حتى باع أملاكاً في هذا الشأن، وأنفق عليهم إنفاق من لا يخشى الفقر. نفعه الله بنيته وقصده.

ولم يزل، رحمه الله، متعلقاً بأذيال هذه الطريقة، معتصماً بحبلها، ينشر للناس محاسنها، ويبث في دروسه العلمية كرامات شيخها، ويُقرِّرُ ما لها من الخصوصيات والفضائل، وأمان من دخل فيها في العاجل والآجل، حتى أصبح مرمى لسهام المنتقدين، وهدفاً للمتمسكين بالظاهر. قال لي يوما بعض حذّاق أهل العلم: إنّ ما يذكره الفقيه المذكور، في حق شيخه من التصرفات والخوارق، كاد أن لا يُبقي فيه للخالق شيئاً من التصرف معه. أو كلاماً هذا معناه.

كما كان الفقيه المذكور، يقرر أن شيخه هو الختم، أي ختم الأولياء. على أن ما كان يذكره الفقيه المذكور، في مناقب الشيخ، ليس من عنده، ولا من بنات فكره، وإنما هو تابع

في ذلك لغيره.وكل ما يذكر في ذلك، فله عند تحسين الظن، محامل صحيحة، ومخارج من الانتقاد مريحة.

انتقاد السيد الشنكيطي
على الشيخ التجاني، ورد بعض انتقاداته

ولقد بالغ السيد محمد الخضر الشنكيطي، في تأليف له خاصّ في الهجوم على الشيخ، رضي الله عنه، واشتطّ حتى في التسمية، إذ سماه: "مشتهى الخارق الجاني، في رد زلقات التجاني الجاني"، وملأه بالانتقاد على الشيخ، وتتبع مقالاته، والحكم في بعضها بتكفير قائلها. وقد حاد في بعضها عن طريق الإنصاف.

ومن جملة ما اطلعت عليه فيه، انتقاده قول الشيخ في "الجوهرة": (الأسقم). وقوله: (المطلسم). وأطال في ذلك، وأفاض القول في التضليل، وجاء بقول القائل:

ولم يجز إطلاق لفظ مُوهم نقصاً على النبي مثل الأسقم
كذا مطلسم وما يدريكَا لعلها كفر عنى الشريكَا

وهذا الانتقاد بناه صاحبه على أنه مأخوذ من السقم. وعلى ذلك يتنزل ما أطال به من النصوص والأدلة.

وأما على أنه مأخوذ من الاستقامة، كما فسره صاحب الجوهرة بنفسه، فلا اعتراض. لأن الشيخ، رضي الله عنه، فسَّره بقوله: يعني المستقيم، المعتدل في الاستقامة بلا اعوجاج.هـ

ومراعاة مقصود المتكلم متحتم، ولو بالقرائن والتلويح، فضلًا عن الإفصاح والتصريح، فقد حكم الفقهاء بمراعاة القصد في الأحباس بالقرائن، وألغوا في ذلك مدلول اللفظ، وقد قال في العمل:

وروعي المقصود في الأحباس لا اللفظُ .. الخ

وكنت كتبت في هذا، بَعدَ رُدود السيد الشنكيطي، وإبطال الأجوبة عن ذلك، والاستدلال بما أطال به هنالك، ما لفظه:

قلت؛ يمكن أن يخرج على ما كان يذهب إليه الأخفش، من النحاة، من جواز بناء "أفعل من كذا "، من كل فعل ثلاثي لحقته زوائد، قلّت أو كثرت، كافتعل واستفعل وانفعل، لأن أصلها ثلاثة أحرف، كما نقله عنه في شرح المفصل، فترى النقل عن الأخفش مطلقا. نعم يبقى التوقف في البناء من الحرف الزائد، ويمكن عندي أن يكون من قبيل النحت، وأحسن من هذا كله أن ينشد هنا قول الخليل:

لساني لسانٌ مُعْرِبٌ في بيانـــهِ   فيا ليته يومَ القيامَةِ يَسْلَـــمُ

وما ينفعُ الإعرابُ إن لم يكن تُقى   وما ضَرَّ ذا التَّقوى لسانٌ مُعْجِمُ

وأحسن من ذلك كله، أن يقال إن الشيخ، رضي الله عنه، اشتق الأسقم من قول العامة: (فلان امستَقَّام)، أي سالك السبيل الأقوم المستقيم، الذي لا عوج فيه ولا أمتاً. ولا مانع من ارتكاب لفظة عامية لبناء كلام عربي فصيح. وقد وقع ذلك كثيرا في كلام العلماء، وخصوصا أهل التصوف، كما يشار إليه في غير هذا الموضوع، وكأن تفسير العلامة أديبج لهذا يشير.

وأما ما قاله في "المطلسم"، وما خطأ به المجيب، من أنه بمعنى المستور قائلا: وهذا الكلام كله، لا معنى له. وإيضاح ذلك هو أن قوله: إنه متعسف بجعله المطلسم من الطلسمات، وهو بمعنى المستور، غير خافٍ على كل أحد، أن جعله ذلك لا تعسف فيه، بل المتعسف، المجيب الذي جعله بمعنى المستور، بدون دليل من اللغة العربية، إلاّ ما عزاه للسيد محمد الكنتي، إفتراء عليه، أنه قال: في المصباح: طسم الشيء وطلسمه، بزيادة اللام، للتأكيد، أخفاه وستره. والمصباح ليس فيه من مادة الطاء والسين إلا الطست، ولم يذكر القاموس طلسم، ولا شارحه "تاج العروس"، ولا الجوهري، ولا غير ذلك من كتب العربية، وحاشا السيد محمد من أن ينسب للمصباح ما ليس فيه، فالطلاسم لم توجد إلا في كلام أهل السحر الذي ذكره هو. فأي تعسف واقع ممن حمل لفظا على معناه الذي لم يوجد له سواه. فالمتعسف المجيب المعاند، لا العلامة أديبج. وإذا لم يوجد لها إلا المعنى المتعارف عند أهل الباطن، كان إطلاقها على النور المنسوب للنبي، صلى الله عليه وسلم، من أقبح القبائح، وأشنع المناكر، بل لو قدر تقديرا فاسدا أن لها معنى آخر غير ما هو متعارف عند أهل السحر، كان إطلاقها عليه أيضا من أقبح الموهمات. هـ [الجيش الكفيل، بهامش البغية 210].

وقد كنت كتبت بهامش النسخة، على هذا الكلام ما لفظه:

قلت؛ هذا قصور من السيد الشنقيطي. فقد ذكر هذه المادة صاحب "تاج العروس"، في مواضع من شرحه، ونسبها لـ: "لسان العرب"، وللجوهري، وقال:

"والطلسم كسبطر. وشدّد شيخنا اللام، وقال إنه أعجمي، وعندي أنه عربي، إسم للسر المكتوم. وقد كثر استعمال الصوفية له في كلامهم، فيقولون سرٌ مطلسم، وحجاب مطلسم، وذات مطلسم، والجمع طلاسم"هـ.[8-381]

وبهذا يتضح لك بطلان ما قاله هذا المؤلف، وأن استعمال الشيخ، رحمه الله، في محله، وأنه موافق لِلُغة العربية، وأنه تابعٌ في ذلك لغيره من الصوفية. والعلم المحيط إنما هو للهِ وحده.

فمعنى قوله: النور المطلسم، كقول البوصيري:

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرى للقربِ والبعدِ فيه غيرُ منفحِمِ

وقول الشيخ مولانا عبد السلام: " وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق". وقد جرى ذكر الطلسم، في كلام الشيخ محيي الدين، قدس سره، في فتوحاته، ولكنه فسره بمعنى آخر، فقال:

"إعلم، أيدك الله، أنه إنما سمي الطلسم بهذا الإسم لمقلوبه، يعني أنه مسلط على كل من وَكّلَ به، فكل مسلط طلسم، ما دام مسلطا".هـ[232/3]

ولكن هذا التفسير لا يليق هنا، وإن كان ورد في القرآن: (وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَّشَاءُ)، وإن كان في المعنى صحيحا، لأن معناه راجعٌ إلى الغلبة والقوة، والسلطنة والتمكن، وهو صلى الله عليه وسلم، مكّنه الله من أعدائه، وغلّبه عليهم، ونصره نصراً عزيزاً (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلِي).

نعم؛ أنكر شهاب الدين الخفاجي، عربيته وصحح أنه يوناني. قال: وكونه مقلوباً من مسلط، وهمٌ لا يُعتَدُّ به هـ.

ولكن المثبت مقدم على النافي. وقد سبق لك عن أهل اللغة أنهم أثبتوا عربيته، والله أعلم.

وبودي أنه لو مرّ السيد الشنقيطي، على ما عدّه من هفوات الشيخ، مرَّ الكرام، وأغضى على ما نقلناه من الاحتمال، الذي عده خارجاً عما يُرام، وأوّله تأويلاً لا يُخل بالمقام، ومشى

رويداً في النقد ولم يسارع إلى التضليل والتجريح في دائرة أهل الإسلام، لأن إخراج مطلق مسلم من الإسلام، فيه خطر عظيم، والغلط فيه موجب للوقوع فيما يوجب العذاب الأليم. ولهذا قال إمام الحرمين: إن إدخال كافر في الملة، أو إخراج مسلم منها، عظيم في الدين. وكان عليه أن يفزع فيما رآه مخالفا للقواعد الشرعية، أو موهما لما يعارض الدلائل الركنية؛ إلى التأويل. ويقتدي بقول سيدنا عمر، فيما رواه عنه الإمام أحمد، في المسند عنه، أنه قال: "لا تظُنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير مخرجا"هـ. وأنت أيها المنتقد، تجد في كلام هذا الشيخ، ألف مخرج، ولاسيما فيما فسَّره بنفسه.

بعض كلام الشيخ التجاني،
الذي يدلّ على علوّ مقامه، وتمسكه بالكتاب والسنة

ولقد وقفت على كلام هذا الرجل في بعض وصاياه؛ فيه إما تكذيب لما نسب إليه، وإما تفسير لمجمله، أو تقييد لمطلقه، أو تأويل لظاهره، منها:

"وبعد، فإني أوصيكم ونفسي، بما أوصاكم الله به وأمركم به، من حفظ الحدود، ومراعاة الأمر الإلهي على حسب جهدكم واستطاعتكم، فإن هذا زمان تهدمت فيه قواعد الأمر الإلهي جملة وتفصيلا، وانهمك الناس فيما يضرهم دنيا وأخرى، بحيث لا رجوعَ ولا يقظةَ لما يصرف القلوب إلى الله، والوقوفِ عند حدود الله أمرا ونهيا، ولا طاقة لأحد بتوفية أمر الله من كل وجه في هذا الوقت، إلا لمن لبس حلة المعرفة بالله تعالى، أو قاربها. لكن، حيث كان الأمر كما ذكر ولم يجد العبد مصرفاً عما أقامه الله فيه؛ فالأبقع خير من الأسود كله. فاتركوا مخالفة أمر الله ما استطعتم، وقوموا بأمر الله على حسب الطاقة، واجعلوا لأنفسكم عدة من مكفرات الذنوب في كل يوم".

وهي أمور كثيرة، ذكر في هذه الوصية منها:

الحزب السيفي، وصلاة الفاتح، والمداومة على الصلوات المفروضة في الجماعة، والمحافظة على ذكر الله، والصلاة على نبيه، صلى الله عليه وسلم، ثم قال في هذه الوصية: "وعليكم بالمحافظة على الصدقة في كل يوم وليلة، إن استطعتم، ولو فلس نحاس، أو لقمة

واحدة، بعد المحافظة على أداء المفروضات المالية. فإن عناية الله تعالى بالعامل بذلك، قريب من محافظة المفروضات في الجماعة)هـ.[الجيش الكفيل بهامش البغية 201]. وقال في وصية أخرى:

"وأوصيكم وإياي، بتقوى الله العظيم، وارتقاب المؤاخذة منه في الذنوب، فإن لكل ذنب مصيبتين لا يخلو العبد منهما. والمصيبتان؛ واحدة في الدنيا، وواحدة في الآخرة. فمصيبة الآخرة واقعة قطعاً، إلاّ أن تُقابل بالعفو منه سبحانه وتعالى. ومصيبة الدنيا واقعة بكل من اقترف ذنباً، إلاّ أن يدفعها وارد إلهي بصدقة لمسكين، أو صلة رحم بمال، أو تنفيس عن مديان بقضاء الدين عنه، أو بعفوه عنه، إن كان له، وإلاّ فهي واقعة. فالحذر الحذر من مخالفة أمر الله. وإن وقعت، والعبد غير معصوم، فالمبادرة بالتوبة والرجوع إلى الله. وإن لم يكن ذلك عاجلا، فليعلم العبد أنه ساقط من عين الله، متعرِّض لغضبه، إلاّ أن يمن الله عليه بعفوه. ويستديم العبد في قلبه أنه مستوجب لهذا من الله، فيستديم بذلك انكسار قلبه، وانحطاط رتبته في نفسه دون تعزز. فما دام العبد على هذا، فهو في سبيل خير. وإياكم، والعياذ بالله، من لباس حلة الأمن من مكر الله في مقارفة الذنوب، باعتقاد انه آمن من مؤاخذة الله له في ذلك الوقت، فإن وقف هذا الموقف بين يدي الحق تعالى، ودام عليه، فهو دليل على أن يموت كافراً، والعياذ بالله تعالى".

"وما سمعتم من الخاصية في الورد فهي واقعة لا محالة، وإياكم والتفريط في الورد، ولو مرة في الدهر، وشرط الورد المحافظة على الصلوات في الجماعات، والأمور الشرعية ".

"واتركوا المقاطعة مع جميع الخلق، وآكد ذلك بينكم وبين الإخوان. وزوروا في الله، وواصلوا في الله، وأطعموا في الله، ما استطعتم في غير تعسير ولا كدّ".

"وعليكم بالمحافظة في أمر الله، فيما وقع من البلايا والمحن، فإن الدنيا دار فناء، وبلاياها كأمواج البحر، فلا مطمع لأحد من بني آدم في الخروج عن هذا، مادام في الدنيا، والصبر بحسب الأحوال، كل على قدر طاقته ووسعه، واعملوا في أنفسكم سلوة ".

"إذا نزلت البلايا والمحن بأحدكم، فليعلم أن لهذا خُلقت الدنيا، ولهذا بنيت، وما نزلها الآدمي إلا لهذا الأمر، وكل الناس راكضون في هذا الميدان، فليعلم أنه كأحدهم، مساو لهم ".

"واعلموا أن الذنوب في هذا الزمان، لا قدرة لأحد على الانفصال عنها، فإنها تنصبُّ على الناس كالمطر الغزير. لكن أكثروا من مكفرات الذنوب، وآكد ذلك؛ صلاة الفاتح لما أغلق، فإنها لا تترك من الذنوب شاذة ولا فاذة، وكصلاة التسبيح، ومما هو في هذا المعنى؛ يلازمه الإنسان كل يوم ثلاث مرات. اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي".

"وكذلك وظيفة اليوم والليلة؛ لا إله إلا الله والله أكبر، لا إله إلا الله وحده، لا إله إلا الله لا شريك له، لا إله إلا الله له الملك وله الحمد، لا إله إلا الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

"وكذلك الدعاء السيفي، لمن يقدر على حفظه. وكذلك هذا الاستغفار:اللهم إني أستغفرك لما تبت إليك منه، ثم عدت فيه، وأستغفرك لما وعدتك به من نفسي، ثم أخلفتك فيه، وأستغفرك لما أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك، وأستغفرك للنعم التي أنعمت عليّ بها، فتقويت بها على معاصيك، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، الرحمان الرحيم، لكل ذنب أذنبته، ولكل معصية ارتكبتها، ولكل ذنب أتيت به أحاط علم الله به. وكذلك دعاء: يا من أظهر الجميل"، الخ [الجيش بهامش البغية193].

ومن وصاياه:

"والعاجز من عجز حتى عن التضرع والابتهال، ومن ضيع نفسه من الله، فلا جابر له. ولتكن لكم ببابه إلمامات على مرور الساعات، وكرور الأوقات. فإن من اعتاد ذلك، غشيه من نفحات رحمته تعالى ما يكون ماحقاً لمصائبه، ومسهلاً لأعباء ما ثقل عليه من مُلمَّاتِه، فإنه سبحانه غني كريم، يستحيي بكرمه من أن يسلم العبد للمصائب، وهو يتعود الوقوف ببابه".هـ[الجيش 200].

إلى غير ذلك من وصاياه، المشتملة على المواعظ الحسنة، والحض على إتباع الكتاب والسنة، والاعتصام بحبل الدين المتين، وانتهاج نهج التائبين العابدين.

مولد الشيخ التجاني، ونشأته
وشيوخه، ووفاته

ومولد هذا الشيخ، رحمه الله، بقرية عين ماضي، من قرى صحراء الجزائر، سنة خمسين ومائة وألف (1150) وبها نشأ نشأة طيبة، ونبت نباتاً حسناً كانت فيه مخايل الخير تتجلي، وسيمات الفضل والفلاح، على وجهه تلوح، إذ حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم اشتغل بعلوم الشرع؛ من فقه وتفسير وأصول وأدب، وغير ذلك، فبرز فيها وفاق الأقران، ودرَّس وأفتى على صغر سنه.

ثم ارتفعت همته إلى الدخول في الحضرة العلية، والاندماج في زمرة السادات الصوفية، أهل المقامات السنية، وسِنّه إذ ذاك إحدى وعشرون سنة. فاتصل في المغرب الأقصى، بقطبيه الشهيرين، الشريفين الجليلين؛ مولاي الطيب ابن سيدي محمد ابن سيدي عبد الله اليملاحي، دفين وزان. وسيدي أحمد الصقلي الفاسي، دفين فاس،وغيرهما.

وتوفي، رحمه الله، عام ثلاثين ومائتين وألف (1230)، فيكون عمره ثمانين سنة. وترجمة الشيخ التجاني، شهيرة، خصّها بعض أصحابه بالتأليف.

إتمام ترجمة شيخنا الرهوني

ولنرجع إلى ترجمة شيخنا الرهوني، فنقول: إنه بعد أن قفل من رحلته من فاس، تصدى للتدريس، كما سبق. وفي تلك الأثناء، كان يتعاطى الشهادة والإفتاء. ثم استُخدم عدلا بديوانة الجديدة، ثم استُكتِبَ بالنيابة السلطانية بطنجة، التي كانت إذ ذاك تقوم مقام وزارة الخارجية. وكان الفقيه الرهوني فيها بمثابة مستشار شرعي، وبقي بها إلى أن أعلنت حماية إسبانيا على ناحية الشمال، وتقرر إقامة خليفة عن جلالة السلطان،[بتطوان] يكون مفوضاً، فاستخلف مولاي المهدي بن إسماعيل، وعَين وزراء. فكان الفقيه الرهوني، ممن عُيِّنَ لوزارة العدلية، فأقام فيها مدَّة ثم أعفي، ثم بعد ذلك، عُيِّن مفتشاً للتعليم، ثم رئيساً للمجلس الأعلى للتعليم، ولم يزل فيه إلى أن لبى داعي مولاه، في رابع عشر ربيع الثاني من عام

ثلاثة وسبعين وثلاثمائة وألف (1373). تغمده الله برحمته، وأسكنه وإيانا فسيح جنته، بفضله ورحمته، آمين.

شيخنا ابن الأبار
وما قرأته عليه من الفنون

وقرأت على الفقيه العلامة، سيدي محمد ابن الأبار: "الألفية" مرتين، وكانت قراءة إيضاح وبيان، وتوسع في التعبير، على عادة هذا الفقيه، حتى تكاد المعاني تخرج للعيان. كما قرأت عليه شرح الشيخ الطيب ابن كيران، على عقائد نظم ابن عاشر. ولم يكن يألو جهده في تقرير قواعد المنطق المتعلقة بالمتن وسُلَّم الأخْضَري، ولا تسأل عما كان يبديه، رحمه الله، في ذلك، لأنه كان فنه المغتبط به، والذي كان يدري من أين تؤكل كتف تحقيقه، وأرجوزة الشيخ الطيب ابن كيران في الاستعارات، وهمزية الإمام البوصيري في المديح.

وفي عودتي من فاس، وجدته فتح قراءة مختصر خليل، بشرح العلامة الدردير، فصرت أحضر تلك الدروس، ولكن صرفتُه إلى إبدال الشيخ الدردير، بالزرقاني، وسيأتي تفصيل ذلك بعد. هذه هي الدروس الرسمية.

أما الدروس الخصوصية، والمذاكرات المتتالية، في موضوعات مختلفة متنوعة، فهي كثيرة لا يحصيها العد، ولا يضبطها القلم، إذ كانت تستوعب الأوقات، وتعمُّ عند الاتصال به كلَّ الساعات، ولاسيما بعد أن رجعتُ من وظيفة طنجة، ووظّفتُ بالإدارة الخليفية [بتطوان]، إذ كان عليَّ لزاماً أن أتصل به في منزله مدى الأيام، بعد العصر إلى ما بعد صلاة العشاء معه، وهذه الساعات كلها مفعمة بالمذاكرات العلمية، والمباحث المختلفة فيها، من فقه وحديث وتفسير وتاريخ، ومناقب وأحوال صوفية، وغير ذلك.

ولقد كان لي الفقيه ابن الأبار، شيخاً مرشداً، وأباً عطوفاً مشفقاً. فكان خلاصة ودّي، وأعز ما لديّ عندي، كما كان، رحمه الله، هو يضعني موضع ولده العزيز؛ يسعى في

مصالحي، ويود لي كل خير، ويُجلّني ويراني أهلاً لكل فضيلة. ومهْما ذُكرتُ في محفل وهو حاضر، إلاّ وأثنى عليّ الثناء الجميل، ووصفني بما أنا خلوٌ منه من العلم والمعرفة.

ملازمتي للفقيه المذكور
وحضوري دروس المختصر ومدحه بأبيات

وكنت قبل أن أعمل الرحلة لفاس، أحضر لدى مجالسه كسائر الطلبة، ليس لي بالفقيه اختصاص، ولكن كان عندي مزيد غبطة في حضور درسه، لما خصه الله به من حسن التعبير، وتناسق التقرير والتحرير.

ولما رجعت من فاس، وفكرتي كلها متوجهة إلى الاتساع في المعارف والعلوم، منصرفة ليلاً ونهاراً في الإطلاع على ما يهم من مختلف الفنون، مُتشَوِّفٌ إلى الأخذ من أهلها الذين يعلمون، فألفيت الفقيه ابن الأبار، قد فتح مع الطلبة مختصر الشيخ خليل، بمسجد الرزيني، من الربض الأسفل، وشاهدت منه اعتناءاً كبيراً بذلك الدرس، ولكن كان يقرأ معهم بشرح الإمام الدردير. فبذلت جهدي في تحويل الشيخ إلى قراءة الدرس بشرح الزرقاني، لأنه شأن ذوي الهمم العالية من الطلبة في ذلك العصر، ولاسيما بفاس، إذ ذلك الشرح لدقة تعبيره وغزارة مادته، كان محطَّ نظر نجباء الطلبة، ومختبَرَ أفهامهم، ومجلس امتحانِ ذكاءِ أفكارهم، فساعد الفقيه على ذلك، بعد تلكؤ كبير من الطلبة.

فصرت أحضر تلك الدروس، ولي بها من العناية ما يفوق الحدّ، بحيث لم أكن أدع من كلمات الزرقاني المعقدة، شاذّة ولا فاذّة، إلاّ وأجليت مُخَدَّرَاتِها، واستخرجت مخبآتها، حسب جهدي. وكان الفقيه المذكور يلاحظ ذلك، ويعطي جانباً عظيماً من الاعتناء بهذا الدرس، فكان ذلك من أشهى اللذات عند الطالب المستفيد.

ولما أخذ ذلك الدرس مني كل مأخذ، وطاب لي منه كل مستطاب ومستلذ، أنشأت أبياتاً في وصف الفقيه ودرسه، وما خصه الله به من حسن التعبير، وسلاسة التفسير، وهي:

ما زهرة الدنيا والأمَـاني　　ولذةُ الأمـنِ والأمـانِ
وأرَجُ الزهر في رياضٍ　　ورَنَّةُ النَّقْر بالـمثـانـي

بأحلى من مَحفلٍ حَفيلٍ ... حُفّت به أنجمُ المعاني

تُدارُ فيه كؤوسُ فِقهٍ ... يا قَدا من بها سقاني

لله تلك الدروسُ تُلقى ... وهي لدى النّقد كالجُمَان

يُمليها حَبرٌ لدينا فردٌ ... ليس له في البيانِ ثانِ

من يمَّمتْ نحوَه المعالي ... فقادَها سَلسَةَ العِنانِ

هو ابن الأبَّار المُحلّى ... برفعةٍ واعتلاءِ شانِ

مُحيي من العلم كلَّ ميْتٍ ... ومُظهرُ الأخفى للعِيَّانِ

(مالكُ) فقهٍ و(فخرُ) أصلٍ ... وكلُّ فنٍّ لديه دان

ولو رآه (أرسطو) يوماً ... في مجلس البحثِ والبيان

يُبَيِّنُ الشكْلَ والقضَايا ... لقاهُ بالعجز والتّواني

يَجري طليقاً في كل علمٍ ... دون مبارٍ ولا مُدان

ما ضنَّ دهرٌ أتى بِفردٍ ... مَا مِثْلُهُ كانَ في أوان

فيَا رعَاكَ الإلهُ دهراً ... أريْتنا سابقَ الرِّهان

ولتهنأ يا سيدي بسبْقٍ ... ودُم أميناً منَ الزَّمان

ولم تزلْ ترتقِي عَلاءً ... رَغماً على حَاسدٍ وشَان

تقْطِفُ زَهرَ السُّرور دَوْماً ... مُؤمَّناً من أذَى المعانِي

ودُم مُفيداً لنا عُلوماً ... من حُسنِها ترتَدِي الغوانِي

تحكم تِبيَانها فتشْفِي ... من عِلَلِ الجَهلِ باللسَان

بجاه من لِلوَرى شفيعٌ ... ذو التّاج والحوْض والقُرآن

عليه من ربِّنا صلاةٌ ... مَا تُليَتْ آيةُ المَثاني

وصدَّرتها بهذا النثر، وهو:

حيا الله مربع الأستاذ وبياه، وأبهج بنيل الأماني محياه، وسلام عليك ما تضاعفت لك الفضائل، ورحمة الله ما تساقط على لجين الماء ذهب الأصائل.

لمّا أخذ بقلب عبيدكم، ما أمليتموه من تلك الدروس، التي هي في الحقيقة للأجساد نفوس، وشُغِفَ بذلك شغف الوليد بحبابته، والصَّدْيَانِ بصبابته؛ أنشأ في ذلك هذه الأبيات، على حسب قدرته، مقراً بأنه لم يأت من بحر فضائلكم بأقل نقطة.

وأرجو أن يُزَيِّنَ عَاطِلَ جيدها بحلي القبول، ويمنح عبده بالرضى بها منتهى السؤل.

فلمَّا قرأ الشيخ هذه الأبيات، وما صدرتُها به؛ وقعت موقعاً حسناً في قلبه، وأعطاها من الإطراء والإعجاب فوق ما تستحقه. فكانت تلك الأبيات هي الصلة المؤكدة بموصول المحبة، ورابطة لأسباب المودة الخالصة التي لم تزل في اتصال، إلى أن انتقل الفقيه المذكور، من هذه الدار، إلى دار القرار.

وهذا الاتصال لم يكن مجرد اتصال ألفة ومعرفة، بل كان اتصال علم ومعرفة، إذ صار لي شيخاً وأباً، وصديقاً حميماً، وإلفاً مألوفاً، ومرشداً نصوحاً، وأنا له ولد بار، حسبما سبق.

سرد كتاب الطبقات للسبكي

وشرح كاتبه لقصيدة حميد في وصف الحمامة

وفي تلك الأثناء، كان فتح معي سرد طبقات التاج السبكي، التي هي مجمع بحور العلوم الوافرة، وجماع المعارف المتنوعة، إذ كان شيخنا المذكور، كثير الاغتباط بها، دأوباً على مطالعتها، لهجاً بذكر بعض تراجمها، مُعجَباً بذلك غاية الإعجاب.

ولقد أصاب شيخنا في ذلك، إذ هو الكتاب الذي جمع نكت الفنون جمعا، وأقر بفنونه عينا وشنف سمعا، وفيه قال مؤلفه:

ومن نظر كتابي هذا، علم كيف كان البدر يغيب وأنا ساهد، وتيقن أنه وظيفة عمر رجل ناقد. فلقد اشتمل على بحر زاخر من غرائب المسائل، وقدر وافر من عجائب الأقوال والأوجه والدلائل، وغيثٍ هامع من العلم تتقاصر عنه الأنواء، وغدير جامع تلقى عنده الدلاء، وينشده الأذكياء:

يا أيها المانح دلوي دونكا إني وجدت الناس يحمدونكا

وجامع عظيم من المباحث القواطع، والقواعد التي كل شامخ الأنف لديها خاضع،والفوائد التي يَنشُد تحقيقاتها المحققون إذا أشارت إليها بالأكف الاصابع.

أخذنا بآفاق السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالعُ

إيه وطرف جزيل من الطرف، وباب واسع من الأدب، الذي مَن وقف عليه من الأدباء وقف، وهاجه شوق وتوق وأسف، وأنشد:

وما هاج هذا الشوقَ إلا حمامـــة   دعت ساقَ حُرٍّ ترحَـة وترنـمـــــا
مطوقة خطبـاءُ تسجَع كُلَّـــــمَا   دنا الصيفُ وانجابَ الربيعُ فأنجمـا
من الوُرْق حمَّاء العلاطِين بَاكَرتْ   عسيبَ أشاء مطلعَ الشمسِ أسحَما
إذا زَعْزعَتهُ الريـحُ أو لعبتْ بـــه   تغنـت عليـه مـائلًا ومقوَّمــــــا
تُباري حمامَ الجَلْهَتَيْنِ وترْعَـوي   إلى ابن مُلِثٍّ بين عُودَينِ أعجَــما
محلاةُ طوقٍ لم يكن من تميـمةٍ   ولا ضربِ صوَّاغ بكفيهِ درهـمـــا
تروح عليه والـهاً ثم تغتـــدي   مُوَلَّهة تبغـي له الدَّهـرَ مُطعمـــا
تُؤمِّلُ فيه مؤنســاً لانفِرادِهـــا   وتبكي عليــهِ إنْ رقَّـا وترنَّمـــا
كأنَّ على أشداقِه نَـوْر حَنْـــوةٍ   إذا هو مدَّ الجِـيدَ مـنهُ ليُطعَمـــا
فلما اكتسَى الوَبل السخَام ولم تجِد   لها معهُ في ساحةِ العيشِ مرتَـمـــا
تنحَّت قريباً فوق غصنٍ تداعبتْه   الريحُ صرفاً أي وجـهٍ تيمَّـــــما
فأهْوَى لها صقرٌ منيفٌ فلم يـدع   لها ولداً إلّا رِمَامـاً وأعظـــــما
فأوفتْ على غصنٍ ضُحيا فلم تدع   لنـائحةٍ في نوحهـا متلوَّمـــــــا
عجِبتُ لهَا أنّى يكـونُ غنـاؤهـــا   فصيحاً ولم تفغر بمنطِقِهـا فمَـــا
فلم أر مثلي شـاقهُ صوتُ مثلهـا   ولا عربيًّا شاقهُ صوتُ أعجـمـــا

هـ [110/1]. ولما وصلنا إلى سرد هذه الأبيات، وفيها ما لا يخفى من غموض بعض الألفاظ، وعدم فهم المراد منها إلا بعد المراجعة؛ كتبت عليها ما تيسر لي في ذلك الوقت، مصدراً تلك الكتابة بما لفظه:

الحمد لله؛ لما منَّ الله على عبده، بوافر عطائه ورفده، وما كلُّ نعمة إلا من عنده، بسرد طبقات الإمام الهمام، الذي باهت بوجوده الأيام، وافتخرت بيمينه الأقلام، واتّسق به شمل العلوم، وانقاد له المنثور والمنظوم، وأطاعه المنطوق والمفهوم، الحبر، السيد تاج الدين السبكي، مع الإمامين الجليلين، الفرقدين النيرين، قمرا هذا الثغر التطواني، وشمسا أفقه،

ومجددا علمه الذاهب ومعيدا رونقه؛ شيخنا الفقيه النبيل، السيد محمد ابن الأبار، وحبيبنا وقرة أعيننا، الشريف الجليل، سيدي محمد الموذن، أبقاهما الله لنا سراجين نستضيء بهما في حِنْدِسِ الجهالة، ونجمين ثاقبين نهتدي بهما في ظلمات الضلالة. وإذا نحن في سرد الجزء الأول، ووصلنا إلى ما أنشده صاحب الطبقات، في الخطبة أثناء إشارته إلى أنّ كتابه جامع لفنون العلوم المختلفة، وأصناف المعارف المنتظمة في تلك الأطواق المؤتلفة؛ من قصيدة لحميد بن ثور الهلالي، تتضمن وصف ذات الطوق، وما يثير تسجيعها من الشوق؛ أردت أن أكتب ما تيسر على تلك الأبيات، يكون كالحل لألفاظها، وكالحلي في أفهام حفاظها. انتهى.

ثم إني أثبتُ تلك الكتابة على ما وجدتها عندي في ذلك الوقت، فإن ظهر لي الآن إتمام نقص، أو استدراك فائت، وإصلاح غلط، صدرته بقولي: قلت الخ.

فأقول: أما هاته الأبيات التي أنشدها هذا الهمام، فإنها لحميد بن ثور الهلالي. وحميد شاعر إسلامي، ذكره ابن قتيبة في طبقاته، فقال:

حميد بن ثور الهلالي، هو من عامر بن صعصعة، إسلامي، من المجيدين هـ . وله صحبة، وقد ذكره في "الإصابة"، قال:

وروى ابن شاهين، والخطابي، في الغريب، والعقيلي، والأزدي، في الضعفاء، والطبراني، كلهم من طريق يعلى بن الأشدق، أن حميد بن ثور، حدثه أنه حين أسلم أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال :

أصبح قلبي من سُلَيْمَى مقصدا إن خطأ منها، وإن تعمدا

في أبيات يقول فيها:

حتى أتيتُ المصطفى محمدا يتلو من الله كتابا مرشدا

قال ابن حجر:

"ويعلى، ضعيف متروك، وذكره محمد بن سلام الجمحي، في الطبقة الرابعة من الشعراء الإسلاميين.وقال المرزباني: كان أحد الشعراء الفصحاء، وكان كل من هاجاه غلبه، وعاش إلى خلافة عثمان هـ.[الإصابة1/ 356]

قلت: وهذه الأبيات من قصيدة لحميد طويلة، هي أجود شعره، ومن أجود ما فيها، هذه الأبيات، ومن أحسن ما فيها قوله:

أرى بصري قد رابني بعد صحةٍ   وحسبك داءً أن تَصِحَّ وتسلما

وهو في هذا المعنى، أحد الشعراء الثلاثة، الذين تواردوا في الجاهلية، عليها.

الثاني منهم: عمرو بن قمينة، إذ قال:

كانت قناتي لا تلينُ لغامزٍ   فألانَها الإصباحُ والإمسَاءُ
ودعوتُ ربي في السلامةِ جاهداً   ليُصحَّني، فإذا السلامةُ داءُ

والثالث: النمر بن تولب، إذ يقول:

يودُّ الفتى طولَ السلامة والبقا   فكيفَ به طولُ السلامة يفعلُ
يعود الفتى من بعد حسنٍ وصحةٍ   ينوءُ إذا رامَ القيام، ويحملُ

وكل هؤلاء الشعراء، رموا عن قوس واحدة على قوله، صلى الله عليه وسلم، "كفى بالسلامة داء". فصلى الله وسلم على من أوتي جوامع الكلم، واختُصرَ له الكلام اختصارا.

وخلاصة أبيات حميد، أنه وصف هذه الحمامة، التي شاقته وشوقته إلى محبوبته، التي كانت تصيح وتدعو بقولها (ساق حر). وهي في ذلك؛ تارةً باكية مُبكية، وتارة مُغنية مُسلية، بأنها مطوقة، أي ذات طوق، وهي تأتي في تصويتها المتزن بشبه الاسجاع، وذلك عند ذهاب زمن البرد، وإقبال وقت الربيع. وهذه هي عادة الطيور، ولاسيما هذا النوع الذي وصفه الشاعر بالحمام البري واليمام، فإنه عادة يهيج في هذا الوقت. والمألوف عندنا، أن تغريد الحمام، يكثر في شهر مايو بكرة وعشيا.

ثم وصفها بأنها من الورق، وأنها حمَّاء، أي سوداء صفحة العنق، وأنها تباكر، أي تأتي بكرة إلى جريدة الأشاء، أي صغار النخل، عند طلوع الشمس، وأنها لا تنفك عن تسجيعاتها في ذلك الوقت، لا تُبالي هبوب الرياح، فهي تغني على ذلك الغصن ساكناً ومائلاً، وشأنها أنها تباري الحمام الذي يكون على ضفتي الوادي، بمعنى أنه يُصَوِّتُ بتسجيعه، وهي تجيبه كذلك، فهي تباريه وتساجله، وهو يساجلها، ثم إنها بعد ذلك ترعوي، وترجع إلى فرخها المقيم في عشه بين عودين.

ثم رجع إلى وصف هذا الطوق الذي أثبته لها، بأنه ليس كالطوق المعهود للإنسان، من أنه يكون عادة من خَرَزَات منظَّمة في سير، أو من فضة أو ذهب يصوغها الصائغ، بل ذلك الطوق زينة في عنقها، خلقها الله بها، وذلك بدعوة نوح، عليه السلام، كما اتفق عليه العرب والشعراء، كما يأتي.

ثم وصف حالها مع ولدها، وحنانها عليه، ورأفتها به، وسعيها المتواصل في تفقده بالطعام والشراب، فقال:(تروح) على ولدها وهو يزقو متشوفا إليها، متطلعا إلى ما تأتي به من القوت، وتغدو إليه كذلك، وهو شغلها الشاغل، وهمها الوحيد على الدوام، لأنها تؤمل فيه إذا كبر، أن يكون مؤنسا لها في وحدتها.

ثم شبَّه حال هذا الفرخ إذ يستقبل أمه بما تزقه به، ويمد عنقه ويفتح فاه، ليتلقى الطعام منها؛ بنورالحنوة، وهو نور أصفر. ومعلوم أن الفرخ في هذا الحين، تكون جوانب فمه مكتسبة للون الصفرة.

فلما كبر هذا الفرخ، واكتسى بالريش الأسود، وملأ العش، ولم تجد في العشِّ محلاً لرقادها، تنحَّت عن العش قريبا منه، ونزلت على غصن تلاعبت به الرياح، وهي مع ذلك، صابرة تراقب ولدها الذي ملأ عشَّها، وبينما هي كذلك من الوله بولدها، وأملها منه، وغبطتها به؛ فاجأها صقرٌ، وأهوى إلى ولدها وافترسه، ولم يدع لها في العُشِّ إلا العظام.

فلم يكن في وسعها إلا نزولها على غصن شجرة، وإفاضتها في النوح والبكاء، على هذا الولد الذي كان أملها فيه. وأكثرت من نوحها وبكائها، بحيث لم تدع لنائحة في ذلك ملاما.

ثم تعجَّب من هذه الأصوات، التي لم تشتمل على حرف من الحروف، كيف هاجت هذا الشوق بترنمها، وأطربت بتسجيعاتها ما لم تطربه المغنية بأوتارها، مع أنها لم تفتح بمنطقها فما، كما يفتحه المغني المطرب، أو يحرك به لسانه المتكلمُ المعرب.

قلت؛ وعادة شعراء العرب، أنهم يتجولون في البوادي ونخيل الحوائط، ويراقبون أحوال الوحش من الطير وغيرها، ويدبجون بذلك أشعارهم. قال الشريشي في شرح "المقامات": وأعراب وادي القرى، إذا ظفروا بشراب الطائف، أتوا حوائط النخل عند استعلاء الظهيرة، إذا صارت الوراشين والفواخت الى تلك الظلال، فيشربون ويأنسون بتغريدهن، ويقيمون ترجيع أصواتهن، مقام المزامير والأوتار هـ[ج18/1] . قال الشاعر:

سيُغنيك عن مزمار آل مُحرِّق ومربَعِهم تغريدُ تلك الحمائم
بأيكَةِ نُظَّار تجاوبنَ بالضُّحَى على باسقاتٍ مائلاتٍ نواعم

قال حميد:

1-(وما هاجَ هذا الشوقُ إلا حمامةٌ دعَت سَاقَ حُرٍّ ترحةً وترنمَا)

هذا الشعر من الطويل فوزنه:

فعول مفاعيلن فعول مفاعيل فعول مفاعيل فعول مفاعيلن

(مـا): نافية، (هاج): أثار وحرك. (هذا الشوق): بالنصب، إما نعت أو بدل، أو عطف بيان من اسم الإشارة، كما هو معروف. والشوق نزوع النفس وحركة الهوى. (إلا): إبطال لنفي سابق. (حمامة): فاعل هاج، والحمامة واحد الحمام، ويقال للذكر والأنثى حمامة، كما يقال بطة للذكر والأنثى، وهي كل مطوقة عند العرب، كالفواخت والورشان. (دعت): أي نادت هذه الحمامة بقولها (ساق حر) وهذا حكاية لصوتها. ولذا قال ابن سيدة: لا يعرب، ولو أعرب لصرف، فيقال ساق حر، إن كان مضافا، وساق حر، إن كان مركبا، فتصرفه لأنه نكرة. فترك إعرابه دليل على أنه حكى الصوت بعينه، وهو صياحه، وقد يضاف أوله إلى آخره، وذلك كقولهم جاز باز، لأنه في اللفظ أشبه بباب دار هـ[حياة الحيوان للدميري12/2].

فالحاصل أن مفاد ابن سيدة؛ تقول ساق حر، بالوقف، أي بسكون القاف والراء.

قلت؛ ساق حر، ذكر القماري، سمي باسم صوته، لأن حكاية صوته ساق حر. وقيل الساق؛ الحمام، والحر؛ فرخها. وقد استشهد للقول الأول ببيت حميد؛ وما هاج هذا .. الخ. فمفاد القاموس أن ساق حر، إسم لذكر القماري، سمي بذلك حكاية لصوتها، لأنها تقول في تغريدها؛ ساق حر. وقيل: إن معنى ساق حر، اسمان؛ أولهما معناه الحمام، والثاني فرخها.

وفي كلام الجاحظ، ما يفيد أن ساق حر، إنما هو حكاية صوت وحشي الطير. وساق القول بأنه اسم لذكر القماري، بسياق الضعف، إذ جعله رغما من صاحبه. ولفظه في "كتاب الحيوان"، في تفسير قول جهم بن ضابئ:

هتوف تبكي ساق حر، إلخ. وزعم الأصمعي، أن قوله هتوف تبكي ساق حر الخ، إنما هو

حكاية صوت وحشي الطير من هذه النواحات، وبعضهم زعم أن ساق حر؛ هو الذكر هـ.[حياة الحيوان 75/3].

وفي "حياة الحيوان" للدميري: ساق حر، هو ذكر القماري، لا يختلفون فيه. واستشهد بقول حميد: وما هاج هذا الخ. وفيه أن الحمامة في شعر حميد، المراد بها القُمريَّة.

قلت: وعليه، فمعنى كلام حميد؛ وما حرك الشوق مني إلا قمرية دعت ولدها ساق حر، حالة كونها نائحة ومتغنية بنوحها. (ترحة) من الترح. قال عبد الله بن محمد بن أسد البطليوسي:

حلفتُ بثغر قد حمى ريقهُ العذبا   وسلَّ عليه من لواحِظِهِ عَضْبا

وفرحةٍ لقيا أذْ هَبت تَرحَةَ النَّوَى   وعُتبى حبيبٍ هاجر أعقبت عتبا

(ترحة)، بفتح التاء مرة من الترح، وهو الهم، وفي بعض النسخ ترهة، وفسره الدميري بالشوق. (وترنما) أي تغنيا بصوتها، وترحة وترنما، منصوبان على الحال من الضمير، في دعت. والمعنى ما حرك شوقي الساكن، وجواي الكامن، إلى محبوبي الذي ملكني بجماله، وأحرقني بنار صدوده ودلاله؛ إلاّ حمامة مطوقة، تنادي ساق حر، في حال كونها ذات هم وغناء، تنادي ولدها ساق حر.

فحاصله أنها تُصَوِّتُ بصوتٍ باك، متغنٍّ ببكائه، على هذا الولد، كما قال عدي بن[ ] :

ومما شجاني أنني كنتُ قائمـــاً   أعلّلُ من فرط الجوى بالتَّبَسُّمِ

إلى أن بكت ورقاءُ في رونق الضُّحى   تُردِّدُ مبْكاها بحسنِ التَّرنُّمِ

قال في العقد :

والحمامة تبكي وتغني وتنوح، وتغرد وتسجع، وتقرقر وتترنم، وإنما لها أصوات مسجع لا تفهم، فيجعلها الحزين بكاء، ويجعلها الطرب غناء. وللجاري:

سجَى قلبُ الخليِّ فقيلَ غنَّى   وبرَّح بالشَّجَى فقيل ناحَا

فوصف الحمام بالبكاء أو الغناء، إنما هو راجع للسامع، قال ابن عبد ربه:

. لقد سجعَت في جنح ليلٍ حمامةٌ   فأيُّ أسى هاجَت على الهائم الصبِّ

لك الويلُ كم هيَّجتِ شَجْواً بلا جوَى   وشكوى بلا شكوَى، وكربًا بلاَ كربِ

وأسكَبتِ دَمعاً من جفونٍ مُسهَّدٍ   ومَا رقرقت منكِ المَدامِعَ بالسَّكْبِ[هـ].

2-(مُطوقـةٌ خطباءُ تـسجعُ كُلَّمَـا   دنَا الصَّيفُ وانجابَ الربيعُ فأنْجَمـا)

(مطوقة): لها طوق، والطوق حلي للعنق يحيط به، شبه به ما يكون في الحمام. والعرب تقول إن نوحا، عليه السلام، أرسل الحمام والغراب من السفينة لما استقرت على الجودي، ليأتياه بخبر الماء، فلم يرجع الغراب، فدعا عليه، فعقلت رجلاه، ونفر منه الناس. ورجعت الحمامة، فدعا لها، فتزينت بالطوق عن سائر الطير. ولهذا قال جهم بن خلف:

وقد شاقني نوْحُ قُمْـريَّةٍ   طروبِ العَشِيِّ هَتُوفِ الضُّحَى

مُطوَّقَةٍ كُسِيَّت زينَـــةً   بدعْوَةِ نُوح لهَا إذّ دعـــــا

(خطباء): بالطاء المهملة والمد، أي خضراء، يقال حمامة خطباء القميص، من الخطبة، وهي لون الخضرة، وقيل لون يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة في صفرة، وقيل غبرة رهقها خضرة.

قلت: وجزم صاحب "الأغاني" بأنه اللون الرمادي، إذ قال في قول الشاعر:

صفراء مطروقةٌ في ريشها خطَبٌ   صفرٌ قوادمها، سودٌ خوافيها

الخطب؛ لون الرمادي يقال للمشبه به أخطب. هـ

قلت: واللون الرمادي، هو الذي ينطبق على حمام البر، الذي تقتضي القرائن أنه موصوف حميد. (تسجع) من سجع الثلاثي، ويقال سجع بالتشديد رباعيا، إلا أنك إذا جعلته يسجع هنا من الرباعي، اضطررت إلى أن تقصر خطبا، وقصر الممدود وإن كان جائزا للضرورة، إلا أنه لا مُحْوِجَ إليه. ومعنى تسجع، تردد صوتها على الأسماع، وتترنم بما يضاهي القوافي والأسجاع. (كلما دنا): أي قرب. (الصيف): القيظ نفسه، أو هو بعد الربيع الأول. وقيل القيظ وهو أحد فصول السنة. نقله الجوهري. وقال الليث:

الصيف ربع من أرباع السنة، وعند العامة نصف السنة. وقال الأزهري: الصيف عند العرب الفصل الذي تسميه عوام الناس بالعراق وخراسان، الربيع.وهي ثلاثة أشهر، والفصل الذي يليه عند العرب القيظ، وفيه يكون حمّارة القيظ. هـ[تاج العروس 170/6].

وما قاله الأزهري هنا، لائق في كلام حميد، رضي الله عنه، وذلك أن تغريد الأطيار على مُخْضَرِّ الأشجار، ومُطَّرِدِ الأنهار، لا يكون إلا في إبان الربيع.

(وانجاب): بالنون والجيم، أي انكشف. (الربيع): فاعل انجاب، والربيع جزء من أجزاء السنة، وهو عند العرب ربيعان؛ ربيع الشهور، وربيع الأزمنة. فربيع الشهور؛ شهران بعد صفر، سُمِّيَا بذلك لأنهما حدا في هذا الزمن، فلزمهما في غيره، ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول، وشهر ربيع الآخر.

وقال الأزهري: العرب تذكر الشهور كلها مجردة، إلا شهري ربيع، وشهر رمضان (وأما ربيع الأزمنة فربيعان؛ الربيع الأول) وهو الفصل (الذي يأتي فيه النَّور والكَمْأة) وهو ربيع الكلإ (والربيع الثاني) وهو الفصل (الذي تدرك فيه الثمار أو هو) أي ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف؛ (الربيع الأول) ويسمي الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنَّور؛ الربيع الثاني. وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع. وقال أبو حنيفة: يسمى قسما الشتاء عند العرب، ربيعين، الأول منهما ربيع الماء والأمطار، والثاني ربيع النبات، لأن فيه ينتهي النبات منتهاه. قال: والشتاء كله ربيع عند العرب، لأجل الندى.هـ[تاج العروس 340/5].

وأحسن من هذا كله، ما نقله شارح القاموس، عن الأزهري، عن أبي يحيى بن كناسة، في صفة أزمنة السنة وفصولها، وكان علّامة بها؛ أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول، وهو عند العامة الخريف، ثم الشتاء، ثم الصيف، وهو الربيع الآخر، ثم القيظ. وهذا كله قول العرب في البادية. قال: والربيع الذي هو الخريف عند الفرس، يدخل لثلاثة أيام من أيلول. قال: ويدخل الشتاء لثلاثة أيام من كانون الأول. ويدخل الصيف، الذي هو الربيع عند الفرس، لخمسة أيام تخلو من آذار. ويدخل القيظ، الذي هو الصيف عند الفرس، لأربعة أيام تخلو من حزيران. قال أبو يحيى: وربيع أهل العراق، موافق لربيع الفرس، وهو الذي يكون بعد الشتاء، وهو زمان الورد، وهو أعدل الأزمنة، قال: وأهل العراق يمطرون في الشتاء كله، ويُخصِبُون في الربيع الذي يتلو الشتاء. وأما أهل اليمن، فإنهم يمطرون في القيظ، ويخصبون في الخريف، الذي تسميه العرب الربيع الأول. قال الأزهري: وإنما سمى فصل الخريف خريفا، لأن الثمار تخترف فيه، وتسميه العرب ربيعا، لوقوع أول المطر فيه هـ [تاج العروس341/5].

قلت؛ وهذا كله على ما كان عند العرب، وهم في ذلك مختلفون. قال ابن قتيبة في أدب الكاتب:

الربيع: يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتي فيه الورد والكَمْأة والنَّور، ولا يعرفون الربيع غيره. والعرب تختلف في ذلك؛ فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار، وهو الخريف، وبعده فصل الشتاء، ثم فصل الصيف، وهو الوقت الذي تسميه العامة الربيع، ثم فصل القيظ، وهو الذي تسميه العامة الصيف. ومنهم من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار، وهو الخريف؛ الربيع الأول، ويسمي الفصل الذي يلي الشتاء، وتأتي فيه الكمأة والنور؛ الربيع الثاني. وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع.

قال في "صبح الأعشى"، بعد نقله ما لابن قتيبة:

"وفي بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزمنة: الأول: الوسمي؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: العواء، والسماك، والعفر، والزبانان، وثلثا الإكليل. الثاني: الشتاء؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: ثلث الإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وثلث الذابح. الثالث: الربيع؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: ثلثا الذابح، وبلع، والسعود، والأخبية، والفرغ المقدم. الرابع: الصيف؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: الفرغ المؤخر، وبطن الحوت، والشرطين، والبطين، وثلثا الثريا. الخامس: الحميم؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: ثلث الثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، وثلث النثرة. السادس: الخريف؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل، وثلثا منزلة، وهي: ثلثا النثرة، والطرف، والجبهة، والخرتان، والصرفة". قال:

"والأوائل من علماء الطب يقسمون السنة إلى الفصول الأربعة، إلا أنهم يجعلون الشتاء والصيف، أطول زمانا وأزيد مدة، من الربيع والخريف، فيجعلون الشتاء أربعة أشهر، والصيف أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطين بين الحر والبرد، وليس في مدتهما طول، ولا في زمانهما اتساع" هـ[530/1].

هذا، والمقرر شرقاً وغرباً الآن، هو تقسيم السنة إلى أربعة فصول؛ الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وان كل فصل مدته ثلاثة أشهر. وقد أشار في "المقنع" إلى مبادئ الفصول بقوله:

فأولُ الربيـع من فبرَائـــــــر   ليلة " يـه" بالحساب السائـر
مُقدَّمُ الفرغين قل منزلتـــــه   ويوم" يـز " للمصيـفِ نثبتـــه
من مايه والهقعة اجعل منزله   ثم الخريف" يـز " من أغشتَ له
منزلة الصرفة والشتاء" يَوْ "   نونبروشولـــة له حَـــــــكوْا

هذا على حسب الحساب القديم في الشهور، وهو الحساب الفلاحي في عرفنا.

(فأنجما): أي أقلع، والضمير للربيع، يقال أنجم الربيع أقلع، والمعنى أن هذه الحمامة التي هاجت شجني، وأثارت قلبي وحزني، من نعتها أنها مزينة العنق بالطوق، لابسة لقميص أخضر، يستلذه الذوق، وأنها كلما دنا الصيف وذهب الربيع، صارت تترنم في أدواحها بالتسجيع، وتنشد ما يعجز عنه معبد و[ ].

3-(مِنَ الوُرق حمَّاء العِلاطِين بَاكَرتْ   عَسِيبَ أشاءٍ مطلع الشَّمس أسْحما)

(من الورق) بضم الواو جمع ورقاء، وهي الحمامة التي يضرب لونها إلى خضرة، والوُرقة، سواد في غبرة، ومنه قيل للرماد أورق، وللذنبة ورقاء. (حماء) أي سوداء. (العلاطين) تثنية علاط، ككتاب؛ صفحة العنق. (باكرت) أي أتت بكوراً أي وقت البكور.

وهذا الوقت وردت أحاديث في فضله، فعن صخر بن وداعة، الصحابي، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "اللَّهُمَّ باركْ لِأمَّتي في بكورها ". وكان إذا بعث سرية أو جيشاً، بعثهم أول النهار. وكان صخر تاجراً، فكان يبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله. رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي؛ حديث حسن. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:. "باكروا الغُدُوَّ في طلب الرزق، فإن الغدو بركة ونجاح ". رواه البزار والطبراني في الأوسط.

(عسيب): مفعول باكرت، والعسيب، جريدة من النخل رقيقة يكشط خوصها. (أشاء): بفتح الهمزة، كسحاب، كما صدَّر به القاضي عياض، في المشارق، وأبو علي، في الممدود، والجوهري والصاغاني، وغيرهم. وقال ابن التلمساني؛ بالكسر، وتبعه الخفاجي. قال شارح القاموس: وهو مخالف للرواية، وهي صغار النخل، كما في القاموس، أو النخل عامة، كما في المحكم لابن سيدة. وإذا أردت الواحدة، قلتَ: أشاء. (مطلع الشمس): أي زمان طلوع الشمس، فمطلع منصوب على الظرفية، ويظهر أنه نعت لعسيب.

4-(إذا زعزعتهُ الريحُ أو لَعِبت به تغنَّت عليه مَانلاً ومُقوما)

(إذا زعزعته): أي حركته تحريكاً شديداً. (أو لعبت به): أي عبثت به الريح، والمراد بالعبث واللعب، أنها حركته بلين ولطف. ولابن خفاجة الأندلسي:

والريح تعبثُ بالغصون وقد جرَى ذهب الأصيلِ على لُجَيْن الماءِ

(تغنت عليه): أي طرَّبت على الغصن، وسجعت بصوتها، حالة كون ذلك العسيب (مانلا) من مرور الريح عليه لتمايلها معه، وتغنت عليه حالة كونه (مقوماً) أي غير مائل. ومقوماً بصيغة المفعول.

5-(تباري حمام الجلهتين وترعوي إلى ابن مُلِثٍّ بين عودين أعجما)

(تباري): أي تسابق هذه الحمامة،(حمام الجلهتين): تثنية جلهة، بفتح الجيم وسكون اللام، ناحية الوادي وضفته، وهما جلهتان، وقيل: هو ما استقبلك من الوادي. (وترعوي): أي ترجع (إلى ابن مُلِثٍّ) أي مقيم، فهو اسم فاعل من ألثَّ بالمكان، إذا أقام به، (بين عودين): تثنية عود، بالضم، وهو الخشب. وقال الليث: هو كل خشبة دَقَّت. وقيل: العود، خشبة كل شجر دَقَّ أو غلظ. (أعجما): نعت لابن، بعد نعته الأول، وهو مجرور بالفتحة، لكونه ممنوعاً من الصرف، وبين عودين ظرف. والمعنى تسابق هذه الحمامة حمام ضفتي الوادي، وترجع إلى ابن ذي لكنة في لسانه، مقيم بين عودين.

6-(محلاةُ طوقٍ لم يكنْ من تميمةٍ ولا ضرب صوَّاغ بكفَّيهِ درهما)

(محلاة): أي لبست حلياً، والحَلْي ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، قال:

كأنها من حسن وشان والحلي حلي التبر والحجارة

(طوق): الطوق حلي يجعل في العنق، وكل ما استدار بشيء، فهو طوق. (لم يكن): ذلك الطوق (من تميمة) اسم خرزة رقطاء تنظم في السير، ثم يعقد في العنق. قال سلمة بن خرشب:

تعوَّذ بالرقى من غير حبل ويعقد في قلائدها التميمُ

وقال رقاع بن قيس الأسدي:

بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمي وأولُ أرض مسَّ جلدي تُرابُها

وقال أبو ذؤيب:

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمةٍ لا تنفـــــعُ

و(تميمة): موضع خبر (يكن) الناقصة. والإسم ضمير يعود على (الطوق)، و(من) زائدة في الخبر. قال ابن مالك:

وزيدَ في نفي وشِبْهِهِ فَجُرْ نكِرةٌ كما لباغٍ مِن مَفَرْ

(ولا ضرب): بمعنى مضروب، عطف على تميمة. (صواغ): أي صائغ وسابك، يقال صاغ الشيء، هيأه على مثال مستقيم. كما في القاموس. ويقال الصائغ والصواغ والصياغ، فعامته في لغة أهل الحجاز. (بكفيه): تثنية كفّ. بالفتح، أي بيديه. (درهما): بالنصب، مفعول صواغ.

والمعنى أن هذه الحمامة من وصفها أنها مزينة بطوق في عنقها. وذلك الطوق ليس من الأطواق المتعارفة، التي هي إما الخرزات المعروفة بالتمائم، أو الحلي المضروب، الذي يضربه بكفيه صواغ الدراهم، بل هو طوق عجيب، يستوقف بلطافته لبّ اللبيب، خارج عن العادة المعروفة، والطريقة المألوفة. وهذه نكتة إعادة قوله: محلاة طوق. مع كونه معاداً من قوله مطوقة.

قلت: قد تبارى شعراء العرب وغيرهم، في وصف طوق الحمامة، وهو الطوق الذي انفردت به عن سائر الطير، وتحلت بزينته، حتى نُظِم في لبَّتِه، جواهرُ الشعر، ونُثرَ على ساحة أعناقها يواقيت النَّثر؛ اكتسبته بسبب صدقها، والوفاء بعهدها، لسيدنا نوح عليه السلام، إذ قال الجاحظ:

" أما العرب والأعراب والشعراء، فقد أطبقوا على أن الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده، وهي التي استجعلت عليه الطوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحِلية، ومنحها تلك الزينة، بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين والحمأة ما برجليها، فعوضت من ذلك الطين، خضابَ الرجلين، ومن حسن الدلالة والطاعة، طوقَ العنق".[حياة الحيوان 3/ 60].

كما تبارت أيضا[أي العرب]في ذكر نوحها وغنائها، وبكائها وطيرها، وبكورها وإضحائها وغدوها، ومساجلتها مع غيرها في أغصان الأشجار، وعلى ضفاف البرك والأنهار، واهتمامها بأمر أفراخها، ومواصلة سعيها في جلب أقواتها، وحنانها عليها، وولهها بها، وإظلالها لها، وهجوم جوارح الطير عليها، وإدمانها البكاء والنحيب على فقدها، وتهييجها عليها الصبَّ المهجور أشجانه، وإطرابها بغنائها وحسن ترنمها . من ذلك قول جهم بن خلف:

وقد شاقني نوْحُ قُمْرِيَّـــةٍ   طروبِ العشي، هتوف الضُّحى
من الوُرقِ نواحة باكـــرت   عسيبَ أشاءٍ بذاتِ الغضــا
تغنَّت عليه بلحنٍ لهــا   يُهيجُ لِلصَّبِّ ما قد مَضــى
مطوقـة كسيت زينـــة   بدعوة نُوح لها إذْ دعَــا
أظلَّت فُرَيْخاً فطاقت لــه   وقد علقته حبال الـــرَّدى
فلم أرَ باكيةً مثلـهــا   تبكي ودمعـتُها لا تُـــرى
فلمَّا بدَا اليأسُ منه بكَــتْ   عليه، وماذا يَرُدُّ البُكَــا
وقد صَادهُ ضرم ملحـــمٌ   خفوقُ الجناح حثيثُ النَّجــا
حديدُ المخالبِ، عاري الوظيفِ   ضار من الوُرقِ فيه قنــا
ترَى الطيرَ والوحشَ من خَوفِهِ   جَوامِزَ مِنهُ إذا ما اغتــدى

[حياة الحيوان للجاحظ3/ 61]

وقال جهم بن ضابئ:

وقد هاج شوقي أن تغنت حمامة   مطوقةٌ ورقاءُ تصدح بالفجر
هتُوفٌ تبكي سَاق حُرٍّ ولن ترى   لها دمعة يوماً على خدِّها تجْري

ولمجنون:

ولو لم يُهيِّجني الرائحون لهاجني حمائمُ وُرق في الديار وقـوعُ
تجاوبن فاستبكين من كان ذا هَوى نوائحُ لا تجري لهنَّ دُمـــوعُ

—

7-(تروح عليه والِهاً ثم تغـتَّدي مُولهة تبغي له الدَّهرَ مَطْعَما)

(تروح): أي تسير إلى ولدها في العشي، حالة كونها (والهاً)، أي متحيراً فاقدًا عقله، وحزيناً كئيباً. (ثم تغتدي) أي تبكر، قال الشاعر:

وقد أغتدي والطير في وكناتها .. الخ.

(مولهة): بالنصب، حال من الضمير في تغتدي، أي تغتدي حالة كونها مولهة على صيغة المفعول، أي تولاها الجزع والحزن على ولدها، أو الخوف عليه من الهلاك. (تبغي له): أي تطلب له (الدهر): أي دائماً، فالدهر ظرف لتبغي (مطعماً) أي طعاماً يأكله ليعيش به. والمعنى أن هذه الحمامة تأتي إلى ولدها في العشي، فتجده متحيراً فاقداً عقله من ألم الجوع، فيقلقها ذلك، فتذهب بكرة ذات جزع وقلق عليه، تطلب له ما يأكله من القوت، وهذه الحالة لا تفارقها دائماً، فهي لا تبرح تحِنُّ عليه وترأف به.

وكل ذلك من ألطاف الواحد القهار، مدبر الليل والنهار، الذي يرزق كل حي، ويعلم مستقره في أي حي، لا إله إلاّ هو، رب العالمين.

روى الترمذي، وابن ماجة، والحاكم، وصححوه، عن أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " لوْ تَوَكَّلتُم علَى اللهِ حقَّ تَوكُّلِهِ، لَرُزِقتُم كَما يُرزَقُ الطَّيرُ، تَغْدو خِماصاً، وتَروحُ بِطاناً ". معناه؛ تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون من الشبع.

وفي هذا الحديث لطيفة؛ وهي أن الإنسان ينبغي له أن يتوكل على الله مع الأسباب، كما أفصح بذلك حديث عمر بن أمية، حيث قال: قلت يا رسول الله، أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال، صلى الله.عليه وسلم: " إعقلها وتوكل".

فينبغي للإنسان، أن يسعى في حوائجه من رزق وغيره، متوكلاً في ذلك على الله تعالى، لا على قوته وحوله. فليس السعي للرزق بذمّ، بل المذموم الاتكال في ذلك على الخلق. وفي طلب الرزق قيل:

فسر في بلادِ الله والتمسِ الغنى   تعش ذا يسارٍ أو تموتُ معذباً
ولا رضى في عيش بدونٍ   وكيف ينامُ الليلَ من كان مُعسِراً

إلا أن هذا لا يخلو من المبالغة في الطلب، ولهذا قال غيره:

وليسَ الرزق عن طلبٍ حثيثٍ   ولكن أدلِ دلوكَ في الدلاءِ
تجئكَ بملئها حيناً وطوراً   تجئكَ بحَمْأةٍ، وقليلِ ماءِ

قيل؛ وجِد في بعض خزائن ملوك العجم، لوح من حجارة مكتوب عليه: كن لما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو، فإن موسى، عليه السلام، خرج ليقتبس ناراً؛ فنودي بالنبوة. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الباب، أحاديث؛ فعن جابر، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "لاتستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبدٌ ليموتَ حتى يبلغ آخر رزق هوَّ له، فأجملوا في الطلب ؛ أخذ الحلال، وترك الحرام." رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما. وعنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ خذوا ما حلّ ودعوا ماحَرُم". رواه ابن ماجة، واللفظ له، والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم.

قال الشاعر المتنبي:

ومن ينفقِ الساعاتِ في جمْع مالهِ   مَخافةَ فقرٍ فالذي صَنَعَ الفقرُ

وقال غيره:

إنّي علِمتُ، وعلمُ المرءِ ينفعُهُ   إن الذي هو رزقي، سوفَ يأتِيني
أسعَى لهُ، فيعنيني تطلبه   ولو قعدت أتانِي لا يعنيني

وما أحسن من قال في الرجوع إلى الله:

يا صاحبَ الهَمِّ إنَّ الهَمَّ منفرجٌ   أبشِرْ بخَيرٍ، فَإنَّ الفارجَ اللهُ
اليَأسُ يقطعُ أحياناً بصَاحبِهِ   لا تيأس، فإنَّ الصَّانعَ اللهُ
إذا ابتُليتَ فثِقْ باللهِ وارضَ بهِ   إنَّ الذي يَكشِفُ البلوَى، هُوَ اللهُ

قال حميد، رضي الله عنه:

8-(تُؤمّلُ فيه مُؤنِساً لانفرادِها وتبكِي عليهِ إنْ رَقَا وتَرنّما)

(تؤمل): أي ترجو منه، (مؤنسا): بكسر النون، مخففا، إسم فاعل آنسه يؤنسه، ضد موحش. (لانفرادها): لوحدتها. (وتبكي عليه): أي تنوح عليه جزعا وخوفا.(إن رَقا): على عود الشجرة، (وترنما): أي تغنى فيه. والمعنى؛ أن هذه الحمامة ترجو من ابنها المذكور أن يكون لها أنيساً في الوحشة، وجليساً في الوحدة. ولشغفها به، لا تسمح بفراقه، ولا تطمئن في انطلاقه، بل كلما امتطى غصناً ليتعلق به، ازدادت غماً وحزناً.

<u>قلت:</u> ذهبنا في الشرح على نسخة "الطبقات" التي فيها (رقا) بالراء المهملة، وفي غيرها (زقا) بالزاي المنقوطة، وهي الأوفق لسياق وصف حميد، لأنه يصف حال هذه الحمامة مع ولدها الذي لازال جاثماً في وُكنه، ساكناً في عُشّه، لا يملك انطلاقاً، ولا يستطيع طيراناً ورقياً على الأشجار، وإنما هو يترقب أمه ويزقو، أي يصوت طالباً لها لطعمه، أو تردد صوته شبه المترنم فرحاً بها.

9-(كأن على أشدَاقِهِ نَوْرَ حَنْوَةٍ إذا هو مَدَّ الجيدَ منه لِيَطْعَما)

(كأن): حرف تشبيه، (على أشداقه): جمع شِدْق بالكسر، وبفتح، أي جوانب الفم، والجار والمجرور خبر كأن، مقدم على اسمها. (نور): بفتح النون، وسكون الواو؛ الزَّهر، واحدها نوْرَة، مثل زهرة، و (حنوة): بفتح الحاء المهملة، وسكون النون، وفتح الواو،وهو نبات سهلي طيب الريح. قال الشاعر:

كأن ريحُ خُزامَاهَا وحَنوَتِها ... [إلخ]

أو هو أَدَرْيونُ البر. قال أبو حنيفة: الحنوة الريحانة، قال: وقال أبو زياد: من العشب الحنوة. وهي قليلة شديدة الخضرة، طيبة الريح، وزهرتها صفراء. (إذا هو): أي ابن الحمامة (مدَّ الجيدَ منه) أي نصب منه العنق (ليطعما): أي ليأكل. يقال: طَعِمَ بكسر العين، يطعَم، أكل. قال تعالى: (فَإِذَا طَعِمتُم فَانتَشِرُوا) والمعنى أن ابن هذه الحمامة، إذا نصب عنقه ليأكل، أشبهت جوانب فمه زهر هذا النبات ذا النور الأصفر.

10-(فلمَّا اكتسَى الوبلَ السخامَ ولم تَجِدْ لها معهُ في ساحةِ العَيْشِ مَرْتَما)

قلت: هنا وقف القلم إذ ذاك، لوقوع التحريف والتصحيف في هذا البيت من نسخة "الطبقات"، ولم يتيسر تحقيق الصواب في ذلك، فكان ذلك موجباً لكلال الذهن، وفتور الهمة عن إتمام شرح ما بقي من تلك الأبيات.

وحيث الآن، وقع تصحيح ذلك التحريف، وتحقيق ما أوجب الإبهام من التصحيف، فيجب علينا التكميل، والمضي على ذلك السبيل، فنقول:

إن قوله في هذه النسخة (الوبل): لا تستقيم عليه معنى البيت، سواء قرئ بالباء الموحدة، أو الياء المثناة، كما أن قوله:(في ساحةِ العيْش) بزيادة الياء بين العين والشين، لا يناسب المعنى، بدليل قوله (مرتّمَا) بالميم بعدها راء، وبعدهما تاء فميم. والصواب في اللفظة الأولى: (الوبل): الريش. وفي الثانية:(العُشّ) بدون ياء، وهو عش الطائر. وفي الثالثة:(مَجثما) بميم فجيم فثاء مثلثة فميم، وهو مفعل من الجثوم، والجثوم للطائر؛ كالبروك للبعير.

وبهذا صار معنى البيت واضحا جلياً، أي لما اكتسى فرخ الحمامة الريش الأسود، وهو السخام، بعد أن كان قطعة لحم ترعب، أصفر أو أبيض، ولم تجد أمه معه في ساحة العش مجثما، أي محلاً لجثوها وجلوسها، حيث امتلأ العش به، وقبل ذلك كانت تجعله بين جناحيها وتجثم فوقه؛ تنحت حينئذ قريبة لهذا السبب، وهو قوله:

11-(تنحَّتْ قريباً فوقَ غُصْنٍ تداعَبتْ بهِ الريحُ صِرْفاً أيَّ وجهٍ تَيمَّمَا)

أي لما اكتسى هذا الفرخ الريش الأسود، وملأ العشَّ جثته، ولم تجد فيه محلاً لمقرها، تنحت عن هذا العش، ولكن جلست قريباً منه، لتراقب أحوال ولدها وتحرسه، ونزلت على غصن شجرة تداعبت وتلاعبت به الريح، وصار يصرفه صرفا إلى جهة تسمها وتقصدها، وهذا هو شأن الحمامة، فإنها إن استغنى ولدها عن حضانتها، وجعله تحت أحضانها، وكان لازال لم يقدر على الطيران، فإنها تستمر على زقه، ولكن، في المبيت تتخذ محلا قربه، بحيث يكون بمرأى ومسمع منها، إلى أن يقدر على الطيران، فحينئذ يستقل بأمره، ويفارق العش كغيره. وكل ذلك بإلهام الباري جل وعلا وأمره.

12-(فأهْوَى لهَا صَقْرٌ مُنيفٌ فلم يَدعْ لهَا ولداً إلَّا رِمَاماً وَأعْظُمَا)

(أهوى لها):أي انقض عليها. يقال: أهوت العُقابُ؛ انقضت على الصيد. (صقر): بفتح الصاد، طائر يصيد ماعدا النسر والعقاب. (منيف): هكذا في نسخة "الطبقات"، بالنون من أناف ينيف، فهو منيف، أي أشرف على الشيء، ولكن الموجود في غير "الطبقات"، مُسفٍ، بالميم والسين والفاء، من أسفَّ الطائر، إذا نزل إلى الأرض وقرب منها. وهذه النسخة هي الصحيحة المناسبة للمعنى هنا. (فلم يدع): يترك لها ولدا (إلا رمَاماً): جمع رميم، وهي العظام البالية، قال تعالى: (قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)، (وأعظما).

13-(وَوَافَتْ على غُصن ضُحَيا ولم تدَعْ لِنائِحَةٍ في نوحِهـا مُتلوَّمَا)

(ووافت): أي أتت، (على غصن ضحيا): بضم الضاد، تصغير ضحى، أي ارتفاع النهار. (ولم تدع لنائحة): أي لباكية على ميتها بصياح وعويل وجزع (في نوحها): أي بكائها على ولدها الفقيد، (متلوما): أي محلا للملام والعدل على التقصير، لأنها أتت في نوحها وصياحها وتحزنها، ما يفوق نوح المرأة النائحة.انتهى ما كنا كتبناه على هذه الأبيات.

وهكذا استمرت أبحاثنا في سرد تلك الطبقات، إلى أن أتممنا الجزء الأول، وتوسطنا الجزء الثاني.

سرد صحيح الإمام البخاري، بشرح الإمام القسطلاني

كما أننا كنا افتتحنا في داره، [أي بدار الشيخ ابن الأبار]، رحمه الله، كتاب صحيح الإمام البخاري، بشرحه إرشاد الساري، للإمام القسطلاني. وكان ذلك بعد صلاة العشاء من كل أربعاء، وكان المجلس مؤلفاً من الفقيه المذكور، والفقيه الشريف الجليل سيدي محمد الموذن، والشريف سيدي أحمد الغنمية، والشريف سيدي أحمد غيلان، والفقيه السيد أحمد الصفار، وعبد ربه وأسير ذنبه. وكان وقع الاتفاق أن يكون ذلك دورياً، كل يوم أربعاء، عند أحد من الحاضرين، بشرط أن لا يزاد في العشاء على "الكسكس" بالدجاج. ودارت الدورة الأولى، ولكن في الدورة الثانية، أبى الفقيه إلا أن لا يكون ذلك إلا في داره، واستمر الحال كذلك، من ثامن محرم عام 1334، إلى أن أقبل شهر رمضان المعظم، فأوقفت القراءة عند "باب سؤال جبريل النبي" ،وذلك صحيفة 138 من جزء القسطلاني.

لأنا كنا في الحقيقة نجعل شرح القسطلاني، هو المتن، ونسرده كله حرفا حرفا، ونتتبع أبحاثه بكل تحقيق وتدقيق ومناضلة، حتى لا يشذ عن فهمنا شيء. ثم وقع الانقطاع بعد شهر رمضان، للزيارة التي نابت كاتبه ولم يتمكن من العودة إلى ذلك، إلا في أواسط صفر من عام 1335، ولكن وقع استبدال الوقت، فصار بعد صلاة العصر من كل خميس، وصار الحاضرون: الفقيه ابن الأبار والفقيه المؤذن والفقيه الغنمية، وكاتبه.

وكان هذا السرد سرد تحقيق،كما قلنا، وتدقيق وبحث، حتى في إعراب جمل الشرح، ويعرفك ذلك، ما كنت كتبته إذ ذاك، في مسألة إعرابية وقع الخلاف فيها بيني وبين الشيخ. ولفظ ما كتبته وعرضته عليه، رحمه الله، ونقلته هنا، ليعلم القارئ اليوم، كيف كانت الهمم إذ ذاك عالية في درك دقائق العلوم:

"فحوى كلام سيادتكم، من قول القسطلاني؛ والضرورة هو من باب قول المصنف (وما يلي المضاف يأتي خلفا عنه في الإعراب، إذا ما حُذِفا) فيكون إما بالرفع، لكونه هو الأصل، أو بالجر، جريا على قول المصنف (وربما جرُّوا الذي أبقوا كما الخ). فيكون، والضرورة على الجر، مجرورا بالمضاف المحذوف، لا بالعطف. ويلزم عليه أن لا يكون المعطوف من التوابع في كثير من الأمثلة التي من هذا المثال، نحو قوله تعالى (أولَئِكَ عَلَيْهِم لَعنَةُ اللهِ وَالملائِكَةِ والنَّاسِ أجمَعِينَ)، فالجر إذاً في هاتين الآيتين من باب قول المصنف: وربما جروا الخ. وهذا في الكلام كثير، ففي كلام ابن مالك، نحو: صه وصيهل، قال المعرب؛ وصيهل، معطوف على صه، ولم يقل على نحو ونون ما ثُنيَ والملحَق به، وذو ارتفاع وانفصال. وفي البخاري: باب أمور الإيمان، وقول الله تعالى:(لَيْسَ البر). قال القسطلاني: وقول الله تعالى بالجر، عطفا على أمور الإيمان، ولم يقل عطفا على باب.

وفي البردة:

فإن أمَّارتي بالسوءِ ما اتَّعظَتْ . من جهْلِهَا بنذيرِ الشَّيبِ والهَرَمِ

وقال:

وقدمتكَ جميعُ الأنبياءِ بهَـا والرُّسْلُ تقديمَ مخدومٍ على خدَمِ

والأمثلة في ذلك كثيرة جدا. ولو قيل فيها إنها من قبيل قول المصنف: وربما جروا الذي أبقوا الخ، مرّ وما يلي المضاف يأتي خلفا الخ. أضعاف مضاعفة، ولا معنى حينئذ لقول

المصنف: وربما جروا الذي الخ. وأما قول المصنف: وربما جروا الذي أبقوا إلخ، فموضوعه في شيء خاص، وهو لو منعنا مانع صناعي من العطف على المجرور، مثلا كقول الشاعر:

أكلَّ امرئ تحسبين امرأ ونارٍ تأجَّجُ بالليلِ نارا

قالوا: إن نار ليس معطوفا على امرئ، ليلا يلزم عليه العطف على معمولي عاملين مختلفين، بأن نجعل قوله نار بالجر، معطوفا على امرئ، والعامل فيه تحسبين. والفرق بين قولنا: إن الضرورة مثلا على صوم، وإنه من باب قول المصنف: وما يلي المضاف الخ، يكون معمولا لنحو المذكور بواسطة الواو، كما هو المذهب الحق عندهم في العامل المعطوف، وذلك لأنهم اختلفوا في ذلك على ثلاثة مذاهب، كما في المرادي وغيره. وإن قلنا إنه من باب: وربما جروا، يكون معمولا لنحو المحذوف، لا لنحو المذكور، ويكون فيه الخروج عن الأصل بالتقدير.

وعرض هذا عليكم[مقيد] زواهر سماء علومكم، وملتقط جواهر بحر أفهامكم، راجيا منكم الدعاء بالتوفيق، والهدى إلى أسدّ الطريق، ورافعا أكف الضراعة، ومتوسلًا بصاحب الشفاعة، أن يديم لنا التمتع بطلعتكم السنية، والتنزه في حدائق معارفكم البهية، بجاه خير البرية، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية."

ومن هذا الكتاب، نهج وجه الخلاف الذي كان بيني وبين شيخي في هذه المسألة. كما تعلم كيف كانت الهمم متوجهة إلى تحقيق المسائل العلمية، وكيف كانت اجتماعات أهل العلم، حيث كانت كلها مذاكرات ومباحثات علمية، لا اغتيابات مردية، ولا خرافات ملهية، ولا سياسات وهمية.

وكثيرا ما كانت تقع بحضرته، رحمه الله، إثارة بعض الأبحاث، ولا يتحرر فيها المقال، ولا تُحَلُّ عن مُغلقها الأقفال. وكان من تواضعه وإنصافه، يكلفني بالكتابة فيها، فأكتب فيها على حسب فهمي ومبلغي، فيتقبل مني تلك الكتابة ويبتهج بها. فمنها أنه ألقى بمجلسه الفقيه الشنكيطي، إيراداً على قوله تعالى: (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِّعَاءِ أَخِيهِ)، لِمَ قيل وعاء أخيه، ولم يقل وعائه؟ وأظهر في محل الإضمار؟. وكان الشنكيطي

المذكور، أبدى ذلك على وجه التعجيز والإعجاب، لا على وجه الاستفادة، إذ كان في ظنه أنه لا يوجد الجواب عنه. فكتبت في ذلك الوقت ما لفظه:

قد كانت وقعت المذاكرة في آية الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن لمعارضته لرجعوا كحنين وخفه، وهي قوله تعالى: (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبلَ وعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ استَخرَجَهَا مِنْ وِّعَاءِ أَخِيهِ) الخ، أظهر في موضع الإضمار، وما النكتة في ذلك؟ فأجبت بهذا :

النكتة في ذلك، هي إزالة اللبس، حسبما ذكر ذلك العلامة جلال الدين السيوطي، في "الإتقان" ونصه:

ومنها، أي من فوائد الإظهار موضعَ الإضمار، إزالةُ اللبس، حيث يوهم الضمير أنه غير الأول. وذكر أمثلة من ذلك، ثم أتى بهذه الآية فقال: (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ استَخْرَجَهَا مِنْ وعَاءِ أَخِيهِ) لم يقل منه، لئلا يتوهم عود الضمير إلى الأخ، فيصير كأنه مباشر بطلب خروجها، وليس كذلك، لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس الأبية، فأعيد لفظ الظاهر لنفي هذا، ولم يقل من وعائه، لئلا يتوهم عود الضمير إلى يوسف، لأنه العائد إليه ضمير استخرجها هـ[2/ 81].

وهذه أمثلة أثبتناها هنا، تصويراً لما كانت حالة ملازمتنا لهذا الشيخ، حيث كانت أوقات اجتماعنا معه كلها مذاكرات ومباحثات علمية.

شيوخ شيخنا ابن الأبار بتطوان
[ترجمة الفقيه السلاوي]

وقد أخذ، رحمه الله، أولا عن شيوخ الوقت في بلده تطوان على العادة ؛كالعلامة السلاوي، والشريف الأديب سيدي المفضل أفيلال، وكان كثير الملازمة له، إذ كان، كما كان يحكي لنا، أنه كان عنده بمنزلة أعز أولاده.

كما أخذ عن شيخنا العلامة الشريف، سيدي محمد البقالي، الذي ستأتي ترجمته، إن شاء الله.

أما العلامة السلاوي؛ فكان كثير اللهج بذكره، والتنويه بقدره، والثناء على سيرته في طيه ونشره، والاعتناء بفتاويه، وما كان يجري بينه وبين قاضي وقته، العلامة عزيمان، إذ كان كثير الانتقاد عليه، مع إعطائه ما يستحق من إجلاله.

ولقد كان عند شيخنا هذا، كناشة فيها بعض ما كان يجري بين العلامة السلاوي، والقاضي عزيمان، مما يشوق ويروق كلَّ فقيه نبيه، وقد تأسفت غاية الأسف حيث لم أحظ بكتب ذلك ونقله.

ومن فتاويه التي كان شيخنا يدّخرها، فتواه في قضية أولاد مدينة، في هبة شهدت بيّنة بالحوز، وعارضها الخصم بشهادة أن الواهب لم يزل معتمراً للموهوب، ولم يرفع تصرفه إلى أن توفي. واختلف في ذلك المُفتون، فمنهم من صحح الهبة، ومنهم من أبطلها. وفي الحقيقة منهم من اعتمد ما للشيخ الرهوني في حاشيته، ومنهم من اعتمد ما قاله الشيخ التسولي في شرح التحفة.

أما العلامة السلاوي، فإنه اعتمد ما للرهوني، وأفاض في الرد على التسولي ومن تبعه، وأطال في الاحتجاج لنصرة ما للرهوني، حتى أخرج ذلك في تويلف عرضه على كبار علماء فاس في ذلك العصر، فكتبوا عليه، وصححوا مقالة السلاوي وقرروها، وسلموا نصوصها، وأثبتوا عليها وقرظوها.

أما نص الفتوى، فلا يهمنا نقلها، إذ نقلها الشيخ الوزاني في معياره، وإنما يهمنا تلك العبارات التي وصفوا بها هؤلاء الأعلام؛ العلامة السلاوي، وحلوه بها، بما يقوم مقام ترجمته:

فأولهم شيخنا قاضي القضاة، العلامة العراقي، إذ قال:

"الحمد لله، ما أبداه العلامة المحرر يمنته بالأوراق، من النقول الصريحة الخ". إلى أن قال: "فجزى الله هذا الفقيه النحرير خيرا، والسلام. وكتبه محمد بن رشيد العراقي الحسني، كان الله له".

ثم شيخنا البركة المدرس المؤلف، سيدي التهامي بن المدني كنون، إذ قال بعد التصدير:

"وبعد، فقد تصفح كاتبه هذا التقييد، وأمعن النظر فيما تضمنه من التحقيق والرأي السديد، فوجده غنيا عن المزيد، إذ لم يدع مقيده، جزاه الله خيرا، قولا لقائل". إلى أن قال:

"والله تعالى يبقي مثل مقيده في المسلمين، ويمتع به وبعلومه المتعلمين منهم والمعلمين، آمين. وكتبه عبد ربه وأسير ذنبه، محمد التهامي بن المدني كنون، كان الله له ولجميع المسلمين فيما كان ويكون".

ثم شيخ بعض شيوخنا، مولاي الكامل الإمراني، ولفظه بعد الافتتاح:

"وبعد فقد طالعت ما تضمنته هذه الأوراق، مما حقه أن يرفع لسواد الأحداق، الذي هو صنع شيخنا وسندنا، الفقيه العلامة المشارك، الفهامة الدراكة في كل المدارك، الجهبذ النحرير، الحامل راية التحرير، من لازال كاسمه بكل خلق حميد يحمد، أبي المكارم سيدي أحمد، متع الله المسلمين ببقائه، وطيب الخافقين بعرف بيانه ". إلى أن قال: "جعله الله وإيانا ببركته، ممن أخلص لله في قوله وعمله، ومنَّ عليه وعلينا ما نرجوه من عظيم إحسانه، بفضله وكرمه. وكتبه موافقا العبيد الراجي مغفرة ذنوبه وعفو مولاه، عبد الله الكامل الإمراني".

ثم شيخ بعض أشياخنا، الشيخ المسن، سيدي بو بكر بناني، ولفظه بعد الافتتاح:

"وبعد، فقد طالع كاتبه، سامحه الله، ذلك التحرير المنسوب للشيخ العلامة، سيدي أحمد بن محمد السلاوي، فوجد ما قاله وحرره كله صواب الخ. وعلى ذلك يوافق عبيد ربه، أبو بكر بن العربي بناني، أسكنه الله بمنه وجميع المسلمين دار التهاني، آمين".

ثم شيخنا المحقق سيدي أحمد بن الجلالي، إذ قال:

"راجع كاتبه، سامحه الله بمنه، ما سطره بمنته الفقيه الجليل، المتحلي بالوصف الجميل، العالم العلامة النحرير، سيدي أحمد ابن سيدي محمد السلاوي، من الانتصار للشيخ العلامة الرهوني، الخ ". ثم قال: فلله دره في ذلك التعليق المسطور. قد أبدأ فيه وأعاد، وأفاد وأجاد، فلم يبق لناظر مجالا، ولا لقائل مقالا، سيما وقد وافق عليه ساداتنا العلماء الأجلة، والبدور الأهلة حوله، فعليه يوافق عبد ربه، وأسير كسبه؛ أحمد الجلالي الأمغاري، كان الله له ولوالديه وأشياخه، كما كان لأولئك الصديقين. والحمد لله رب العالمين".

ثم الشيخ خليل الخالدي، أحد مشاهير علماء القرويين في عصره، ولفظه:

"فقد طالع كاتبه، سامحه الله، هذا التحرير والتصدير، الذي رقمه الفقيه العلامة الدراكة الفهامة سيدي أحمد بن محمد السلاوي، فألفاه من التحرير بمكانة، ومن الانتصار للإمام

الرهوني في غاية الإصابة والإعانة، جزاه الله خيراً، وأناله مثوبة وأجراً، وكثّر في الأمة أمثاله، وأذاع النفع به وأصلح أحوالنا وأحواله، فقد أخرص به كل مجيب، وخطأ به كل من يزعم أنه مصيب، وكيف لا وقد سلمه الجهابذة، من العلماء الأجلة، البدور الأهلة، وكتبوا عليه بما لا مزيد عليه. وعليه يوافق أسير هواه، الراجي عفو مولاه، خليل ابن صالح الخالدي الحسني، وفقه الله".

ثم شيخنا العلامة الأديب البليغ، مولاي عبد السلام العلوي، ولكون عبارته لطيفة عذبة رائقة، مختصرة بديعة، نأتي هنا بها بتمامها، إذ قال رحمه الله:

"وبعد، فقد وقف كاتبه على ما سطره هذا العلامة الأوحد الهمام، في مسألة تعارض البينتين، فإذا به مؤلّف ينبئ عن فوز مُؤلّفه بالفضائل على التمام، وكشف النقاب عن خبايا هذه المسألة واللثام، بحيث رفع عن الناظر فيها التعب، وأوقفه عند الحيرة والالتباس على المرام والطلب، وأثبت الحق لأهله بدليل، وسلك معرفة الحق فيها من غيره نهج السبيل، وبناها على أحكم وصف وأوفق بيان، ونظمها مع التحقيق والإتقان كنظم الجمان، بحيث لا يشك الناظر في هذا المسطور، أنه كافٍ شافٍ ممتع، مُرْوٍ فيها ومشبع، وما كان أولاه لذلك، وأليقه لسلوك تلك المسالك، لبصارته بهذا الشأن، وإحرازه قصب السبق يوم الرهان، أمتع الله به المسلمين، ونظمنا وإياه في سلك المهتدين، والعلماء العاملين، وحرس جلالته وجلاله، وكثر في هذه الأمة أمثاله، آمين، والحمد لله رب العالمين. وقيده موافقاً على ما كتبه السادات أعلاه، عبد ربه، وأسير ذنبه؛ عبد السلام بن عمر العلوي الحسني، أحسن الله إليه ولوالديه ولأشياخه، وصلى الله ثانياً وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله، صلاةً تستغرق العدّ، وتحيط بالحد، صلاة لا نهاية لها، كما لا نهاية لكمالك وعد كماله."

ثم العلامة مولاي إبراهيم العلوي، إذ قال بعد الافتتاح:

"وبعد، فقد تصفحت ما رقمه الفقيه العلامة القدوة، الجهبذ النفاع، المملي بقلمه ولسانه، شهي الحديث وحلوه، أبو العباس سيدي أحمد السلاوي". إلى أن ختم مقاله بقوله: " فجزى الله مؤلفه عن الإسلام خيراً، وأناله على الأنام أجراً، ووفقنا لما فيه رضاه، وسلك بنا جميعاً سبل من ارتضاه، آمين، وكتبه الراجي عفو مولاه الغني القوي، إبراهيم بن محمد بن عمربن

اليزيد الحسني العلوي، عامله الله بلطفه الخفي، وأجراه على عوائد بره الخفي، وأصلح أحواله وبلغ من خير الدارين آماله".

ثم العلامة أبو العباس البوعزاوي، حيث قال بعد الافتتاح:

"وبعد، فقد تشرف كاتبه، سامحه الله، بالوقوف على ما قيده الفقيه الذي إليه المفاخر والفضائل تهرع وتأوي، العلامة المحقق سيدي أحمد بن محمد السلاوي ".

ثم أفاض، رحمه الله، في تأييد مقالة الفقيه السلاوي، وتتويجها بالنصوص الواضحة، وفصوص الجواهر النيرة اللائحة، وختم مقاله بقوله: "ولأجل هذا وبسببه وافق أجلة علماء هذه الحضرة الإدريسية، على اعتماد التقييد بمقتضى موجبه. وهذا إنما هو بسط لمرادهم، وتصريح بمقاصدهم، والكل مقتبس من أنوارهم، متبركاً بالانخراط في سلكهم، موافقاً على التطيب بمختوم مسكهم، أفقر الورى وأقل من يدعي، أحمد بن محمد المهدي بن محمد بن العباس البوعزاوي، برّأ الله ساحته من الدعاوي، وغطى عنه بجميع سره جميع المساوي، آمين".

ثم العلامة سيدي أحمد ابن سودة، إذ قال:

"الحمد لله، ماذكره العلامة النحرير، المفتي أعلاه، من النقل والتعقل بمقتضى القواعد الأصولية، صحيح، وعليه يوافق عبد ربه، وأسير ذنبه، أحمد بن الطالب ابن سودة المري، الله وليه ومولاه ".

ثم القاضي العدل الشهير، قاضي الحضرة الإدريسية، سيدي عبد الله ابن خضراء، إذ قال ما لفظه:

"الحمد لله، جزى الله هذا العلامة الجليل، عن الانتصار للشيخ الرهوني الجزاء الجزيل، فإن ما للشيخ المذكور، هو الحق الذي يجب عليه التعويل. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وكتبه موافقاً عليه أجهل من أقلّت الغبراء، عبد الله ابن خضراء، كان الله له، وزين بالإخلاص عمله".

ثم العلامة الشهير، قاضي الحضرة الإدريسية، سيدي حميد بناني، إذ قال:

"الحمد لله، طالع العبيد الحقير، والواضع إسمه عقبه، ما سطره الفقيه العلامة سيدي أحمد ابن سيدي محمد السلاوي، في النازلة الخ. فوجده من التحرير بمكان، وفي غاية

الإتقان، فوافق عليه، كما وافق على مضمنه العلماء الأجلة أعلاه وحوله؛ حميد بن محمد بناني، وفقه الله بمنه".

ثم ختم تلك الموافقات والتقريظات، خاتمة المحققين بالاتفاق، شيخنا وإمام المغرب على الإطلاق، العلامة سيدي أحمد ابن الخياط، بما لفظه:

"الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول ال،له وعلى آله وصحبه. وبعد، فما قرّره وحرّره الفقيه العلامة، الدراكة الفهامة، المشارك المدرس النقاعة، ملحق الأحفاد بالأجداد، السالك سبيل النفع والإرشاد، الذي إلى تحقيقه الحيران ياوي، أبو العباس، سيدي أحمد بن محمد السلاوي، في هذا الجواب الحفيل، ووافق عليه أولائك الأجلة الأعلام، من تقديم بينة الحيازة على مقابلتها، تبعاً للعلامة الرهوني، عليه التعويل، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وعلى ذلك يوافق عبيد ربه، وأسير كسبه؛ أحمد بن محمد ابن الخياط، كان الله له وللمسلمين آمين".

قلت: والعلامة السلاوي، حقيق بذلك، لما اتصف به من التحقيق، وسلوكه في الديانة أقوم طريق، وقد خلف رحمه الله في هذا الثغر التطواني ذكراً طيباً، وكان له في حياته بهذا الثغر شهرة ومكانة مكينة عند أعيانها، حيث كانوا يواصلونه بالهدايا والتحف، والصلات المتواصلة، بحيث كان بسبب ذلك يعيش في أرغد عيش وأنعم بال، كما كان هو، رحمه الله، يجاملهم، ويقوم بما يسندونه إليه من كتابة رسوم، وإفتاء في محاكمة خصوم، إذ كان عندهم محل الثقة، وقلوبهم على حبه متفقة.

وهو مع ذلك، مقبل على عبادة ربه، جادّ في إقامة فرضه ونفله، ملازم لصلواته في أوقاتها، ليلها ونهارها، إذ كان يؤم بالجامع الكبير، في الأوقات، ويخطب في الجمعات، من غير ملل ولا فتور، مع كبر سنه، وضعف بدنه.

ولم يزل على ذلك إلى أن دعاه ربه لحضرته، في شهر رمضان المعظم عام عشرين وثلاثمائة وألف (1320) عن سن يناهز الثمانين، ودُفن بزاوية سيدي علي بركة، قرب باب المقابر، من هذا الثغر التطواني. فأصيبت أفندة أهل العلم بمصابه، وخفض مرفوع علم الفتوى بعد انتصابه، وبكى على فقده خاصة الثغر وأعيانه، إذ ذهب بذهابه قواعد الدين وأركانه. تغمده الله برحمته، وأسكنه فردوس جنته.

رحلة الشيخ ابن الأبار لحضرة فاس
وإدراكه أكابر علمائها

ثم لما أكمل ابن الأبار، مقاصده من علماء هذا الثغر، انتقل لحضرة فاس، ليتم بها دروسه العالية، فأدرك هناك من مشاهير الشيوخ، أهل الثبات في المعارف والرسوخ، كل عالم نقاد، وكوكب في الفنون وقاد. وكان كثير الإعجاب بشيخين منهم، وهما :

إمام السيرة النبوية، وعمدة الفنة الأدبية، العلامة القاضي، الشريف سيدي الهادي الصقلي، وقد تقدمت لنا ترجمته،[في الجزء الأول] عند ذكر الولي سيدي عبد السلام ابن ريسون، حيث نقلنا تلك المناضلة التي وقعت بينه وبين الفقيه السلاوي، في قول البوصيري (ومسير الصبا بنصرك شهراً).

والثاني: هو الفقيه المشارك، سيدي محمد المدني ابن جلون، وكان شيخنا [ابن الأبار]، رحمه الله، كثيراً ما يحكي لنا عن هذا الفقيه، من النكت والفوائد ما يُرقص ويُطرب، ويبين عن مكانته العلمية ويعرب. وكل ما كان يشرحه لنا شيخنا ابن الأبار، رسمه شيخنا محمد بن جعفر الكتاني، في كتابه "السلوة" إذ قال في ترجمته:

"ومنهم شيخنا العلامة المحقق، الدراكة الفهامة المدقق، الفقيه المحدث النحوي، البياني الأصولي اللغوي، المشارك، أبو عبد الله سيدي محمد المدني ابن الفقيه الصوفي أبي الحسن علي ابن جلون، الكومي لقباً، الفاسي داراً ومنشأ وقراراً".

" كان، رحمه الله، علامة ماهراً، ومحققاً باهراً، له معرفة بالفقه والحديث والنحو، والبيان والمنطق والأصول وغيرها، جامعاً مانعاً محصلاً، غواصاً على الدقائق، بحاثاً نظاراً مع صغر سنه، إلى بضع وثلاثين عاماً، وكان شديد الإنصاف والتواضع، كريم النفس، زكي الأخلاق، كريم المعاشرة، عظيم النزاهة. ولد، رحمه الله، حسبما رأيته مقيداً بخط والده، في ربيع النبوي الأنور عام أربعة وستين ومائتين وألف. وأخذ عن عدة شيوخ؛ كوالده المذكور، وسيدنا الوالد، واستجازه فأجازه إجازة عامة، والفقيه سيدي الحاج محمد كنون، والفقيه سيدي الحاج المهدي بن الطالب ابن سودة، وشقيقه الفقيه الصوفي سيدي الحاج عمر،

والفقيه سيدي محمد الحمادي الشهير بالمكناسي، والفقيه سيدي محمد البازي، والفقيه مولاي أحمد العراقي، والفقيه سيدي محمد بن ملوك التلمساني، والفقيه سيدي المهدي ابن الحاج، والفقيه سيدي الحاج محمد المقري التلمساني الملقب بالزمخشري، والفقيه سيدي إدريس السنوسي، والفقيه سيدي الحاج أحمد ابن سودة، وغيرهم. وانتفعتُ به أنا وغيري من نجباء طلبة الوقت، في المختصر وغيره، وما رأيت قراءة أعجب إليّ من قراءته، ولا أشد تحقيقاً ولا أعظم تلخيصاً وجمعا ".

"وله، رحمه الله تآليف عديدة مفيدة، منها: "الطرفة العبيقة، المهداة لخير الخليقة"، في المطالب السبعة التي ينبني عليها حدوث العالم. و"نزهة ذوي العقل السليم، في بعض علوم باسم الله الرحمان الرحيم"، و"حديقة الأزهار، المهداة لسيد الأبرار"، في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار، والخط وخواص الآي والسور، والتنجيم والحروف. و"اللنالي اليتيمة، فيما يتعلق بالفاحشة العظيمة". و"الطيب العبق النشر، المتحف به من يقول "أنا لها" في موقف الحشر والنشر"، تمم به النوافل التي بقيت على خليل وصاحب المرشد. و"استنشاق الفرج بعد الأزمة، من حضرة المسمى عين الرحمة"، في سفر صغير. وتقييد في المبشرين بالجنة. وآخر في الصحابة الذين غير المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أسماءهم. وآخر في بعض الأحاديث المتواترة. وآخر في لا النافية للجنس. وآخر على قول "الخلاصة": ونعت غير واحد إذا اختلف. البيتين. وشرح على تقرير الشيخ الطيب في الاستثناء. وأجوبته مفترقة في علوم شتى، وطرر كثيرة على حواشي كتب متعددة في أنواع من العلوم. وتقاييده كثيرة. وكان من عادته، رحمه الله، إذا سمع من يتذاكر في مسألة علمية، ولم يستحضر التحقيق فيها، يذهب إلى موضعه، ويراجعها حتى يعرف وجه الصواب فيها، ويقيد ذلك. وشرع في جمع أربعين حديثاً سماها بأسباب النضارة، بالأربعين المختارة، فلم يكملها. ثم شرع في شرح عليها فكتب منه عدة كراريس، ولم يكمله أيضاً. وله أيضاً مرائي نبوية، وقفت على بعضها بخطه، وتركت ذكره مخافة الطول ".

"وولي في آخر عمره القضاء بثغر الصويرة. ثم بعد إعفائه منه، صار يحضر قراءة البخاري مع السلطان الأمجد، مولانا الحسن بن مولانا محمد، وجماعته في مجلسه، فغبط به السلطان المذكور، وأرسله لبعض المصالح العارضة بناحية الغرب، فبقي هناك مدة من

أشهر، ورجع مريضاً إلى فاس، فبقي بها يومين أو نحوهما، وتوفي في نصف ليلة الرابع عشر من ربيع النبوي، عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف (1298) ودفن بهذا الخارج، بروضة كبيرة لبعض أولاد ابن جلون، يسار الهابط من روضة أولاد ابن إدريس، قريباً منها، وبني عليه بناء خفيف للتمييز، وكتب عند رأسه تاريخه ".

وجل ما ذكره شيخنا الكتاني، في ترجمة ابن جلون، كنت أسمعه من شيخنا ابن الأبار. وممن أدرك شيخنا بفاس، من أجلة الأعلام؛ الشيخ كنون ـ مختصرِ حاشية الرهوني ـ وهو حسبما في "سلوة " شيخنا الكتاني:

"الفقيه الجهبذ الإمام، العالم العلامة الهمام، الكبير الصيت والباع، المخصوص بالحظوة التامة ومزيد الارتفاع، المشارك في كثير من الفنون، أبو عبد الله، سيدي الحاج محمد ابن الحاج المدني بن علي كنون، من أولاد كنون المعروفين بفاس".

" كان، رحمه الله، أحد الصدور والأماثل، والعلماء الأفاضل، كبير الصيت والقدر، عظيم الجناب والخطر، ذا مهابة ورفعة وجلالة، ومكانة ومناعة، وكانت له معرفة بالفقه والحديث، والتصوف والتفسير، والنحو والأصلين، وغير ذلك. ومهر في علم الفقه، فكان ممن انتهت إليهم رناسته ".

"وكان له مجلس حفيل بالقرويين، يقرأ فيه المختصر، كان ينتفع به فيه عامة طلبة فاس وغيرها، وآخر بضريح سيدي قاسم بن رحمون، يقرأ فيه البخاري صباحاً، في مدة الأشهر الثلاثة، وغيره بين العشاءين دائما، كان ينتفع به فيها جمهور العامة والطلبة ".

"وكان كثير المطالعة، والتقييد والمراجعة، وينقل في مجالسه من الأحاديث والنصوص، ما فيه مقنع للعموم والخصوص، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر المألوف، دؤوباً على الإرشاد والنصح للعباد. وكانت له أسماء شريفة وأذكار، يستعملها بالليل والنهار".

"أخذ عن شيخ الجماعة، سيدي محمد بن عبد الرحمان الفيلالي الحجرتي، والشيخ المحدث، مولاي الوليد بن العربي العراقي، والفقيه النحوي، سيدي أحمد المرنيسي، والفقيه المشارك، سيدي أبي بكر ابن الشيخ الطيب ابن كيران، والعلامة الصالح سيدي بدر الدين الحمومي، والعلامة الأصولي البركة، سيدي عبد السلام بوغالب، وغيرهم".

"ولقي بعض أهل الخير وانتفع بهم؛ كالشريف العارف الكاشف، الولي الصالح، ذي البركات والكرامات، أبي الفضل، وأبي عيسى، مولاي المهدي بن علي بن محمد العلوي السجلماسي، المتوفى بها في أواخر شعبان، أو أوائل رمضان، عام ستة وتسعين ومائتين وألف (1296) ودفن بداره بآبار، وقبره بها شهير مزار. وحج صاحب الترجمة وزار، ولقي هناك جماعة من العلماء والأخيار، وتبرك بهم واستفاد من قربهم، وأخذ عنه هو، وانتفع به جماعة كثيرة من الأعيان، وعلماء هذا الزمان".

"وألف تآليف عديدة، منها: اختصاره لحاشية الشيخ الرهوني، على الشيخ عبد الباقي الزرقاني. وحاشية على شرح بنيس، على فرائض مختصر خليل. وتأليف في الأشراف آل البيت، سماه بـ: "الدرر المكنونة، في النسبة الشريفة المصونة". و "الزجر والإقماع، في تحريم آلة اللهو والسماع". و"نصيحة ذوي الهمم الأكياس، فيما يتعلق بخلطة الناس". و"نصيحة النذير العريان في التحذير من الغيبة والنميمة والبهتان". و"التسلية والسلوان لمن ابتلي بالإذاية والبهتان". وحاشية على الموطإ، انتخب جلها من شرح الشيخ سيدي محمد بن عبد الباقي الزرقاني عليها، إلى غير ذلك ".

"وولي، رحمه الله، مرة القضاء بمدينة مراكش، ثم أعفي منه. وكان يخطب في شهر في السنة، بجامع أبي الجنود، الذي بين فاس البالي، وفاس الجديد، حتى توفي ليلة الجمعة أول يوم من شهر ذي الحجة الحرام، آخر سنة اثنين وثلاثمائة وألف، وصُلّي عليه إثر صلاة الجمعة بجامع الأندلس، ودفن بهذا الخارج إزاء كرمة بأسفل قبتي سيدي يوسف الفاسي، وسيدي أحمد اليمني، قريبا من ضريح سيدي أحمد حبيب. وحضر جنازته خلق عظيم من أهل البلدين، وخليفة السلطان بفاس، مولاي إسماعيل ابن السلطان مولاي محمد العلوي، وكسر العامة أعواد نعشه تبركا، وبني عليه قوس صغير حسن البناء للتمييز". هـ

رجوع إلى وصف شيخنا ابن الأبار،
وما كان عليه من الأخلاق الجميلة، والمحبة لأهل الله

وكان شيخنا المترجم، كثيرَ التعظيم لأهل الله، عظيم الشفقة بهم، متحليا بذكر مناقبهم وأحوالهم، جميل الاعتقاد فيهم، مسلماً لهم في كراماتهم، لائذاً بمقاماتهم، بحيث كان يفوق غيره في ذلك.

ولقد سبق له في صغره، اتصال كبير بفقراء الزاوية الحراقية، بهذا الثغر التطواني، إذ كان والده يقوم بمهمة التقديم على فقرائها، فكان كثيراً ما يصاحب الفقراء في توجهاتهم إلى قرية بني سالم، من القبيلة الحوزية، حيث زاوية الشيخ الخلنجي، التلميذ الخاص للعارف الحراق، ووارث سره، والملقن لأوراده بعده.

ولهذا اكتسب، رحمه الله، من آداب الفقراء وأخلاقهم شيئاً كثيراً، إذ كان متواضعاً في أحواله كلها، متنزلاً لسائر الناس، لا يرتفع على العامة، ولا يتنافس فيما يتنافس فيه الخاصة، يلبس لباس متوسط الناس، ويمشي في الأسواق كمطلق العامة، يباشر أموره بيده، ويسعى بنفسه في قضاء مصالح من يهمه أمره، من أقربائه وأهل وده.

ولقد كانت لي في بعض الأيام دار معدة للكراء، وقد انتقل مكتريها منها، وبقيت فارغة، ولم يات أحد لكرائها، وهو يعلم ذلك لمزيد اتصالي به، فجئت يوما إلى دار سكناي، فأخبرني أهل الدار بأن رجلا جاء يطلب مفتاح الدار الفارغة، فمكنوه منه. وأنا غير مطلع على ذلك، ولم أدر من أخذ المفتاح. ولما اجتمعت بشيخنا المذكور، أخبرني بأنه ذهب للدار، وأخذ مفتاح الدار الفارغة وأكراها. فتأثرت من ذلك، واستحييت منه، وصرت أطلب منه المسامحة، وأرفع قدره عن هذا. فقال لي ما معناه؛ اسكت، هذا ليس بشغلك.

ولقد قال لي يوماً: لقد صحبت الفقراء وأهل الله كثيراً، فما نلت منهم إلا استصغار نفسي، وسقوط منزلتها عندي.

ولقد كنت يوما معه، قبل وفاته بمدة يسيرة، وهو يذكر لي حال الأفاضل والأخيار الذين اجتمع بهم بفاس؛ كسيدي الهادي الصقلي، وسيدي محمد الغياثي، وما كان يجري له معهم من المذاكرات والرقائق، ونوادر المعارف والحقائق، ويتشوف لذلك، ويتأسف على قصوره،

ويقول ما معناه؛ أين نحن من هؤلاء. ثم أجهش بالبكاء، فصرت أبكي معه. وأظن أن هذه آخر مذاكرة كانت معه في هذا الباب.

وبالجملة، فإن شيخنا ابن الأبار، كان جميل الأخلاق، أليف التواضع، حليف الإغضاء والمسامحة، سليم الصدر، لا يعادي من عاداه، ولا يناوئ من ناوءه، حسن الظن بالناس، تاركاً للتنقيب عن المساوئ، متقبلاً للأعذار، قاضياً للحوائج، واسطة خير وإصلاح بين المتخاصمين، حتى إن قاضي الوقت إذ ذاك؛ العلامة سيدي التهامي أفيلال، كان كثيراً ما ينتدبه لحل مشكلات القضايا التي يتفاقم أمرها، وتشعبت طرقها، فلم يلبث عشية أوضحاها، حتى يصير بفضل حكمته، ليلها نهارها، ويضيء بنور سياسته ظلامها، ويوطئ للمتنازعين سبيل الوفاق، يقبلها الكل ويرضاها. ولهذا كان يسميه القاضي المذكور؛ مفتاح المغلقات، أونحو ذلك. وذلك كله لحسن نيته، وسلامة سريرته.

أما حبه لأهل الطريق، واغتباطه بمقامات من يُشار إليه بالولاية والتحقيق، فإنه بلغ في ذلك الرتبة العليا، لسانه دائما لهج بذكرهم، متحلٍّ بأحوالهم وسيرهم، يعترف بالفضل لأهل الخصوصية منهم، ويُسلّم ما يصله من كراماتهم، ويُصدِّق سلوكهم وطريقتهم، مندمج بذلك في زمرة أهل التصديق بهذه الطريق، وذلك عندهم من أكبر الولايات، والمتصف به يقصد لإجابة الدعوات.

قال أبو يزيد البسطامي: إذا رأيتم من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة، ويسلم لهم ما يتحققون به، فقولوا له يدعو لكم، فإنه مجاب الدعوة. قال صاحب "الفتوحات": وكيف لا يكون مجاب الدعوة، والمسلم في بحبوحة الحضرة، ولكن لا يعرف أنه فيها، لجهله بها.هـ

وقال العارف القطب السيد العيدروس: عليك بحسن الظن بالصالحين، وبحب محبيهم، فهو من أعلى المراتب، وأجلّ المذاهب، ولصاحبه سابقة وعناية، وتخصص وهداية، وسوء الظن مذموم مطلقا هـ.

بل قال في "الإحياء"، عن بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم، أي علم الباطن، أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه؛ التصديق به، وتسليمه لأهله.هـ

تعلق أهل العصر بالمادة، وإعراضهم
عن المعاني الروحية

ويُصدِّقُ هذا المقال ويحققه، أنه بسبب سوء ظن أهل هذا العصر، وتعلقهم بالماديات وما يشاهد بالحس، وبسبب إنكارهم لكل ما خرج عن المادة، من المعاني والأحوال الغائبة عنهم؛ ضلت أفكارهم، وأظلمت عقولهم، وعميت قلوبهم التي تحملها صدورهم، واستحوذ عليهم الشيطان، فأوقعهم في النميمة في أهل الله المنقطعين إلى عبادته من أهل الباطن.

ثم انتقلوا إلى أهل الظاهر من حملة الشريعة والدين، السالكين مسلك الهادين المهتدين، ثم شرعوا يهدمون بمعاول ضلالهم قواعد الديانة، وحاولوا بأباطيلهم هدم أركانها، فصاروا يستحلون المحرمات، ولا يقولون بالمنهيات، واندمجوا في دائرة الإباحيات بهذه الضلالات، وأصروا واستكبروا عن قبول تعاليم النبوات، المبينة في الآيات البينات، وحاربوا أهل الإيمان والتوحيد، بمقالاتهم الباطلات، وادعوا أنهم من أهل التجديد، بل اعترفوا أنهم من أنصار التغيير لشريعة الله والتبديل، وأعلنوا بما لم يعلن به أهل التوراة والإنجيل.

كل هذا سببه عماية بصائرهم عن استكشاف نور اليقين، وقصور أفهامهم عن إدراك الحق المبين، وصدودهم عن التصديق بالغيب واتباع سبيل المسلمين. وقد كان ابتداء أمر هذه الفئة الضالة المضلة بالمشرق، ثم تسربت عقاربها إلى مغربنا، الذي كان سالماً من هذا الداء الوبيل، وابتدأت دعاتها بالاستظهار بإنكار البدع والمحدثات، وإرجاع الناس بزعمهم إلى عقيدة السلف، وإصلاح ما أدخل في الدين الإسلامي مما ليس منه؛ ليتوصلوا بذلك إلى تغيير عقائد العامة، واستخفافهم بأئمتهم وعلماء دينهم، ورفع الثقة بهم، واستدراجهم بتلك التلفيقات الباطلة. ومثل هؤلاء هُم أشد خطراً على الأمة من الكافر الصريح، لأن الكافر،كما قال العارف ابن عباد:

"والكافر إذا دعا المؤمن إلى الكفر جهاراً، لم يقبل منه، ولم يستجب له. فإذا تلطف في ذلك، واحتال عليه بالتلبيس بأمور تناسب حال المؤمن، يستدرجه بذلك استدراجاً خفياً، ويسترقه استراقاً لا يشعر به، فحينئذ يحصل على مراده أجمع. وفي حديث الفتن والتعريف بأهلها، حيث قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم فيهم: "دُعاةٌ على أبْوابِ جهنَّم مَن أجابهُم

قذفوه فيها". وما أجاب به حذيفة، رضي الله عنه، حين سأله عن صفتهم، فقال صلى الله عليه وسلم: " هُم قومٌ مِن جِلْدَتنا، يتكلّمون بألسِنتنا ". إشارة إلى المناسبة والمقاربة التي ذكرناها، والله أعلم. وإبليس لم يقدر على إغواء ذلك العابد من بني إسرائيل، حتى بنى مسجداً قبالة مسجده، وزاد عليه في اجتهاده وتعبده، وحينئذ تمكن منه، والضلال قد يحصل بعين ما به تقع الهداية." [الرسائل الكبرى29].

وقد تفطن لهذه الطريق، دهاة القساوسة والرهبان من المبشرين، الساعين في تنصير المسلمين. فبعد أن كانوا يدعون إلى النصرانية وجهاً لوجه، وأفادتهم التجربة عدم تمام نجاح هذه الطريقة، فظهروا بتبديل هذه الأساليب؛ بأسلوب المخادعة وإظهار الود والتقارب، وأوصوا بذلك في اجتماع مؤتمراتهم، بل رأوا أن أنجح الطرق أن يكون التنصير بواسطة أهل الاسلام، فقد قال القسيس "زويمر"، أحد رؤساء المبشرين، وأكبر عدو للإسلام، فيما نشره من كتبه:

" يجب إقناع المسلمين ان النصارى ليسوا أعداءاً لهم". ثم قال: " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها ". [الغارة على العالم الإسلامي لناشره محب الدين الخطيب ص46].

وعليه، بنوا تقرير تعليم المتنصرة من المسلمين، ليتمكن هؤلاء من تنصير غيرهم بسهولة.

وعلى هذا الأسلوب، جرت الحكومات في احتلالها الأقطار الإسلامية، حيث صار أهلها يدافعون عن بلادهم بكل ما في وسعهم من قوة ودفاع، واستماتتهم في سبيل تخليص أوطانهم من يد العدو المهاجم.وشاهدت تلك الحكومات من الأهالي ما استعظموه من الفتك بعساكرهم، وردهم على أعقابهم، بل والهجوم على معسكراتهم ومراكزهم وحصونهم وتحميلهم خسائر في العدد والعدة ؛ رأوا من المنتج تجنيد العساكر من الأهالي، وتسليطهم على إخوانهم، لأنهم أعرف بأحوالهم، وأقدر على إخضاعهم وغزوهم في عقر ديارهم، فحصلت النتيجة، ووقع الظفر، وتمّ الاحتلال، وربح العدو المعركة من جهتين، أولا: من جهة الإبقاء على أبنائه والمحافظة على حياتهم. وثانيا: بتأسيس العداوة والبغضاء بين أبناء

الوطن، وقتل هذا بهذا. ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومع هذا كله، فنحن غافلون، وبسماع لهو الحديث والأغنية مشتغلون.

اغتباط شيخنا ابن الأبار بالشيخ محمد المخلوفي الغياتي
[ذكر جملة من أوصافه وطريقته في التصوف]

ولنرجع إلى ما كنا أشرنا إليه، من محبة شيخنا ابن الأبار، للمنتمين للحضرة الإلهية، واغتباطه بهم وبمجالسهم. وقد كنا ذكرنا من أعيان ذلك؛ الشيخ المشار إليه بالخير والفضيلة؛ أبو عبد الله، سيدي محمد أحمد المخلوفي الورديغي الإدريسي المدعو الغياتي، نزيل فاس.

كان شيخاً جليلاً مجتهداً في الذكر والعبادة، متبركاً به، عارفاً بخواص الأسماء، وكان مقصوداً في الكتابة لإخراج الجان، فيظهر أثر بركته، إلا أنه كان لا يكتب، وخصوصاً للأغنياء ، إلاَّ بعد أن يدفعوا له مالا له بال، ولما سئل عن ذلك قال: إن أعز ما عندهم هو المال، وهم لا يجودون به، ونحن أعز ما عندنا هو ما أنعم الله علينا به من العلم، فنحن لا نجود عليهم به عفواً إلا إذا أجادوا بأعز ما عندهم. فلو لم يتوقفوا علينا، ما دفعوا لنا شيئاً مما عندهم.

قلت: وتذكرت هنا ما كان يقوله شيخنا الرهوني، إذ كان يأتي إليه أحد الأغنياء يطلب منه إفتاء في مخاصمة، فلا يكتب له الفتوى إلا بعد الاتفاق معه على قدر من المال له بال. فإذا قيل له في ذلك؛ يقول: هؤلاء القوم لا يأتون إلينا إلا عند الضرورة، فإذا قضينا لهم أغراضهم، أعرضوا عنا ولا يبالون بشأننا. أو كلاما هذا معناه.

أما من جهة الحكم الشرعي في المسألة، ففيه تفصيل، سيُذكر في غير هذا المحل.

وطريقة الشيخ الغياتي في التصوف، كانت كنتية. وكان له أتباع في الطريق. ولكنه لم يتخذ لذلك زاوية، وإنما كان جلوسه بجامع القرويين دائماً مستقبل القبلة، وكانت له دار بجواره لا ينام معه فيها أحد، إذ كان عزباً لم يتزوج قط. وكان حسن السيرة، جميل الهيأة، رفيع الثياب، ربعة ممتلئ البنية، أبيض الوجه، منوره، مشوباً بالحمرة، كاثره الشيب، مهاباً

موقراً، شهير الذكر، عظيم الجاه، جلي الجلالة، رفيع الهمة، أبيّ النفس. طلب السلطان مولاي الحسن ملاقاته، فامتنع، وناهيك بذلك.

الشيخ الكنتي، ونسبته وصلاحه وتلاميذه
وما قيل فيه من الشعر

قلت: والطريق الكنتية، التي كان ينتسب إليها الشيخ الغياتي، هي منسوبة للشيخ سيدي المختار الكنتي. وكان هذا الشيخ من أفراد عصره علماً وصلاحاً. والكنتي، نسبة إلى كنتة، قبيلة من شنكيط، في أرض الصحراء.

واختلف في نسبه، فبعضهم يجعله من عقب عقبة بن نافع الفهري، فاتح المغرب الأقصى، وبعضهم يزعم أنه أموي، ينتسب إلى بني أمية، محتجاً بأن الاتفاق عندهم أن قبيلة كنتة هي من بني أمية، وعلى كل حال، فهو قرشي على كلا القولين.

وكان هذا الشيخ مشهوداً له بالصلاح والولاية من أهل عصره ومن بعدهم، إلى عصرنا هذا، وتؤثر عنه كرامات عديدة، رجع بسبب ظهورها على يده جماعة من العلماء المعاصرين المنتقدين عليه، منهم العلامة الجكني، ناظم تسهيل ابن مالك، إلى ما أتاه الله من شهرة الذكر، وسعة المال والجاه، كما اعترف له بذلك خصومه من أكابر علماء عصره، كالعلامة الجكني السابق، إذ خاطبه بأبيات يقول له فيها:

أسيدَنا المختارَ لا تكُ مفرطا وإياك والتفريطَ واعدل وأقسطا
فكونك ذا مالٍ وجاهٍ ورتبةٍ علت في قلوب الناس لم ترفع الخطا
وكونّي لم أذكر كذكركَ لم يكن ليمنعني التوفيق من مانح العَطا
أتسلبني والله ماشاء مثبت إذا أنت في تعظيم نفسك مفرطا

وسبب خطابه بهذه الأبيات، لما بلغه أن الشيخ الكنتي كان يقول، إنه سيسلبه من علمه، إذ كان العلامة الجكني يشدد النكير على الشيخ الكنتي. ولكن لما تبدت للجكني من الشيخ آيات الصلاح والولاية، رجع عن ذلك النكير، وصلح الحال بينه وبين الشيخ، وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات، واتفقا على الاجتماع والملاقاة، ولكن لم يقدر لهما ذلك.

وللشيخ، رحمه الله، مؤلفات؛ منها تأليف في أسرار الفاتحة، وآخر في السيرة النبوية، وله غير ذلك. وله أشعار، منها قوله:

من فتنة عمت بظلمانهـــا أضحى بها العالم كالجاهل
وضلّ فيها المرء عن رشده زيغا عن الحق إلى الباطل
فاجعل لنا يا ربنا مخرجـــا من هولها المقتحم الهائل

وللشيخ تلاميذ أعلام، كانوا شموساً مشرقة في أفق شنقيط، وبحورا مديدة؛ كل بحر منها بفنون المعارف محيط، كالشيخ سيدي ابن المختار، علامتها وأديبها البارع. وكان لما تضلع في العلوم، شدّ الرحلة إلى الشيخ الكنتي، مسيرة شهر، ولازمه نحو ستة أشهر، وله فيه قصائد وأمداح.

وكان هذا التلميذ، ممن تسابق في ميدان البراعة، فأحرز قصب الإبداع، ورمى بنبل الإجادة فأصاب غرض الاختراع، إذ كان من جملة ما أنشأه في الشيخ من القصائد، قصيدة يستخرج منها ثلاث قصائد، لكل منها بحر، أعني أنها كلها في بحر الكامل، ثم تقرأ أشطارها الأول، فتكون قافية من بحر المديد، ثم تستخرج من أوائل أشطارها الثواني قافية من بحر البسيط. مطلع هذه القصيدة:

طلعت ببرجك للبرية أسْعَدُ أيَّامَ جادَ بكَ الزمَانُ الأجْوَدُ

قلت؛ وهذا النسق، يدل على تمكن صاحبه من التفوق في المحسنات البديعية وهو حسن، ولكنه لا يخلو من تكلف. وأظن أن أول من سبق لهذا النوع؛ الحريري، صاحب "المقامات"، إذ أتى بقصيدة من بحر الكامل، رويها الراء، ويتولد عن هذه القصيدة قصيدة من مجزونه، ورويها الدال، وهي:

يا خاطبَ الدنيا الدنيئـــةِ إنهـا شركُ الرَّدى، وقرارة الأكدار
دارٌ متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا. سُحقاً لها من دار

فيتولد منها:

يا خاطبَ الدنيا الدنيـةِ إنـها شـركُ الـــرَّدى
دارٌ متى مـا أضحكت في يومهـا أبكت غـــدا

وعلى هذه القصيدة بنى هذه المقامة التي سماها " المقامة الشعرية "، وهي المقامة الثالثة والعشرون، وضمنها أن أبا زيد السروجي ربى غلاما وعلمه الأدب، فلما مهر، عمد إلى شعره فانتحله واسترقه، ورفع الشيخ الغلام إلى الوالي[ ] ذلك حكم السرقات الشعرية وأنواعها عند أهل الأدب.

ولكن نسق الحريري، هو اختراع لطيف، وسهل خفيف، بالنسبة لما أبدعه المتأخرون بعده من أهل البلاغة، والتصرف بالبراعة، كالوزير أبي يحيى ابن عاصم الأندلسي، إذ تفنن في الموضوع، وجاء في ذلك بالشعر المرونق المطبوع، فنظم قصيدة في سلطان الأندلس، أبي الحجاج يوسف ابن نصر، تنفك عنها قصيدتان، وكل واحدة من هاتين تلد موشحة، قال في "أزهار الرياض":

ومن أغرب ما صدر عنه - يعني من أبي يحيى - قصيدة تنفك منها قصيدتان أخريان بديعتان، إحداهما من المكتوب الأحمر، والأخرى من المكتوب الأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة هـ.[ص 146].

أما القصيدة الأصلية فمطلعها:

أما والهوى(ما كنت) مذ بان عهده ... أهيم بلقيا من(تناثر) وُدُّهُ

رعى الله من (لو أنصف)الصبَّ في الهو ... لما فاض منه (الدمُ) مذ بانَ صَدُّهُ

ولو جاد من بعد (المِطال) بزورةٍ ... لما شبَّ أشواقي، وقلبي زَنْدُهُ

كما خان صبري يوم أصبح و(أصلى ... لظى) زاد ماءٌ (من جفوني) وَقَدْهُ

لذاك أسَال الدمع (كالدُّرِّ) مدمعي ... منَ (الوجدِ) فاستولى على الجفن سَهْدُهُ

حكى لؤلؤاً من (سلكه) متناثراً ... و(الأليمُ) قد تتابع مَدُّهُ

ذخَرتُ(الثمينَ) القدر منه بمقلتي ... وما زلت من خوف(النَّكال) أعُدُّهُ

وهي قصيدة طويلة، تزيد على مائة بيت. وكان هذا الناظم المتفنن، ميز الألفاظ والكلمات التي تتولد منها البنتان بلون، فلإحداهما اللون الأحمر، وللأخرى اللون الأخضر، وهاهي القصيدة الخضراء، وتوشيحها الأخضر:

(تناثر الدمع) من جفوني ... كالدر من سلكه الثمين

(مذ أعوز الوصل) والتلاقي ... (من بدر) حُسنٍ بلا قرين

(علقت في الحب) ظبيَ إنسٍ (جماله) مرتعُ العيون

وصار على هذا النحو، إلى سبعة عشر بيتا، ومن هذه البنت الخضراء، تولد التوشيح ابنها، وهو:

تناثر الدمع كالدر مذ أعوز الوصل من بدر

علقت في الحب جمالهُ

وحل في القلب فمالهُ

إلى أن أكمل التوشيح. وأما البنت التي تولدت من المكتوب بالأحمر، وهي الحمراء، فهي:

(ما كنت) لو أنصف بعد المطال (أصلى لظى الوجد الأليم) النكال

(كالقمر الزاهي) في نـــوره (عليــه كالليل البهيج) الــدلال

(مستحسن القد) ذكيُّ الشــذا (كالليل فرعا والقنا) في اعتدال

وهي تقع في نحو سبعة عشر بيتا. أما التوشيح ابنتها فهو:

ما كنت لو أنصف أصلى لظى الوجد الأليم

كالقمر الــزاهي عليه كالليل البهيـــم

الخ... وهذا تفنن عجيب، وتصرف في مناحي البلاغة غريب، ينبئ على تمكن صاحبه من التلاعب بأطراف الكلام، وتوصله بقلمه إلى كل ما يقصده من المرامي والمرام، وأنه ارتاض له البيان فانقاد في عنانه، واستعبد التعبير فصار طوع لسانه وبنانه.

قال العلامة المقري، إثره:

"وعلى كل حال، فقد أبدع هذا الرئيس في هذه القصيدة، وإن كان فيها بعض تكلف، وقصده أبدع من قصد صاحب "عنوان الشرف الوافي"، لأن هذا أخرج من الخارج شينين، على ما لا يخفى. غير أن صاحب "عنوان الشرف " أطال واستخرج أربعة علوم متباينة من أول وهلة، وكلاهما قد أبدع. رحمهما الله، ولم أتحقق هل وقف ابن عاصم على كتاب "عنوان الشرف"؛ فاهتدى بأضوائه أم لا." هـ[أزهار الرياض158].

قلت: أما هذا الكتاب المؤلف بهذا النسق فاسمه: "عنوان الشرف الوافي، في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي"، وصاحبه هو شرف الدين ابن المقري إسماعيل بن أبي بكر اليمني، المتوفى سنة 837.

قلت: وقد كنت وقفت قديماً على هذا الكتاب، وهو جزء متوسط، وأظن أنه طبع بالقاهرة، ولم يسعني إذ ذاك الوقت، في تتبع منحاه، حتى أسبر غوره، وأتنسم نسيمه، وأشم نَوْرَهْ.

الرجوع لإتمام ترجمة الشيخ الكنتي

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ترجمة الشيخ الكنتي؛ مع مزيد الإعجاب بعالم شنقيط الذي[ضاهى] نوابغ الشعراء، وشارك بقصيدة غراء، في ديوان رؤساء الأدباء، مع تأخر عصره، وتقلص ظل اللغة والأدب في عصره، ولكن العلوم كلها مواهب إلهية، ومنح ربانية، فقد يدخر للمتأخر، ما يعزب علمه عن المتقدم، كما قال القائل:

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لا تستطعه الأوائل

وللشيخ الكنتي، مؤلفات، منها: تآليف في أسرار الفاتحة، وكتاب في السيرة النبوية، على ما بلغنا.

وقد كان جاء بعض أحفاد الشيخ، رحمه الله، إلى تطوان، في حياة الولي سيدي عبد السلام ابن ريسون، وزاروه، وذلك أواخر القرن الثالث عشر الهجري، فسألهم عن نسبهم، فاستحيوا من ذكر نسبتهم إلى بني أمية، للنفرة التي بين بني هاشم وبني أمية. فلاطفهم الشيخ سيدي عبد السلام، رضي الله عنه، حتى أزال ما حصل لهم من الاستحياء، واعترفوا بنسبهم الأموي. رحم الله الجميع.

وتوفي الشيخ سيدي المختار، سنة ست وعشرين ومائتين وألف (1226)، ودفن بمدينة تنبكتو، من السودان. كذا أخبرني بعض الأفاضل.

أما الشيخ سيدي محمد الغياتي، فإنه توفي بفاس، عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف (131)، ودفن بروضة الشاميين، خارج باب الفتوح، وبنيت عليه قبة بثمن داره التي خلفها، بعد استئذان السلطان المولى عبد العزيز، حيث لم يكن له وارث إلا بيت المال. رحمه الله، ونفعنا به وبأمثاله.

مكاتبة بين شيخين من شيوخ الفقيه ابن الأبار
وهما: أفيلال، والصقلي

قلت؛ وعند كتابة هذه الأسطر، قيّض الله لنا الاطلاع على مكاتبة، وقعت بين شيخين من شيوخ شيخنا، اللذين كانا بهجة خاطره، وقرة ناظره، وهما الشريفان الجليلان، العالمان الأديبان: مولاي الهادي الصقلي، الذي تقدمت ترجمته، وسيدي المفضل أفيلال، الذي توفي سنة 1304؛ تعين علينا إثباتها هنا لمزيد المناسبة.

وكان الفاتح بالكتابة، هو الشريف أفيلال، ولفظ كتابه:

{من المحب المخلص المشتاق، إلى الحِبِّ الذي وقع على محبته الاتفاق، وطلعة شمس مجده في غاية الإشراق، وصار له في ميدان الكمال حسن الِائّساق، من أضحى الأدب بفضله ينادي، ويلهج بشكره في كل نادي، والمعاني لفكرته تخضع وتهادي، الشريف مولاي الهادي.

أدام الله بهجتك، وحرس مهجتك، وسلام طيب كأخلاقك، وتحية فائحة كإكرامك.

هذا والراقم هذه الصحيفة المنوهة بأوصافكم الطيعة، يُنهي لحضرتكم الشريفة أنه وصل لحضرته في أمن وأمان، من خطوب الزمان، بيد [أنّ] ما عنده من الأشواق الخارجة عن الأطواق، التي لا تسعها الأوراق، وكيف يمكن التعبير عن التعظيم والتكبير، إلا بالتفويض والخروج عن التدبير، والعجز عن الإدراك إدراك، فلو اطلعت على ما في المهجة، لم تحتج في تصديق اللهجة، إلى إيضاح الحجة، وانظر الأنيس المطرب، تشرق عليك شمس الأشواق من المغرب، وتنشرح لك الحال بلسان معرب، فلله تلك الأيام التي جمعتنا بطلعتكم العليا، ومتعتنا برؤية ذلك المحيا. ما كان أعذبها وأحلاها، وأطيبها وأهناها! مرت فلم يبق لنا شيء سوى أن نتمناها، وإن كان التَرَجِّي، مما لا يُنَجِّي، ففيه راحة للنفوس، فكأني الآن أتعاطى معكم الكؤوس؛

في المنى راحة وإن عللتنا في هواها ببعض ما لا يكون

والمرجو من تلك السيادة، المتوجة بالحسنى والزيادة، ألا تنسانا من صالح دعائكم، وخصوصا في زاوية جدكم، حالة هزلكم وجدكم. وأن تبلغ عنا أزكى التحية، لمن تنزه عن كل

دنية، الشريف الظريف، النسابة العفيف، من تكسرت دون قبضته رماحي، ابن عمكم مولاي الماحي، وتحفة الزمان، أخيه سيدي عثمان، وذي الخلق الحسن، نجل عمكم سيدي الحسن، ولذي القدر العلي، تلميذكم سيدي علي، ولمن حاز البها وَحْدُو، سيدي محمد بن حَدُّو، ولجميع من سأل عن الغريب، من بعيد وقريب، ونحن على المحبة التي علمتم صفاء مشربها، ووفاء مذهبها. والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمة، ويقضي عن الأحبة دين المحبة، فيوفي كل غريم غريمه. وفي20 من ربيع الثاني عام 1271}.

ونص الجواب:

{من الحبيب الصديق، إلى المحب الذي بحبه خليق، شمس الفطنة الوقادة، وبدر الذكاء المتنقل في منازل السعادة، من برق المعاني عن سناه تبسم، وزهر المعالي عن شذاه تنسم، من لبَّتْ إليه الحسانُ عنانها، وألزمت بكتب البيعة له بنانها، فرقد الفصاحة والبراعة، ومؤسس قواعد البلاغة، والفضائل الوافرة، والمحاسن التي لم تزل الناس على كثرتها متظافرة، النقاد النحرير، الشهيرة دروسه بالتحقيق والتعبير، المقري في جميع العلوم، ومباحث المنثور والمنظوم، من أضحى الأدب بلهيب فكرته محترق، الذي عجز عن معارضته أبو الشمقمق، الفقيه المبجل الشريف سيدي المفضل، سلام الله على سيدنا آلافاً، ورحمته وبركاته أضعافا. وبعد؛ أيها المحب السعيد، والحبر المجيد، فقد وصلنا كتابك ومباني المعاني منه تلوح، والمسك والعنبر منه يفوح، وكان لدينا بمنزلة ذاتك، وحمدنا الله على عافيتك، ويعلم الله وهو المطلع أني لرؤيتكم في غاية الاشتياق، ومن أجل محبتكم [ ] القلب في احتراق، وعلمنا منه[ ] ببال، وقد بلغنا بذلك القصد والآمال، ولله در من قال:

فإن يك جثماني بأرض سواكم فإن فؤادي عندك الدهرَ أجمعُ

هذا، والمرجو من سيدنا أن نكون دائما ببالكم، وأن تكثر من صالح أدعياتكم، ويعود سلامنا على كل من يسأل عنا من حبيب صادق، لا من خادع منافق. ويسلمون عليك جميع الشرفاء، ذوي المروءة والوفاء. وها نحن مقيمون على محبتك، ولازلنا نتعاهد عهدك. وما وعدت من إرسال "الشمقمقية"، فنحب أن تفي بوعدك. وفي12 جمادى الأولى عام 1271. عبد الهادي بن أحمد الصقلي. جعله الله بكل فضيلة متحلي، وعن كل رذيلة متخلي.}

انتقاد بعضهم لقول الشيخ أفيلال في قصيدته "يا دهر"، وما أجاب به الشيخ، وما كتبناه في ذلك

وكنت وجدت بظهر نسخة هذه المكاتبة، وهو مما يتعلق بخصوص سيدي المفضل أفيلال فقط، ما لفظه:

بلغني أن بعض الإخوان، من أعيان تطوان، لما وقف على قصيدتنا التي سمحت بها القريحة القرحاء، في التأسف على ما حلّ بنا من فراق الوطن وتشتيت الأهل، مفتتحا لها بخطاب الدهر، على ما هو شأن الشعراء، حسبما يُعلم ذلك بمطالعة دواوينهم، وكتب الأدب مشحونة به؛ أعجب بها، وأثنى عليها وعلى منشئها، غير أنه استشكل عليه توجه العتاب للدهر، مع قوله عليه السلام: "لا تسبُّوا الدّهر، فإن الله هو الدّهر". فطلب مني بعض الطلبة رفع هذا الإشكال، فأقول:

الدهر، هو الزمان، قال الشاعر:

إن دهراً يَلُمُّ شملي بِسُعدَى لزمانٌ يَلَمُّ بالإحسان

وأما الحديث، فلم أقف الآن على ما قاله المفسرون فيه، إذ كتبنا كلها ذهبت في تطوان. والذي يظهر أن الخطاب لم يخرج مخرج الحقيقة، والأدب خلاف ذلك، وتدبر قوله تعالى:(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ) إلى قوله: (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ). ويؤيد هذا ما نقله جلال الدين الصفدي، في شرح قول الطغرائي:

والدهر يعكس آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكد بالقفل

فإنه ذكر الحديث، وقال عقبه، بأنهم كانوا يضيفون النوازل إليه، فقيل لهم: لا تسبوا فاعل ذلك بكم، فإن ذلك الفاعل هو الله. هـ. ثم قال: ومعنى البيت؛ الدهر يعكس ما أؤمله وأرجوه من البسطة والرفعة، حتى أقنع من الغنيمة بالرجوع بعد التعب والمشقة. وهذا المثل يُضرب لمن أخفق مسعاه، وطال سفره، وتمنى العود إلى بلده. ثم قال: الدهر يعكس المقاصد، ويراقب الخبيئة ويراصد، ويُكِنُّ المنايا في الأماني، ويُثني غصون الأمل ذاوية بعد أن كانت عذبة المجاني، خلقاً ألفه الناس من سجاياه، وطبعا رمي الخلق به من سهم خباياه. ثم أتى بأبيات في المعنى، منها قول أبي الطيب:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمنُ

ثم نقل عن الصفدي، أبياتاً أخر في هذا المعنى، ثم قال صاحب التقييد:

وبالجملة فكلام الأدباء في هذا المعنى لا يحصى. وجاء بأبيات أخر، وبفقرات من كلام "نفح الطيب".

وخلاصة ما هنا، أن الشيخ سيدي المفضل، لما أحيط بمدينة تطوان، واحتلها الجيش عام 1276 من الإسبان، وآل موجود حياة أهلها إلى الفقدان، وفرَّ كل من قدر بنفسه وبأهله، وتفرق مجموعهم في البلدان، وكان الشيخ ممن استوطن مدينة القصر الكبير، فأنشأ قصيدة يندب فيها عزيز وطنه المحبوب، ويتحسر ويتلهف على ما حل به، مما تتمزق له الأفئدة وتنفطر منه جوامد القلوب، مطلعها:

يا دهر قل لي علامهْ كسرت جمع السلامة

نصبتُهُ للدواهي ولم تخف من ملامة

خفضت قدر مقام للرفع كان علامة

مكنتَه لأعادٍ ليست تُساوي قُلامة

فالدين يبكي بدمع يحكيه صَوْبُ الغمامة

على مساجدَ أضحتْ تُباع فيها المُدامة

واستمر على ذلك إلى أن قال:

يا آل تطوانَ صبرًا فما لخطبٍ إدامة

دوام حالٍ محالّ وهل لظلٍّ إقامة

إن غاب نجمُ سعودٍ ولاحَ نجم شآمَة

فسوف يطلعُ بدرٌ يمحو سناه ظلامهْ

فاعتصموا برجاءٍ وارْعَوْا بصدقٍ ذمامهْ

وحسِّنوا الظن تنْجو دنيا ويومَ القيامة

وفوِّضوا الأمرَ لِلَّهِ يَكُفَّ عنَّا انتقامَتتهْ

ما فاز إلَّا ذكيٌّ قدم خيراً أمَامهْ

حيث أقامهُ يَرضَى ولو بقصْر كُتَّامَة

قلت: وهذا البيت[الأخير] جرح به قلوب أهل القصر، وهي دار ضيافته، وملجأ إيوائه وموطن إقامته، فكان من دواعي أدب الجوار، شكر المدينة وأهلها، حيث ألقى بها عصا التسيار، واطمأن بها من ترويع قوارع عداته الكفار، وكان الأليق ان يقول:

ما فاز إلا ذكـــيٌ قدَّم خـيراً أمَامـــهْ

يحمد ربَّـه لمَّـــا آواهُ قـصرُ كتامـــةْ

ملجأ إخـوانِ ديـنٍ لمن يرومُ اعـتِصامـهْ

يَقضِي بـه مُطْمَئِنًّا صَلاتَـهُ وصِيـامَـــهْ

إلى أن يأتي بتمام القصيدة. والعذر له في ذلك أنه لما نبا به المنزل، وأصبح عما يعتاده من رفاهية موطنه بمعزل، اضطربت أعصابه، لما أحاطت به أوصابه، ولاسيما ومدينة القصر إذ ذاك، لم تتوفر فيها أسباب الحضارة، لعلة عوائد الأعراب فيها، وقلة نظافة الأمكنة العامة، من الطرق والفنادق وأشباهها. وأظن أن الشيخ كان هناك غريباً، ليس له اتصال بأعيان سكانها، الذين كانت لهم منازل لا تقل رفاهية عن منازل تطوان.

ومع هذا، فالذي يليق بالغريب اللاجئ، الفارّ من القدر المفاجئ، أن يتمسك بحبل صبره، ويرضى بما ساقه إليه القدر من حلوه ومرّه، حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، وينشد كما أنشد في المقامة الكوفية، ذلك الضيف الطارئ، الذي اقتنع في سفره بالعافية:

يَا أهْلَ ذا المَغْنَى وُقِيتُمْ شَـرًّا وَلاَ لقِيتُمْ مَا بَقِيتُمْ ضُـــرًّا

قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الذِي اكْفَهَـرَّا إلىَ ذَرَاكُمْ شَعِثًا مُغْبَـــرًّا

أخَا سِفَارٍ طَالَ وَاسبَطَـرَّا حَتَّى انْثَنَى مُحْقَوْقِفًا مُصْفَرًّا

مِثْلَ هِلاَلِ الأُفُقِ حِينَ افْتَرَّا وَقَدْ عَرَا فِنَاءَكُمْ مُعْتَـرَّا

وَأَمَّكُمْ دُونَ الأنَـامِ طُـرًّا يَبغِي قِرًى مِنكُمْ وَمُستَقَرًّا

فَدُونَكُمْ ضَيفًا قَنُوعًا حُـرًّا يَرضَى بِمَا احْلَوْلَى وَمَا أمَرَّا

وَيَنْـثَنِي عَنـكُمْ يَنُثُّ البِرَّا

[الرجوع للكلام على "الدهر"، وما كتبه المؤلف في ذلك]

ولنرجع إلى صدر قصيدة الشيخ، ومطلعها وهو قوله (يا دهر قل لي علامة) الخ. إذ هو محط البحث، فنقول:

إن حاصل الانتقاد الذي أجاب عنه الشيخ، هو أن النبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن سب الدهر، وأن من سب الدهر فكأنه سب الله. فكيف يليق بالشيخ أن يرتكب هذا المنهى عنه، وهو أحد علماء الإسلام. وحاصل ما أجاب به الشيخ، أن خطاب الدهر بمثل هذا الخطاب، هو شأن الشعراء والأدباء، ثم ساق كلام الصفدي على الحديث.

وهذا كله لا يدفع الإيراد، ولا يزيل الإشكال، لأن المنتقد يطلب بيان الحكم الشرعي في ذلك، ووجه ارتكاب هذا المنهيّ عنه.

ونحن هنا سننوب عن الشيخ في إيضاح الجواب، وبسط ما يقر عين الطالب، فنقول: المقام هنا يستدعي مباحث:

الأول: في ما قاله أهل اللغة في تفسير الدهر.

الثاني: في الحديث الوارد في ذلك وروايته.

الثالث: في تفسير الحديث وسبب وروده.

الرابع: هل يعد الدهر من أسماء الله الحسنى؟.

الخامس: في الحكم الشرعي في مخاطبة الدهر بما يفيد التبرم والسب:

المبحث الأول؛ في اللغة

قال في "المصباح": الدهر يطلق على الأبد، وقيل هو الزمان، قلَّ أو كثر. قال الأزهري: والدهر عند العرب يطلق على الزمان، وعلى الفصل من فصول السنة وأقلّ من ذلك، ويقع على مدة الدنيا كلها. قال: وسمعت غير واحد من العرب يقول: أقمنا على ماء كذا دهراً، وهذا المرعى يكفينا دهراً، ويحملنا دهراً. قال: لكن لا يقال للدهر أربعة أزمنة، ولا أربعة فصول، لأن إطلاقه على الزمن القليل، مجازٌ واتساع، فلا يُخالف به المسموع هـ.

وفي القاموس: والدهر الزمان، والزمان الطويل، والأمد المحدود، وألف سنة. هـ. وفي "مفردات الراغب":

"الدهر في الأصل اسم لمدة العالم، من مبدإ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله تعالى: (هَل أتَى عَلَى الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ)، ثم يُعبَّر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة. ودهر فلان مدة حياته، واستعير للعادة الباقية مدَّة الحياة، فقيل ما دهْري بكذا، ويقال دهَر فلانا نائبة دهراً، أي نزلت به، حكاه الخليل. فالدهر هاهنا مصدر، وقيل دهْدَرهُ دهْدَرةً، ودهْرُ دَاهِرُ ودهِير". هـ[مفردات الراغب21].

المبحث الثاني؛ في الحديث وتخريجه

أخرج الإمام البخاري، في التفسير، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر. وأنا الدهر، بيدي الأمر؛ أقلب الليل والنهار".

ومن صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يقول: يا خيبة الدهر. فلم يقول أحدكم: يا خيبة الدهر. فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما".

وفيه، عن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم:" لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر".

وأخرج ابن جرير والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم: " يقول الله عز وجل؛ استقرضت عبدي فلم يقرضني، وشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول وا دهراه، وأنا الدهر".

المبحث الثالث

في سبب ورود الحديث، وتفسيره

أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان أهل الجاهلية يقولون؛ إنما يهلكنا الليل والنهار. فقال الله في كتابه: (وَقَالُوا مَا

هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهلِكُنا إلاَّ الدَّهْر). وقال الله: "يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار".

ومعنى الحديث، كما قال الخطابي: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر. فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها. وإنما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور، وكانت عادتهم إذا أصابهم مكروه، أضافوه إلى الدهر، فقالوا بؤسا للدهر، وتبا للدهر. هـ. بنقل ابن حجر.

وقال الحافظ ابن كثير: " قال الشافعي، وأبو عبيدة، وغيرهما من الأئمة، في تفسير قوله، صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر": كانت العرب في جاهليتها، إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة. فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم " هـ[التفسير4-151].

وفي "مفردات الراغب":

وقوله عليه السلام: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر". قد قيل معناه أن الله فاعل ما يضاف إلى الدهر من الخير والشر والمسرة والمساءة. فإذا سببتم الذي تعتقدون أنه فاعل ذلك، فقد سببتموه، تعالى عن ذلك. وقال بعضهم: الدهر الثاني في الخبر غير الدهر الأول، وإنما هو مصدر بمعنى الفاعل، ومعناه أن الله هو الداهر، أي المصرِّف المدبر المُفيض لما يحدث، والأول أظهر هـ.[مفردات الراغب 2 /31 بهامش النهاية].

ومن "النهاية" لابن الأثير، في حديث: "لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله". وفي رواية: "فإن الله هوالدهر"، : كان شأن العرب أن تذم الدهر وتسبه عند النوازل والحوادث، ويقولون: أبادهم الدهر، وأصابتهم قوارع الدهر وحوادثه. ويكثرون ذكره بذلك في أشعارهم. وذكر الله عنهم في كتابه العزيز فقال: (وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا) الخ الآية. والدهر إسم للزمان الطويل، ومدة الحياة الدنيا، فنهاهم النبي، صلى الله عليه وسلم، عن ذم الدهر وسبِّه، أي لا تسبوا فاعل هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتموه وقع السبُّ على الله

تعالى، لأنه الفعال لما يريد، لا الدهر. فيكون تقدير الرواية الأولى؛ فإن جالب الحوادث ومنزلها هو الله لا غير، فوضع الدهر موضع جالب الحوادث، لاشتهار الدهر عندهم بذلك. وتقدير الرواية الثانية؛ فإن الله هو جالب للحوادث لا غيره الجالب، ردا لاعتقادهم أن جالبها الدهر.هـ.[النهاية لابن الأثير38/2].

المبحث الرابع

هل يعد الدهر من أسماء الله الحسنى؟ ومن قال ذلك؟

قد عدّ بعض العلماء، الدهر من أسماء الله الحسنى، مستدلا بهذا الحديث، ونسب الحافظ ابن كثير، القول به؛ لابن حزم الظاهري، ومن نحا نحوه من الظاهرية، وغلطهم في ذلك، فقال في تفسيره: وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية، في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث هـ.

ونسب عياض القول بذلك، لمن لا تحقيق عنده وجهّله، وجعله ذريعة إلى التضليل والإلحاد، فقال في "المشارق"، وفي شرح مسلم: وظن من لا تحقيق عنده، أن الدهر من أسماء الله تعالى، وذلك جهل وذريعة لقول المعطلة هـ.

وقد اعتمد هذا القول، مجد الدين في "القاموس" فقال: الدهر قد يعد في الأسماء الحسنى هـ. وتعقبه عليه شارحه، لما نقله عن شيخه، إذ قال: وعده في الأسماء الحسنى، من الغرابة بمكان مكين، وقد رده الحافظ ابن حجر وتعقبه في مواضع من "فتح الباري"، ثم نقل كلام عياض في ذلك. ونقل عن الأزهري عن أبي عبيد، أنه قال في قوله:" فإن الله هو الدهر": مما لا ينبغي لأحد من أهل الإسلام أن يجهل وجهه، وذلك أن المعطلة يحتجون به على المسلمين، قال: ورأيت بعض من يتهم بالزندقة والدهرية يحتج بهذا الحديث ويقول: ألا تراه يقول فإن الله هو الدهر هـ [تاج العروس 3/ 218].

ثم قال الشارح المذكور: وكأن المصنف، يعني صاحب القاموس، رحمه الله، قلد في ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي، قدس سره، فإنه قال في الباب الثالث والسبعين من "الفتوحات":

الدهر من الأسماء الحسنى، كما ورد في الصحيح، ولا يتوهم من هذا القول الزمانُ المعروف الذي نعده من حركات الأفلاك، ونتخيل من ذلك درجات الفلك التي تقطعها الكواكب، ذلك هو الزمان، وكلامنا إنما هو في الإسم الدهر، ومقاماته التي ظهر عنها الزمان هـ.[قال الشارح]: ونقله الشيخ إبراهيم الكوراني، شيخ مشايخنا، ومال إلى تصحيحه. قال: والمحققون من أهل الكشف عدوه من أسماء الله بهذا المعنى، ولا إشكال فيه، وتغليط عياض القائل بأنه من أسماء الله، مبني على ما فسره به من كونه مدة زمان الدنيا، ولا شك أنه بهذا المعنى يغلط صاحبه، وأما بالمعنى اللائق كما فسره الشيخ، الأكبر، أوالمدبر المصرف، كما فسره الراغب، فلا إشكال فيه، فالتغليط ليس على إطلاقه. قال شيخنا: وكان الأشياخ يتوقفون في هذا الكلام بعض التوقف، لما عرضته عليهم، ويقولون: الإشارات الكشفية لا يطلق القول بها في تفسير الأحاديث الصحيحة المشهورة، ولا يخالف لأجلها أقوال أئمة الحديث المشاهير. والله أعلم. هـ كلام تاج العروس في شرح القاموس.[3/ 219].

والخلاصة هنا؛ أن الجمهور من محققي أهل الحديث، الذين فسروا قوله، صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"؛ أن معناه أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر. فالدهر في الحديث، معناه الزمان، كما سبق تفصيل ذلك. وهناك فئة قليلة فسرت الدهر في الحديث بمعنى المدبر، وعدته من أسماء الله الحسنى. وهو مردود عند أهل الحديث وإن قال به بعض أهل الظاهر، متمسكين بظاهر عبارة الحديث، وكما تمسك به أهل الكشف من الصوفية، وفي مقدمتهم الشيخ محيي الدين ابن عربي. وقد تقدم كلامه الذي نقله شارح القاموس.

قلت: ولفظه [في الفتوحات]، في الباب السابع والخمسين وخمسمائة، في معرفة الأسماء الحسنى، في ترجمة حضرة الدهر: يدعى صاحبها عبد الدهر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر" فجعل الدهر هوية الله، فصدق القائلون في قولهم؛ وما يهلكنا إلا الدهر، فإنه ما يهلكهم إلا الله، فإنهم جهلوا في قولهم؛ (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا)، أي نحيا فيها ثم نموت، وصدقوا في قولهم بعد ذلك؛ (وما يهلكنا إلا الدهر)، فصدقوا، فإن الدهر هو الله، وجهلوا في اعتقادهم فإنهم ما أرادوا إلا الزمان بقولهم الدهر. انظر تمامه.[265/4].

ولابد من ملاحظة ما قاله شيوخ شيخ العلامة الزبيدي، شارح القاموس، من أن الإشارات الكشفية، لا يطلق القول بها في تفسير الأحاديث الصحيحة المشهورة، كما سبق، والله أعلم.

المبحث الخامس

في الحكم الشرعي في مخاطبة الدهر بما يفيد التبرم والسب

إذا علمت سبب ورود الحديث ومعناه؛ تبين لك جليا أن نسبة الحوادث إلى الدهر ولومه والتضجر منه، والإتيان بالعبارات التي تفيد النسب والسب، أن كل ذلك منهي عنه في الشريعة الإسلامية، إذ لا فاعل لشيء ولا منشئ لحادث من الحوادث، إلا الله سبحانه، حسبما سبق. فمن سب الدهر أو ذمه لظهور إساءة، فقد سب الفاعل، ولهذا عد بعضهم ذلك كبيرة، لأنه يؤدي إلى سبه سبحانه وتعالى، وهو كفر، وما أدى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كبيرة. قال في "روح المعاني":

"وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام، فضلا عن كونه كبيرة." قال: "والذي يتجه في ذلك تفصيل؛ وهو أن من سبه فإن أراد به الزمن، فلا كلام في الكراهة. أو الله عز وجل، فلا كلام في الكفر. ومثله إذا أراد المؤثر الحقيقي، فإنه ليس إلا الله سبحانه، وإن أطلق فهذا محل التردد، لاحتمال الكفر وغيره، وظاهر كلامهم هنا أيضا الكراهة، لأن المتبادر منه الزمن، وإطلاقه على الله تعالى، كما قال بعض الأجلة، إنما هو بطريق التجوز، ومن الناس من قال إن سبه كبيرة إن اعتقد أن له تأثيرا فيما نزل به، كما كان يعتقد جهلة العرب، وفيه نظر لأن اعتقاد ذلك كفر، وليس الكلام فيه "هـ[ج25 ص140]

قلت: والقول بالكراهة فيمن لا يعتقد تأثير الدهر في حادث من الحوادث، هو مفاد كلام أئمة المالكية، ففي "إكمال الإكمال" لأبي علي القرطبي، في تفسير قوله عليه السلام " فلا يقل أحدكم يا خيبة الدهر"، ما لفظه:

"هذا اللفظ ونحوه، تفسير للسب، وكانت الجاهلية إذا لم يحصل لهم المطلوب، أو عند نزول أمر من موت أو غيره، يقولون ذلك ويقصدون به ذم الدهر في فعله غير المطلوب،

وأكثر ما يجري على ألسنة الشعراء، فمن قاله معتقدا نسبة الفعل إلى الدهر، كان كافراً، ومن قاله معتقدا غير ذلك، فقد أتى ما نهى الشرع عنه، فليستغفر الله تعالى" هـ[58/6].

ثم إن الأظهر في تحقيق المقام هنا، أن كلامنا في المسلم السليم العقيدة الذي ينطق بهذه العبارات، هل يسوغ له ذلك أو يمنع؟

أما المسند التأثير للدهر استقلالا، أو على وجه الإشراك مع الله، فلا كلام لنا فيه، إذ هذا كافر بلا ريب.

أما المؤمن السليم العقيدة، فإنه لا يعتقد التأثير لا استقلالا ولا بالاشتراك، وعليه فمحمل عبارته على التجوّز والتأويل، لأنه لا يقصد نسبة الحوادث إلى الدهر الحقيقية، وعلى هذا الملحظ، بنى البيانيون حكمهم في المجاز الحكمي، أو المجاز العقلي، أو المجاز في الإسناد، ففرقوا بين صدور مثل هذه العبارة من المؤمن، وصدورها من غيره، إذ قالوا في نحو أنبت الربيع البقل، وقول الشاعر: "فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهد ا"، إن هذا القول إذا صدر من الموحد، فإنه مجاز في الإسناد، وأن المراد غير ظاهره، فيكون التقدير أنبت الله البقل وقت الربيع، وليصنع الله بي في الدهر الخ، فأسند الفعل إلى الظرف مجازاً والقرينة صدوره من الموحد، فإن صدر هذا الكلام ممن يعتقد ذلك كالكافر والمشرك، فإن الإسناد حقيقي ولكنه كاذب. وعليه فتقدير قول الشيخ [سيدي المفضل أفيلال] هنا: "يا دهر قل لي علامة، كسرت جمع السلامة ". أي كسر الله فيك هذا الجمع الذي كان سالماً. وهكذا في كل عبارة تفيد إسناد الحوادث إلى الدهر إن [كان] صدورها من مؤمن.

على أن هذا التعبير، لشيوعه وكثرة وقوعه في أشعار أهل الأدب، وتوارد الخواطر عليه ممن ابتعد عصره أو اقترب، كاد أن يصير معنى اللفظ غير مقصود، وأن مدلوله الحقيقي فيه مفقود، كما يقولون؛ قاتله الله، وبعداً له وتباً. وإنما المراد إظهار التوجع والتفجع والأسف، كما هو بين، وأن الأصل في ذلك اتباع منهج العرب في عبارتهم، وتقليدهم في لهجة بلاغتهم، إذ كان شأنهم خطاب الدهر وعتابه فيما يلم بهم من ملماته، ومدحه فيما يسرهم من مبهجاته، ولم تكن تخلو أشعارهم من ذلك، سواء منه المؤمن الموحد، والجاهل الجاحد. قال الأعشى:

ومَرُّ الليالي كل وقتٍ وساعةٍ يُزعزعن مُلكاً أو يباعدن دانيا

ثم اعترف بالله فقال:

فلو كان شيء خالدًا غيرَ ربنا   لكان لها من سائر الناس واليـَا

وقال ابن أشمط العبدي:

أ أمـــــــامَ إن الدَّهــــــر   أهلك صرفه إرمـاً وعـــــــــادا

وقال الأحوص:

الدهر إن سرَّ يوماً لا قوام له   أحداثه تصدع الرَّاسي من العَـــلم

وقال طُريح الثقفي:

بل كل شيء سيُبلي الدهر جِدَّته   حتى يبيدَ ويبقــى اللهُ والعمـــلُ

وقال زهير بن أبي سُلمى:

يا دهر قد أكثرت فجعتنـا   بسراتِنا ووقرتَ في العَظـْم

وسلبتنا مَا لستَ معقِبنـا   يا دهر ما أنصفتَ في الحكْم

وقال عدي بن زيد:

إن للدهر صولة فاحذرنها   لا تبيتنَّ قد أمنت الدهـورا

إنما الدهر لـيّن ونطـــوحٌ   يترك العظم واهيا مكسورا

وعلى هذا المنهج، سار الشعراء الإسلاميون، حتى أهل التصوف منهم، رعيا للمعنى الذي أشرنا إليه. قال أبو تمام الطائي[الديوان ص205]:

هو الدهر لا يشوي وهن المصائب   وأكثر آمـال النفوس كواذب

وقال [ص210]:

يا دهر قدْكَ وقلما يُغني قد   وأراك عثر الظمء مُرُّ المَوردِ

يا دهرُ أيةُ زهرةٍ للمجد لم   تجفف، وأيَّةُ أيكةٍ لـم تُخضـَدِ

وقال:

وكيف أنكر من دهري تصرفه   والدهر ذو أوجه تاتي بألـــوان

فكم له من يد عندي ومن ترة   لي عنده من ذوي آل وإخواني

وقال أبو الفضل الميكالي، أحد رجال اليتيمة :

يا دهر ُما أقساك يا دهـــــر   لم يحظ فيك بطائــــــلٍ حُــــرُّ

أما اللئامُ فأنت صاحبُهُم ولهم لديك العطفُ والنَّصْرُ

وقال الحريري:

وقـعُ النوائبِ شيـــَّبْ والدهرُ بالناس قُلَّبْ
إنْ دَانَ يوماً لِشخـصٍ ففي غـــدهِ يَتغلَّـــبْ
فـلا تَثِقْ بوَميـــضٍ مِن برقِهِ فَهْوَ خُـلَّبْ

وهذا نحو قول أبي الفتح البستي:

الدهرُ خـداعه خـــلوبُ وصَفْوُهُ بالقذَى مَشُوبُ
وأكثرُ النـــاسِ فاعتزلْهُم قوَالِبُ ما لها قـــلُوبُ
فلاَ تَغُـرَّنكَ الليالـــــي وبرقُها الخُلّبُ الكَــذُوبُ
فَفِي فقـــا أنسِها كُرُوبٌ وفِي حشَا سِلْمِهَا حـُرُوبُ

وله:

الدَّهرُ سِلمٌ لِكـــلِّ نذْلٍ لكنَّه لِلكريـــم حَــرْبُ

وقال ابن لنكك البصري:

يا زماناً ألبسَ الأحـــــــــــــرارَ ذلاً ومَـهانَـة
لستَ عِندي بزمـــــانٍ إنَّمـا أنتَ زَمَانَــــــة
كيفَ نرجو منـكَ خيراً والعُلا فيكَ مَهانَـــة
أجنونٌ مـا نَـــــــراهُ مِنكَ يبدُو أم مجانَـــة

وقال:

عَجِبْتُ لِلدَّهر في تَصَرُّفِهِ وكلُّ أفعالِ دهرنَا عَجَبُ
يُعانِدُ الدهرُ كلَّ ذي أدبٍ الخ...

وقال أبو العلاء المعري:

يا دهرُ يا مُنجِزَ إيعَادِهِ ومُخْلِفَ المَأمولِ من وَعْدِهِ
أيُّ جـديدٍ لكَ لمْ تُبلِــهِ وأيُّ أقرانِكَ لمْ تُــــــرْدِهِ

ولكون هذا الإسناد غير حقيقي، بل إطلاقه إنما هو مجاز، ولا يراد به الحقيقة عند أهل التوحيد، حتى صار كأنه منقول عن ظاهره إلى نحو التعجب أو التفجع والتوجع، كما قالوا في:" قاتله الله"، و:"تربت يداه". قال في "النهاية":

"وقد ترد، أي قاتله الله، بمعنى التعجب من الشيء، كقولهم: "تربت يداه"، وقد ترد ولا يراد منها وقوع الأمر" هـ.

ولكثرة ورود هذه العبارة في كلام البلغاء والشعراء من أهل الأدب، وتناسي معناها الأصلي؛ وردت حتى في اشعار أهل التصوف، قال العارف سيدي عمرابن الفارض:

أحبَّايَ أنتم أحسنَ الدهرُ أم أساء فكونوا كما شئتم، أنا ذكمُ الخلُ

قال شارحه: وقوله أحسن الدهر أم أساء، من محاسن العبارات، ولم يقل أحسنتم أم أسأتم، لأنه لا يريد نسبة الإساءة إليهم. وقال النابلسي: وإنما عدل عن صريح اسم الله تعالى، أدبا أن تنسب الإساءة إليه سبحانه، جريا على عادة العرب في نسبة الأمور إلى أسبابها الظاهرة.هـ.

ومع هذا كله؛ فالأولى هو اجتناب مثل هذا التعبير، والرجوع إلى الله مصرِّف الدهور، في كل عظيم وحقير. وما أحسن ما أنكر به هذا الإسناد، أحد الأدباء الأفراد، أبو النصر بن عبد الجبار-الذي قال فيه في "اليتيمة"، إنه بمحاسن الأدب وبدائع النثر، ولطائف النظم، ودقائق العلم، كالينبوع للماء، والزند للنار- :

"عتبك على الدهر داع إلى العتب عليك، واستبطاؤك إياه صارفٌ عنان اللوم إليك، فالدهر سهم من سهام الله منزعهُ عن مقابض أحكامه، ومطلعه من جانب ما حررته مجاري أقلامه، والوقيعة فيه تمرس بحكم خالقه وباريه، ومجاري الأشياء على قدر طباعها، وبحسب ما في قواها وأوضاعها. ومن ذا الذي يلوم الأراقم على النهش بالأنياب، والعقارب على اللسع بالأذناب؟!، وأنَّى لها أن تُذمَّ، وقد أشربَت خلقتُها السُّمّ. وحكمُ الله في كل حال مطاع، وبأمره رضى واقتناع. فأعف الزمان عن قوارض لسانك، واضرب عليها حجاب الحرص بأسنانك، واذكر قول النبي، صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر". وعليك بالتسليم، لحكم الله العلي العظيم، فذاك أحمد عقبى، وأرشد ديناً ودنيا ".[284/4].

إتمام الكلام على رسالة الشيخ الصقلي
لصديقه أفيلال، وما في ذلك

ولنرجع إلى تمام الكلام على رسالة الشيخ الصقلي، لصديقه أفيلال، وفيها ضرب المثل بأبي الشمقمق، وهو شاعر مشهور في الدولة العباسية، وهو؛ أبو محمد، مروان بن محمد الكوفي. وهذا الشاعر كان كثير الهزل، وقد يأتي بالجد فيحسن فيه. وكان كبراء الشعراء يتَّقون هجاءه اللاذع، فيجاملونه ويهادونه. وله في ذلك مع بشار وأبي نواس، نوادر مسطورة في "الأغاني" وغيره من كتب الأدب. وبأبي الشمقمق هذا؛ كنيَ محمد ابن ونان، والد ناظم الشمقمقية الشهيرة، لشبهه به في جودة القريحة، وغزارة مهارته الشعرية. ولهذا قال ولده في نظمه:

وإن أردتَ أن تكونَ شـاعراً   فحْلاً فكُنْ مثل أبي الشَّمَقْمَـق
ما خِلتُ في العَصر لهُ من مَثَلٍ   سِوى أبي في مَغربٍ ومَشـرِق
لِذاكَ كنَّـاهُ بــــهِ سيِّـــــدُهُ   السلطانُ عِزُّ الدين تاجُ المَفْرِق

ويعني بالسلطان؛ مولاي محمد بن عبد الله العلوي، ممدوح صاحب الشمقمقية. وفي الأخير، طلب الشيخ الصقلي، من صديقه أفيلال، أن يوجه له نسخة من نظم الشمقمقية، التي وعده بها. وهو شيء عجيب، حيث يدل على فقدان هذه المنظومة من فاس، ووجودها بتطوان، لأنه لو كانت موجودة هنالك، لكانت خزانة الشيخ الصقلي، أحق بها وأهلها، والله أعلم.

[مبحث في بيان حكم الكتابة
لإخراج الجان من المصروع، والرُّقى والعزائم،
والتمائم والتولة والنشرة]

ولنرجع إلى ما يمتدُّ من ذيول ترجمة الشيخ الغياتي، فنقول؛ إن من جملة ما مرّ فيها، كونه كان يكتب لإخراج الجان، ويشترط الأجرة الوافرة في ذلك.

أما الكتابة لإخراج الجان من المصروع، فهو مشروع غير ممنوع، لأنه من قبيل الرقى، والرقى واردة في السنة، وناهيك حديث النفر من الصحابة الذين استضافوا ذلك الحي من الأعراب، فلم يضيفوهم، ولدغ سيد الحي، فرقوه بالفاتحة، كما سيأتي الحديث بتمامه.

وأما الأجرة والاشتطاطة فيها، فيؤخذ حكم جوازها، من هذا الحديث أيضا، كما سيفصل.

وأما على وجه الخصوص، ففي "المعيار" للونشريسي، وسياقه عن ابن لبٍّ، أنه سُئل عن رجل يعالج الجن، ويداوي المصاب بذلك، هل يجوز له أخذ شيء عن ذلك أم لا ؟ فأجاب:

"إذا كان ذلك مما جُرِّبَ نفعه، وعُلِمت فائدته ومصلحته بجري العادة، وكان ما يأتي به من رُقية أو كَتبٍ، مما هو من أسماء الله، أو من القرآن؛ فذلك حسن، وله عليه أجرة من يعمل بحسب شرطه، إن شرط شيئا، أو يكون موكولاً إلى ما تسمح به نفس المعمول به ذلك، وليس فيه قدر معلوم، ولا حدٌّ معلوم " هـ.

وقال شيخنا أبو العباس ابن الخياط، في فهرسته: وأما كتابة الحرز من القرآن، فقال مالك: لا بأس به إذا كان في قصبة أو جلد وخرز عليه، وقيل الأولى تركه.

وفي أول "جامع المعيار"، أن بعض أهل العلم سُئل عن رجل من أهل الخير والصلاح، يكتب للحمى، ويرقي ويعمل النشرة، ولا يأخذ على ذلك شيئا، ويعالج أيضا صاحب الصرع والجنون، بأسماء الله تعالى، والعزائم والخواتم، وينتفع بذلك كل من حمله، أترى له ذلك جائزا أم لا ؟ فأجاب:

"أما كتب الكاتب للحمى والرقى، وعمل النشر بالقرآن، وبالمعروف من ذكر الله، فلا بأس به. وأما معالجة المصروعين بالجنون، بالعزائم والخواتم، فعل العزامين المبطلين، فإنه من المنكر والباطل، ولا يفعله ويشتغل به من فيه خير أو دين. فإن كان جاهلًا بما عليه في هذا، فينبغي أن يُنهَى ويُبصَّر بما عليه فيه، حتى لا يعود إلى الاشتغال به. وبالله التوفيق" هـ[ ].

فهذا الجواب، ربما يفيد مخالفته لجواب ابن لب، ولكن لا يتحقق المقام هنا، إلاَّ بتحرير الموضوع، والإتيان بما فيه من الأصول والفروع، وإطالة ذيل التفصيل، ليمكن للناظر أن يحرز قصب التحصيل، وعليه فنقول: إن البحث يتلخص فيما ياتي:

- مشروعية الرقى، وما ورد من النهي عنها، وبيان الجائز فيها.
- كتب ما يرقى به، وتعليقه على المرقى.

- التمائم والتولة الوارد النهي عنها.
- العزايم والفرق بينها وبين الرُّقى، وأصل العزائم لإخراج الجان.
- الصرع وإصابة الجان، ومن ينكر ذلك:

الرُّقـــــى ومـــعـــنـــاها:

الرقى جمع رقية، بضم الراء، وهي ما يرقى به المريض والمصاب، وهي العوذة. عُذتُ به أعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً، أي لجأت إليه. فالراقي المؤمن يعوذ بالله، ويلجأ إليه في الأمر النازل، قال تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ)، وقد كانت الرقى معروفة عند العرب، مألوفة عندهم، يستعملونها فيما يُلِمُّ بهم. ولكن رقاهم كانت لا تخلو من شرك واعتقادات فاسدة، تُخِلُّ بالتوحيد، وإسناد التصرف للعزيز الحميد. ولهذا لما أراد بعض الصحابة العمل بالرُّقى المعهودة عند العرب، أمره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يعرِّفه بتلك الرقى التي يرقي بها، لينظر هل فيها ما يؤذن بالشرك أم لا.

ففي صحيح مسلم، من حديث عوف بن مالك، قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله: كيف ترى في ذلك؟ فقال: " اعرضوا عليّ رُقاكم، لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيها شِركٌ". وله من حديث جابر: نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الرقى، فجاء آل عمر بن حزم، فقالوا يا رسول الله: إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب. قال: فعرضوا عليه. فقال:" ما أرى بأسا، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه".

مشروعية الرقى في الإسلام

قد أجمع العلماء من أهل الإسلام، على جواز الرقى. وسند هذا الإجماع، ما ورد في ذلك عن النبي، صلى الله عليه وسلم. وأكبر حجة في ذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره، عن أبي سعيد الخدري: أن ناسا من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أتوا

على حيّ من أحياء العرب، فلم يقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لُدغ سيد أولئك. فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جَعلاً. فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء. فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرئ. فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي، صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك، وقال: "وما أدراك أنها رُقية، خذوها واضربوا لي بسهم".

فهذا الحديث، يدل على أشياء، منها؛ كون الرقى كانت معروفة في الجاهلية ومستعملة، وأن استعمالها في الإسلام لا محظور فيه، إن كان بمثل الفاتحة. وهذا لا نزاع فيه. قال الحافظ في "الفتح":

"وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته. وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى، واختلفوا في كونها شرطاً. والراجح أنه لابد من اعتبار الشروط المذكورة" هـ[10/ 152].

أما ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن مسعود، الذي رواه أبو داوود، وابن ماجة، وصححه الحاكم، أن الرقى، والتمائم، والتولة، شركٌ؛ فهو محمول على الرقى التي كان يستعملها المشركون من الجاهلية، ويعتمدون عليها في دفع المضار، وجلب المنافع، دون الاعتماد على الله.

قال الحافظ في "الفتح":

"وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره، ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه، ما يشوبه من ذكر الشياطين، والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم، ويقال إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع، تصادف الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين، أجابت وخرجت من مكانها. وكذا اللديغ إذا رُقي بتلك الأسماء، سالت سمومها من بدن الإنسان. فلذلك كره من الرُّقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يعرف معناه، ليكون بريئا من الشرك. وعلى كراهة الرقى بغير كتاب الله علماءُ الأمة." هـ[153 /10].

واعلم أن الرّقى بالقرآن، وبأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، هي من قبيل الالتجاء إلى الله، والفزع إليه والتحصن به. ولا خلاف في مشروعية ذلك، في كل ما نزل بالعبد أو يتوقع نزوله، وهذا هو الطب الروحاني.

فإذا كانت هذه الرُّقى صادرة عن لسان الأبرار من الخلق؛ حصل الشفاء بإذن الله. ولما عزَّ هذا النوع من البشر، وتدنس الناس بالأوزار، وعمّ الظلام، وخبت الأنوار؛ رجع الناس إلى الطب الطبيعي الجسماني.

قال في "المواهب":

"إعلم أن الله تعالى، لم ينزل من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع، ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدإ القلوب جلاء، كما قال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمِنِين)، والمعنى، كما قال الفخر: وننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن، شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضا من الأمراض الجسمانية. أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية، فظاهر. قال: وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية، فلأن التبرك بقراءته ينفع كثيراً من الأمراض. قال: ويتأيد ما ذكرناه، بما روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "من لم يستشف بالقرآن، فلا شفاه الله". قال: وانظر رقية اللديغ بالفاتحة، وما فيها من السر البديع، حسبما تقدم، وتأمل قوله، عليه الصلاة والسلام، في بعض أدعيته: "وأن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وشفاء صدري". وفي حديث ابن ماجة، عن سيدنا علي مرفوعا: "خير الدواء القرآن" هـ [باختصار، ج141/2].

ولم يزل أهل الفضل والصلاح، من هذه الأمة، يستشفون بالآيات القرآنية، والأسماء الإلهية، وبالتوسل إليه في ذلك بالأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، قراءة وكتابة، فيجدون لذلك آثارا عظيمة، وأدوية نافعة، وحصوناً لبلايا الملمات دافعة، فقد نقلوا عن الشيخ أبي القاسم القشيري، رحمه الله، أن ولده مرض مرضا شديدا حتى أشرف على الموت، فاشتدّ عليه الأمر. قال:

" فرأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فشكوت له ما بولدي، فقال: " أين أنت من آيات الشفاء". فانتبهت، ففكرت فيها، فإذا هي في ستة مواضع من كتاب الله، وهي قوله تعالى: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)، (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور)، (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)، (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)، (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)، (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ)." قال: " فكتبتها في صحيفة ثم حللتها بالماء، وسقيته إياها، فكأنما نشط من عقال" هـ. ونقله في المدخل [121/4].

وفي "المواهب"، ما لفظه: "وهاهنا أمر ينبغي أن يتفطن له؛ نبّه عليه ابن القيم، وهو أن الآيات والأذكار والأدعية، التي يُستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء، كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المحل المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي سيمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام، كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول. وكذلك القلب، إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان الدواء في نفس فعالة، وهمة مؤثرة؛ أثر في إزالة الداء ". قال:

"وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في رفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاء لا يجيبه الله، لما فيه من العدوان. وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله، وجمعيته عليه وقت الدعاء. وإما لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة، والسهو واللهو. وقد روى الحاكم، حديث "واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاهٍ".هـ المراد من كلام ابن القيم.[المواهب للقسطلاني2/ 142].

قلت: وبهذا المعنى الذي ذكره ابن القيم، واعتمده في "المواهب" ، من أن نجاح الرقى بالأذكار من القرآن وغيره، مشروطة بما تقدم؛ لم يزل الناس إلى عصرنا هذا، يقصدون المشار إليهم بالصلاح والخير، للرقى والعزائم. وقد استمر الحال. إلى أنه لا بد للراقي أو المعزم، أن يكون له إذن خاص في ذلك، إما بالوراثة، أو بالأخذ عمن ثبت له الإذن في ذلك، من أهل الصلاح، وقد تواطأ الناس من قديم على التماس ذلك من أهله، وثبت النفع لهم بذلك، وشاهدوا أثره فيما يحدث في ظاهر البدن من الحمرات والدماميل والسلخات. وفضل الله لا يُخَصُّ بأحد، ولا يُحدُّ بأمد، ولا يُعدُّ بعدد، ولا رادَّ لفضله، ولا غالب لأمره.

كتبُ ما يُرقى به وتعليقه
على المرقَّى، وهو الحرز، أو شرب مانه، قديماً وحديثاً

لم يزل الأئمة المقتدى بهم في الملة، يكتبون الآيات القرآنية، والأدعية النبوية، وأسماء الله العلية، ويداوون بها المرضى. فتارة يكتبها في الورقات والأواني، وأمرهم بلعقها، أومزجها بمائع وشربها. وتارة بأمرهم بتعليقها عليهم. وقد ذكر ابن القيم، وصاحب "المدخل"، من ذلك شيئا كثيراً في أدواء متعددة، وأنها جُرِّبت فحصل النفع بها. قال في "المواهب" :

"ومما جُرِّب للخراج، ونقله صاحب "زاد المعاد"، أن يكتب عليه (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً). قال: ومما يُكتب لعُسر الولادة، ما روى الخلال، عن عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل، قال: رأيت أبي يكتب للمرأة، إذا عسر عليها ولادتها، في جام أبيض أو شيء نظيف: حديث ابن عباس: "لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم،(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)،(كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَم يَلْبَثُوا إِلاَّسَاعَةً مِن نَّهَارٍ)، (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا). قال الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، أن أبا عبد الله، جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، اكتب لامرأة قد عسر عليها الولادة منذ يومين. فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. قال المروزي: ورأيته يكتب لغير واحد. وقال المروزي أيضا: بلغ أبا عبد الله أني حممت، فكتب لي من الحمى رقعة فيها؛(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ) باسم الله وبالله ومحمد رسول الله، (يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْراهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ)، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، اشف صاحب هذا الكتاب، بحولك وقوتك وجبروتك إلهَ الحق، آمين "هـ[2/ 157].

قلت: وهذا العمل الثابت عن إمام المحدثين، وأعاظم العلماء المجتهدين، المستمدين أحكامهم من أحاديث سيد المرسلين، يكفي في السند لمشروعية كتابة الحروز ونحوها، لأن الإمام أحمد، وهو المتضلع في السنن، الحريص على عدم الخروج عن هدي الرسول، عليه

السلام، يدل دلالة قوية أن له في ذلك أثراً بلغه، أو فهماً أوتيه من كلام الله، أو كلام من لا ينطق عن الهوى.

على أنه إن لم يكن لهم أثر وارد على سبيل الخصوص، فقياس الكتابة بالبنان، على القول باللسان، وهو قياس جليّ واضح. وقد قيل: إن القلم أحد اللسانين.

قلت؛ وبعد هذا وقفت على حديث رواه أبو داود والترمذي، ونقله النووي في أذكاره، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يعلمهم من الفزع كلمات: " أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون". وكان عبد الله بن عمرو، يعلمهن من عقل من بنيه، ومن لم يعقل كتبه فعلقه عليه. قال الترمذي حديث حسن هـ. بنقل الأذكار[ص71] .

ولهذا لم يزل السلف الصالح، يكتبون الآيات القرآنية، والأسماء المباركة، والأدعية النبوية، لاستشفاء المرضى وأهل العاهات، فيجدون لذلك أثرا، فتارة بالحمل، وتارة بشربها، كما تقدم، وقد جعلوا لكتابة ذلك، قواعد وشروطا وآدابا؛ فقد قال شيخنا خاتمة المحققين، سيدي أحمد ابن الخياط، في فهرسته:

" من آداب كتابة الحرز، أن يكون الكاتب على وضوء، وخصوصا إذا كتب شيئا من القرآن، وإن كان يجوز كتب الحروز بلا طهارة. ثم قال: ومن آدابها استقبال القبلة عند الكتابة إن تيسر، ومنها تحسين ظن الكاتب والمكتوب له، والراقي والمرقى، وإنما يقع الخلل وعدم النفع من جهتهما، وإلا فأسماء الله وكتابه العزيز، لا شك في نفعهما وبركتهما، ومنها أن يقرأ ما يكتب حال كتابته، ومنها فتح الحروف وترك طمسها، ومنها ترك نقطها وضبطها، ومنها ترك تترييها، أي تنشيفها بالتراب الخ. ما ذكره في هذا الموضوع ".

ثم قال شيخنا المذكور، ناقلاً عن "المدخل": ومازال الأشياخ من الأكابر، رحمة الله عليهم، يكتبون الآيات من القرآن والأدعية، يسقونها لمرضاهم، ويجدون العافية عليها.كان سيدي أبو محمد المرجاني، رحمه الله، أكثر تداويه بالنشرة، يعملها لنفسه ولأولاده ولأصحابه، فيجد في ذلك الشفاء. وأخبر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أعطاها له في المنام. انظر تمامه في "المدخل" وفي "المواهب" وفي "فهرسة" شيخنا المذكور.قلت: أما وضع الحديد حالة الرقى، فقد كرهه مالك، فقد روى ابن وهب عنه كراهة الرقية

بالحديدة، والملح، وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.

التمائم، والتولة، المنهي عنهما

التمائم جمع تميمة، وهي خرزة أوقلادة تعلق في الرأس، وكانت عند العرب الجاهلية من الأمر المعتاد في استعمالها في رؤوس الأولاد الصغار، لدفع العين والآفات عنهم حتى يبلغوا الحلم. فإذا بلغوا، أزالوا عنهم التمائم، وألبسوا العمامة.

و في "مقامات" الحريري:

" كَلِفتُ مذْ ميطت عني التمائم، ونيطت بي العمائم، بأن أغشى معَانَ الأدب، وأنضيَ إليه ركاب الطلب ". قال الشريشي: "إذا بلغ الصبي الحلم عند العرب، أزالوا الأحراز عن عنقه، وألبس العمامة والإزار، وقلد السيف، فأراد [الحريري]: أحببت مذ بلغت الحلم؛ مجالس الأدب."هـ [شرح المقامات34/1].

والتولة؛ بكسر المثناة الفوقية وضمها، شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر. روى أبو داود، وابن ماجة، والإمام أحمد، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، عن ابن مسعود رفعه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "أن الرقى، والتمائم، والتولة؛ شرك ". وقد تقدم هذا الحديث، وما قاله فيه الأئمة، وأعيد هنا، لنفسر هذه الترجمة وزيادة البيان في الموضوع، فنقول:

إن الدِّينَ عند الله هو الإسلام، والانقياد إليه تعالى، قلبا وقالبا، وتنزيهه عن الشريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا إله إلا هو، وهو القاهر فوق عباده، وهو الخالق لهم ولأعمالهم، خلقهم وما يعملون، ولا جالب للنفع إلا هو، ولا كاشف للضر إلا هو، (وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ)، فمن اعتقد مع الله إلها آخر، أو وصفه بصفاته القديمة، أو نسب إلى غيره استقلالا؛ بخلق شيء، أو جلب نفع، أو دفع ضر، فقد خرج عن التوحيد، ودخل في دائرة الشرك.

وحيث كان شأن أهل الجاهلية، اتخاذ التمائم، وهي الحروز، وتعليقها على أولادهم، يتقون بها العين في زعمهم، ودفع به كل أذى يلحق أولادهم، بتلك التمائم والحروز، يدافعون

بها المقادير، ويجلبون بها سلامتهم وعافيتهم من غير الله؛ فجاء دين التوحيد بإبطال ذلك، وشدّد النكير على من فعل ذلك، وجعله من الإشراك بالله. وفي حديث ابن عمر، قال: "ما أبالي ما أتيت إن تعلقت تميمة ". وفي حديث آخر:" من علق تميمة فلا أتم الله له ". وهي حكم التمائم والرقى والتولة بما يفيد إسناد التصرف والتأثير لغير الله.

أما ما كان من ذلك بالقرآن الكريم، وبأسماء الله العلية، وصفاته الجلية، والأدعية النبوية، فلا بأس به، وليس من الشرك في شيء.

النشرة وحكمها

ويدخل في ذلك؛ النشرة التي تكتب لحل المعقود، وإبراء المصروع، وشفاء الموعوك، فإنها على هذا القياس تجري، وإن كان وقع فيها اختلاف بين الأئمة، فأجازها الشعبي، ويحيى بن سعيد، وجماعة. وجاءت بها آثار، وقال الحسن؛ هي من السحر. وعن جابر؛ هي من عمل الشيطان. وقد أسنده في أبي داود، قاله الأبّي.

قلت: وحديث أبي داود هو ما نقله الأبّي بعد هذا، عن المازري، إذ قال:

"النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم، سميت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها، أي تحل. ومنعها الحسن وقال: هي من السحر. وفي أبي داود، عن جابر، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن النشرة، فقال: "هي من عمل الشيطان". قال بعض العلماء: هذا محمول على أنها خارجة عن الكتاب والسنة، وعن المداواة المعروفة، وإلاّ فالنشرة من جنس الطب هـ[شرح صحيح مسلم18/6].

التداوي بالرُّقى أو بالعقاقير الطبية
وإسناد التأثير لله تعالى، هو شأن المؤمن الموحد

والخلاصة هنا؛ أن الله خلق السبب، وخلق المسبب، فخلق الداء، وخلق الدواء، فمن أسند التأثير لله من ذلك الدواء، فهو مؤمن موحد. ومن أسند التأثير إلى الدواء أو الرقى،

أوالتمائم أو العزائم استقلالاً، فقد خرج عن التوحيد، واتخذ شريكاً مع الله. واعلم أن الخلائق، كما قاله الغزالي وغيره من المحققين في هذا المقام، ثلاثة أقسام:

"قسم عاملوا الله تعالى، باعتماد قلوبهم على قدرته، مع إهمال الأسباب والعوائد جملة، فهؤلاء حصل لهم التوكل، وفاتهم الأدب، وهم جماعة من العباد.

وقسم لاحظوا الأسباب، وأعرضوا عن التوكل. وهم عامة الخلق، وهي شر الأقسام. وهؤلاء ربما وصلوا بالإعراض عن خالق الأسباب إلى الكفر.

والقسم الثالث، وهم الذين جمعوا بين التوكل والأدب، حيث اعتمدت قلوبهم على قدرة الله، ملاحظين في الأسباب مسببها وميسرها. وهذا القسم هو خير الأقسام، وهو حال النبيئين والصديقين، وخاصة عباد الله تعالى العارفين بمعاملته. ولذلك كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يأمر بالدواء، والحِميَة واستعمال الأدوية، حتى الكيّ بالنار، فأمر بكيّ سعد. وقال عليه السلام: "المعدة بيت الداء، والحمْيَة رأس الدواء، وصلاح كل جسم ما اعتاد ".

وإذا كان هذا حاله في الأسباب التي ليست مطردة، من الحِميَةِ وإصلاح البدن بمواظبة عادته، فما ظنك بغير ذلك من العوائد. قاله القرافي. "وبهذا يتحقق لديك، قول "الحِكَم" : "لابد من الأسباب وجوداً، والغيبة عنها شهوداً ".

ثم لابد أن يلاحظ المؤمن السليم العقيدة، المتنور بنور اليقين؛ معنى اسمه الضار والنافع، ويعتقد أن الضرر والنفع من قدر الله وقضائه، ويستحضر حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال:

كنت رديف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال لي: "يا غلام، أو يا بني: ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن". فقلت بلى. قال: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك؛ لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك؛ لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ".

هذا اللفظ نقلته من "ألف با" للبلوي بروايته، وفيه مخالفة للفظ الحديث المشهور. وقال البلوي عقبه: وقد خرجه الترمذي، وهذا أتم. ثم قال: وقد ذكر أبو حامد، رحمه الله، في معنى تسمية الله تعالى نفسه الضارّ النافع، كلاماً بديعاً، قال:

" الضار النافع، هو الذي يصدر منه الخير والشر، والضر والنفع، وكل ذلك منسوب إلى الله، عز وجل، إما بواسطة الملائكة، أو الإنس، أو الجمادات، أو بغير واسطة. فلا تظن انَّ السم يقتل ويضرُّ بنفسه، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه، أو الملك، أو الإنسان، أو الشيطان، أو شيئاً من المخلوقات، من فلك أو كوكب أو غيرها؛ يقدر على خير أو شر، أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر منها إلا ما سُخِّرت له. وجملة ذلك بالإضافة إلى القدرة الأزلية، كالقلم بيد الكاتب. كما أن السلطان إذا وقَّع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا نفعه من القلم، بل من الذي القلم مسخر له. فكذلك سائر الوسائط والأسباب. على أن الجاهل يرى أن القلم مسخر للكاتب، والعارف يعرف أنه مسخر في يد الله تعالى، وأنه مهما خلق الكاتب، وخلق له القلم، وسلط عليه الداعية؛ صدرت حركة الأصابع والقلم لا محالة، شاء أو أبَى " هـ. بنقل البلوي [ألف با،ص229].

أما ما خرج من الرقى، والعزائم، والتمائم، ونحوها، عن نهج التوحيد، وإسناد التأثير لغير الله العلي الحميد، فهو رد على صاحبه، كما سبق.

وهنا نذكر أصل العزائم، وما يقبل منها وما يرد، والفرق بينها وبين الرقى.

العزائم والرقى
والفرق بينهما، وأصل العزائم لإخراج الجانّ

سبق لك ما في الرقى وسندها من السنة، كما سبقت الإشارة إلى العزائم، ولابد من بسط الكلام في ذلك، ليتبين لك[الفرق] بينهما من وجه، وبيان اجتماعهما من وجه آخر، وقد ينفرد كل واحد منهما في وجه آخر، فأقول:

قال شهاب الدين القرافي، في فروقه، في الفرق 242 ، في بيان بين قاعدة ما هو سحر يُكفَرُ به، وبين قاعدة ما ليس كذلك، إذ قال:

"الحقيقة العاشرة: العزائم، وهي كلمات يزعم أهل هذا العلم أن سليمان، عليه السلام، لما أعطاه الله تعالى الملك، وجد الجان يعبثون ببني آدم ويسخرون بهم في الأسواق، ويخطفونهم من الطرقات. فسأل الله تعالى، أن يولي على كل قبيل من الجان ملكا يضبطهم عن الفساد. فولى الله تعالى الملائكة على قبائل الجن، فمنعوهم من الفساد ومخالطة الناس، وألزمهم سليمان، عليه السلام، سكنى القفار والخراب من الأرض دون العامر، ليسلم الناس من شرهم، فإذا عثا بعضهم وأفسد، ذكر المعزم كلمات تعظمها تلك الملائكة، ويزعمون أن لكل نوع من الملائكة أسماء، أمرت بتعظيمها، ومتى أقسم عليها بها، أطاعت وأجابت وفعلت ما طلب منها، فالمعزم يقسم بتلك الأسماء على ذلك الملك، فيحضر له القبيل من الجان الذي طلبه، أو الشخص منهم، فيحكم فيه بما يريد."

" ويزعمون أن هذا الباب، إنما دخله الخلل من جهة عدم ضبط تلك الأسماء، فإنها أعجمية لا يُدرى وزن صيغها، وأن كل حرف منها يشك فيه هل هو بالضم أو الفتح أو الكسر، وربما أسقط الناسخ بعض حروفه من غير علم، فيختلّ العمل، فإن المقسَم به لفظ آخر لا يعظمه ذلك الملك، فلا يجيب، فلا يحصل مقصود المعزم، هذه حقيقة العزائم "هـ [الفروق 156/4].

وأما الرقى؛ فقال فيها القرافي:

"الحقيقة التاسعة: الرقى، وهي ألفاظ خاصة، يحدث عندها الشفاء من الأسقام والأدواء والأسباب المهلكة. ولا يُقال لفظ الرقى على ما يحدث ضرراً، بل ذلك يقال له السحر. وهذه الألفاظ؛ منها ما هو مشروع، كالفاتحة والمعوذتين. ومنها ما هو غير مشروع، كرقى الجاهلية والهند، وغيرهم، وربما كان كفرا. ولذلك نهى مالك وغيره عن الرقى بالعجمية، لاحتمال أن يكون فيها محرم. وقد نهى علماء العصر عن الرقية التي تكتب في آخر جمعة من شهر رمضان، لما فيها من اللفظ الأعجمي، ولأنهم يشتغلون بها عن الخطبة، ويحصل بها مع ذلك مفاسد" هـ كلام القرافي[156/4]

قلت: أما ما قاله في شأن تولية سيدنا سليمان، الملائكة على قبائل الجن الخ؛ فإن عبارته ظاهرة في عدم الجزم بذلك. بل هي ربما تشير إلى عدم صحة تلك الرواية، حيث عبر بالزعم الذي هو مظنة الكذب، نعم؛ ذلك ممكن، كما قاله ابن الشاط.

أما الحكم الشرعي في العزائم، فلم يتعرض له القرافي. ولكن مما قدمنا، يُعلم حكمها، وأنها إن كانت بآيات قرآنية، وأسمائه تعالى وصفاته العلية، والأدعية النبوية المبينة، والتعلق في الشفاء برب البرية؛ فهي مشروعة بل مطلوبة. وإن كانت بما لا يفهم، أو بما يفيد التعلق بالجان، أو بالأفلاك، أو بمخلوق يعتقد أن له تأثيرا في الإبراء، أو دفع البلاء؛ فهذا غير مشروع، بل ولا يجوز. وفي ذلك قال الإمام ابن الشاط:

"ولم يذكر - يعني القرافي - حكم العزائم، وينبغي أن يكون حكمها حكم الرقى، إذا تحققت وتحقق أن لا محظور في تلك الألفاظ " هـ .

والملخص أن التمائم، والرقى، والعزائم، المنهيّ عنها؛ هي المشتملة على حق وباطل، من تخليط ذكر الله وأسمائه بما يشوبه من أسماء الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوذ برجال من الجن. وأما ما سلم من ذلك، فإن كان بالمأثور عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وأئمة الإسلام المقتدى بهم، فلا بأس به، حسبما قدمنا، ولا علينا في تسميته تمائما أو رقى أو عزائم. قال في "المواهب":

"وقال بعضهم؛ المنهيُّ عنه من الرُّقى، هو الذي يستعمله المعزم وغيره، ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة، مركبة من حق وباطل، ويجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه، ما يشوبه من ذكر الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوذ من مردتهم".[144/2].

ومن هنا يعلم ما أولع به العامة، وخصوصاً النساء، من تعلقهم بهؤلاء العزامين المشعوذين، الذين يتخذون عملهم الخادع، حَبالة لاصطياد أموال الجاهلين والجاهلات، والغافلين والغافلات، ويدَّعون أن الجن مسخر لهم، وأنهم يخرجونه ممن أصابه صرع أو جنون. وهذه هي الترجمة الآتية التي جرنا إليها، ما جرى لنا في ذكر كتابة السيد الغياتي، لإخراج الجان.

الصرع وإصابة الجان

ومن ينكر ذلك من الفلاسفة وأهل الاعتزال

قال ابن القيم، في "زاده": "الصرع صرعان؛ صرع يكون من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة. والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء، في سببه وعلاجه.

وأما صرع الأرواح، فأئمتهم وعقلاؤهم، يعترفون به ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك أبو قراط، في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع في الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج "هـ[زاد المعاد2/ 78]. ونحوه في "فتح الباري" مختصراً.

قلت: أما صرع الأخلاط، فهو متفق عليه بين المحدثين والقدماء، وهو مرض عصبي عند أطباء العصر، كما سياتي.

وأما صرع إصابة الجان، فالذي ينكر الجانّ من أصله، لا كلام معه. وأما الذي يقول بالجان، ويمنع تسلط الجان وتصرفه في الإنسان بهذه الصفة؛ من أهل الإسلام، ففي مقدمتهم الجبائي من المعتزلة، والقفال الشافعي، من أهل السنة، وهم محجوجون بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، كقوله تعالى (الذِينَ يَاكُلونَ الرِّبَى لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ). قال الحافظ ابن حزم:

"وأما الصرع، فإن الله عز وجل، قال: (كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) فذكر عز وجل، تأثير الشيطان في المصروع، إنما هو بالمماسة، فلا يجوز لأحد أن يزيد على ذلك شيئا، ومن زاد على هذا شيئا، فقد قال ما لا علم له به، وهذا حرام لا يحل، قال عز وجل: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) "هـ.[القصَل 5/ 10].

وفي الحديث:" ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان فيستهلّ صارخا ". وفي حديث آخر: "كفوا صبيانكم أول العشاء فإنه وقت انتشار الشياطين". وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين وردته في زمنه، عليه الصلاة والسلام، أنه حدث عن شأنه معهم، قال: " فجاءني طائر كأنه جمل قَبَعْثَرَى، فاحتملني على خافية من خوافيه "هـ [النهاية لابن الأثير3/ 225].

ويكفي في الرد على من أنكر من المعتزلة، الصرع؛ قول رأسهم؛ عمرو بن عبيد، ونقله عنه أحد أئمة الاعتزال؛ الجاحظ، قال: وسمع عمرو بن عبيد، ناساً من المتكلمين ينكرون صرع الشيطان من المس، فقال: لو كان الشيطان لم يخبط أحداً لما ذكر الله تعالى به أكلة

الربا. فقيل له ولعل ذلك كان مرة فذهب، قال: ولعله قد كثر فازداد أضعافا، قال: وما تنكرون من الاستهواء بعد قوله تعالى(كَالَّذِي اِسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) هـ. من كتاب الحيوان للجاحظ[6/ 67].

وقال ابن القيم: وجاءت زنادقة الأطباء، فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده. ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها، يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم هـ.

قلت: وقد حاول الحافظ ابن حزم، أن يرد القسمين إلى قسم واحد، إذ قال:

"فصحَّ أن الشيطان يمس الإنسان الذي يسلطه الله عليه، مساً كما جاء في القرآن، يثير به من طبائعه السوداء، والأبخرة المتصاعدة إلى الدماغ، كما يخبر به عن نفسه كل مصروع بلا خلاف منهم، فيحدث الله عز وجل، الصرع والتخبط حينئذ، كما هو مشاهد. وهذا هو نص القرآن، وما توجبه المشاهدة، وما زاد على هذا فخرافات من توليد العزامين والكذابين "هـ قال ابن القيم:

"وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج؛ فالذي من جهة المصروع، يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح، الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة. والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح، إلاَّ بأمرين؛ أن يكون السلاح صحيحا في نفسه جيداً. وأن يكون الساعد قوياً. فمتى تخلف أحدهما، لم يغن السلاح كثير طائل. فكيف إذا عدم الأمران جميعا، بكون القلب خرابا من التوحيد والتوكل، والتقوى والتوجه، ولا سلاح له. والثاني من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضا، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: اخرج منه. أو بقول: باسم الله. أو بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. والنبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: اخرج عدو الله. أنا رسول الله. قال ابن القيم:

"وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ؛ أخرجي، فإن هذا لا يحل لك. فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه. وربما كانت الروح ماردة، فيخرجها بالضرب، فيفيق المصروع، ولا يحس بألم. وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً، وكان كثيرا ما يقرأ في أذن المصروع: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ). وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم. ومد بها صوته.

قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه، حتى تخلت يداي عن الضرب، ولم يشك الحاضرون بأنه يموت لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت: أنا أحبه، فقلت لها: هو لا يحبك. قالت: أنا أريد أن أحج به. فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك. فقالت: أنا أدعه كرامة لك. قال: قلت: لا. ولكن طاعة لله ولرسوله. قالت: فأنا أخرج منه. قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ قالوا له وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب. ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتة ".

"وكان يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين. قال: وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله، تكون من جهة قلة دينهم، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه، وربما كان عريانا "هـ.[زاد المعاد78/2].

وفي "المواهب":

"ولقد جربت الإقسام بالنبي صلى الله عليه وسلم، على الله تعالى، مع قوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّار) إلى آخر سورة الفتح؛ في ابنتين صغيرتين صُرعتا، فشفيتا. ومن الغريب قصة غزالة الحبشية، خادمتنا، لما صرعت بدرب الحجاز الشريف، واستغثتُ به، صلى الله عليه وسلم، في ذلك، فجيئ إليَّ بصارعها في المنام، بأمره، صلى الله عليه وسلم، فوبخته، وأقسم أن لا يعود إليها. فاستيقظت وما بها قلبة، ومن ثمة لم يعد إليها، فلله الحمد"هـ[152/2]

قلت: والتعلق به، صلى الله عليه وسلم، والاستعانة به في النائبات والملمات، نافعة جداً ومفيدة للمطلوب، ومبلغة للمقصود، إذ هو باب الله الذي فتحه لعباده المؤمنين، يدخلون إليه منه في دار السلامة، ومنزل الكرامة، ومقاعد الصدق عند مليك مقتدر.

الصرع عند الأطباء في العصر الحاضر

لا يخفى عليك أن القول عند أهل أوربا اليوم وغيرهم، بالجانّ لا أثر له عندهم، ولا يلتفتون إلى قائله. وقد علمتَ أن المسلمين قاطبة مجمعون على وجوده، لنص كتابهم العزيز

عليه، بحيث من أنكره يعد من الخارجين عن الإسلام. وقد سبق لك أن الصرع عند المحققين، على نوعين؛ نوع من إصابة الجان، ونوع من اختلال في الصحة، وأن الإمام ابن حزم يرده إلى قسم واحد كما سبق.

أما الأطباء اليوم، فهم يقولون إن الصرع إنما هو مرض عصبي يعتري المصابين به، وإنه يكون بالوراثة غالبا، وإنه يحدث من الاستمناء، ومن الإفراط في الجماع، ويحدث من الخوف من الصرع، إذا رأى مصروعا أمامه، ومن الأحزان الكبرى، والآلام الحادة، واضطرابات الهضم وملء المعدة، والإفراط من أكل اللحم، واستعمال الأشربة الكحولية في الصبا، وغير ذلك.

أما علاجه؛ ففي دائرة المعارف، لوجدي: "الطب العلاجي اعترف بالعجز عن شفاء الصرع، قال: ولكن الطب الطبيعي، يدعي أن المصاب لو اتبع أسلوبه المقوي، وهو ينحصر في استنشاق الهواء الطلق والعمل فيه، والتعرض للهواء والشمس، والتنفس تنفسا عميقا منتظما، والتغذي بالنباتات والفواكه، وترك اللحم، وتعهد الجلد بالتنظيف والدَّلك؛ شُفي المريض غالبا ". انظر تمامه فيها[468/5].

أما أطباؤنا، فقد قسموا المرض إلى قسمين، بحسب القائم به، فجعلوا من جاوز في السن خمسا وعشرين سنة، يتعذر معالجته، ونقلوا عن أبقراط رئيس الطب، أن الصرع في هؤلاء يبقى حتى يموتوا. قال في "زاد المعاد":

"وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة، باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة، باعتبار طول مكثها، وعسر برئها، لاسيما إن جاوز في السن خمسا وعشرين سنة، وهذه العلة في دماغه وخاصة في جوهره، فإن صرع هؤلاء يكون لازما. قال أبقراط: إن الصرع يبقى في هؤلاء حتى يموتوا "هـ.[79/2].

وهنا ينتهي الكلام على الصرع، وإصابة الجن، ورقيته والنشرة والكتابة، وما جرَّ إليه من مباحث الرقى والتمائم، والمقبول منها والمردود شرعا. وكل ذلك أثاره ما في ترجمة السيد الغياثي، من الكتابة لإخراج الجان.

مبحث الاشتطاط في أخذ الأجرة على إخراج الجن، والفتوى، ونحوهما

وبقي بحث الاشتطاط في الأجرة؛ أما أصل جواز الأجرة على ذلك، فقد سبق، وقد علمتَ من الجواز، الذي في "المعيار" أن الأجرة تكون بحسب الاتفاق من قليل أو كثير، ويزاد في الموضوع هنا، ما في صحيح البخاري، إذ ترجم لذلك بقوله: (باب ما يعطى في الرقية، على أحياء العرب، بفاتحة الكتاب) ثم قال:

قال ابن عباس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم:" أحق ما أخذتم عليه أجراً، كتاب الله". وقال الشعبي: لا يشترط المعلم، إلا أن يعطي شيئا فليقبله. وقال الحكم: لم أسمع أحدا كره أجر المعلم، وأعطي الحسن دراهم عشرة. ولم ير ابن سيرين بأجر القسام بأسا، وقال: كان يقال السحت الرشوة في الحكم، وكانوا يعطون على الخرص، ثم ساق حديث أبي سعيد الخدري، في شأن النفر الذين استرقوا، فرقوا بالفاتحة، واشترطوا الجعل بقطيع من الغنم الذي عد بثلاثين شاة. الخ.

وقد جاء الإمام البخاري، في هذه الترجمة بما يفيد جواز الأجرة على الرقية، وزاد ما على تعليم القرآن والعلوم، وأنه يجوز إعطاء المعلم والمدرس أجراً على تعليمه، وإن كان التعليم فرضاً كفائياً. كما أفاد أنه يجوز أخذ الأجر على ما يشبه ذلك من فروض الكفاية، كقسم التركات ونحوها، وتقويم الغلل والأملاك ونحوها.

أما حديث ابن عباس، فقال في "فتح الباري":

"إنه يستدل به للجمهور في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن. وخالف الحنفية، فمنعوه في التعليم، وأجازوه في الرقى كالدواء؟ قالوا: لأن تعليم القرآن عبادة، والأجر فيه على الله. وهو القياس في الرقى، إلا أنهم أجازوه فيها لهذا الخبر" هـ.

أما الاشتطاط في الأجرة، والأخذ عن الرقى فوق العادة والمعروف، فمقتضى القواعد يأبى ذلك. ويرشد إليه قوله تعالى: (وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)، كما قالوه في المفتي والشاهد، إنه يمنع في حقه أن يأخذ أكثر من معتاد عمله.

وفعل السيد الغياتي، ينافي هذا. ولكن في هذا الحديث ما يؤخذ منه الرخصة له، من حيث إن هؤلاء النفر من الصحابة، لما استضافوا هذا الحي، ولم يضيفوهم، وأبوا وامتنعوا، بخلاً منهم، مع أن الضيافة حق مشروع على أهل البوادي. وألجأهم الحال إلى طلب الرقية من هذا النفر، بداعي الاضطرار، وجد النفر الفرصة لأخذ حقهم كيف شاءوا، ونالوا حظهم كاملا غير منقوص، وهو القطيع من الغنم، الذي يُعد بثلاثين شاة ونحوها.

ولاشك أن هذا القدر هو بالنسبة لفعل الرقى، هو أجر زائد على المعتاد، ولكنه خرج مخرج المعاملة بالمثل، ومقابلة الامتناع بما يشبهه من المشاحَّة في الأجرة. قال الحافظ في "الفتح":

"وفيه، أي في هذا الحديث، مقابلة من امتنع من المكرمة بنظير صنيعه، لما صنعه الصحابي من الامتناع من الرقية في مقابلة امتناع أولئك من ضيافتهم. قال: وهذه طريقة موسى، عليه السلام، في قوله تعالى: (لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أجْراً)، ولم يعتذر الخضر عن ذلك، إلا بأمر خارجي هـ.

وعليه فيلتمس المخرج للسيد الغياتي، في إغلاء أجرته في الكتابة لأغنياء عصره، لكونهم في الغالب لا يؤدون زكاة أموالهم، ولا يواسون المحتاجين، ولا يصلون ما أمر الله أن يوصل، ويمنعون ما هو في أموالهم حق للسائل والمحروم. ومن قدر على أخذ حقه إذا أمكنته الفرصة، فله ذلك. والله أعلم.

ويمكن إجراء فعل الشيخ الرهوني، على هذا. ولكن على ما يظهر، أن هناك فرقاً يمنعه من ذلك، وبنقل ملخص ما قاله فقهاؤنا في أجرة المفتي؛ يظهر لك ذلك، قالوا: لا يجوز للمفتي أن يأخذ أجرا على نفس الفتوى، إجماعا، إلا إن كان من حبس عليه، أو من بيت مال مستقيم. وأما إن أخذه على كتبه الفتوى؛ فيمنع أيضا إن أخذ أكثر من معتاد عمله وكاغده، إن كان الكاغد من عنده. وأما إن أخذها على الكتب بقدر عمله، فلا يمنع، والورع الترك. هذا الذي أفاده المحقق الفلالي.

تتمة ترجمة شيخنا إبن الأبار

ولنرجع إلى ترجمة شيخنا ابن الأبار فنقول:

إن الشيخ المذكور، لما أتم دروسه بالحضرة الفاسية، وعاد إلى وطنه تطوان، وكانت حاله بادية الإقلال، لا يجد ما يقوم به في أمور ضرورياته، ولاسيما وهو شاب يتشوف للضروريات والحاجيات والكماليات، وألفى الحال كما قررنا أن الطالب حظه منقوص، وقدره مبخوس، وليس هناك مرتب للطالب مقدر، ولا إعانة تعتبر؛ فشمَّر عن ساق الكد، ولم يرض أن يرتسم في سلك العدول، تلك الخطة التي كانت شبه التكفف، وحاول تعاطي الأسباب من تجارة ونحوها. ولكنه لم تتسق له في ذلك الطريق، ولم يقدر له أن يكون من ذلك الفريق. واستدعي للخدمة المخزنية، وفتح له الرزق بمرسى الرباط، ومرسى طنجة، ومرسى تطوان، واتَّسعت عليه الدنيا.

وكان آخر المدة، لما تمَّ الاتفاق على إدخال المغرب في الحماية، وانقسم إلى مناطق، وأقيم بتطوان الخليفة السلطاني، وحاول بعض أعيان تطوان، تولية شيخنا الفقيه خطة القضاء بها، وأعمل في ذلك كل ما أمكنه، وسعى إلى أرباب الشأن بجدّ واجتهاد وحرص، حتى حصل على الوعد بذلك. ولكن لما بلغ شيخنا ذلك، أبى وامتنع، ونطق بالحق وقال: إني لا أعرف عن إجراءات هذه الخطة شيئا، ولا أجيد بابا من أبواب أحكام الفقه القضائية، وما تعاطيت ذلك قط. ولكن أولي الأمر في ذلك لم يلتفتوا لقوله، حتى رشح وصدر ظهير توليته، فيما بلغنا. ولكن بعض من كان هواه مع القاضي القديم، لم يرقه ذلك، وبذل مجهوده في صرف الحكومة عن رأيها في تولية الفقيه ابن الأبار القضاء، وقرّر في ذلك تقارير آل الأمر إلى قبولها، وصُرف الفقيه عن ترشيحه للخطة، وإبقاء ما كان على ما كان. ونجى الله شيخنا من هذه الخطة، التي لا تخلو من سقطة.

ولكن الحكومة لما رأت أن الفقيه المذكور، لم يكن طالبا، بل كان مطلوبا، جبرت هذا الكسر بأن ولّته خطة الحسبة. ثم أقيل منها وأعفي، وبقي حراً في نفسه، غنياً بأملاكه، ملازماً لمنزله، معتكفا على مطالعة كتبه، لا يخرج إلا لقضاء مآربه وأوطاره، أو أوطار من تعلق به من أقربائه وأحبائه.

ولم يزل على هذه الحالة، إلى أن دعاه مولاه فلبى الداعي، في سابع ذي القعدة من عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، ودفن بالزاوية الحراقية، من هذا الثغر التطواني. فبكت لفقد هذا الشيخ، وهذا الوالد، وهذا المحب الصادق؛ عيني دماً، وصار موجود الحياة لتواريه في قبره عدما، إذ دفنت بمدفنه مكارم الأخلاق، وأصبحت الدنيا في عين من كان يعرف قدره مظلمة الأرجاء، فسبحان الواحد القهار المنفرد بالبقاء. صبَّ الله على قبره وابل الرحمات، ولقاه نظرة وسروراً في روضات الجنات، آمين.

شيخنا سيدي محمد البقالي، وما قرأته عليه، وشهرته وأخلاقه، والفوائد التي أخذناها عنه

وقرأت على شيخنا الهمام، سيدي محمد بن أحمد البقالي؛ دروساً في مختصر الشيخ خليل في العبادة، وابن عاشر، وهمزية البوصيري في المديح، في شهر ربيع النبوي الأنور، بالزاوية الريسونية، على العادة. كما قرأت عليه دروسا من موطأ الإمام مالك. وكان نسقه في إقرائها حسناً، إذ كان يطبق في المسائل الفقهية نصوص مختصر الشيخ خليل عليها، ويحرر المذهب في ذلك، إذ كان رحمه الله، يجيد حفظ المختصر المذكور.

ولما رجعت من الحضرة الفاسية، وأقبلت على متابعة الدراسة، وجدته في حال فراغ، مقيماً في المدينة لا يبرح عنها، لأن الفقيه المذكور، كان جل معيشته مما يجينه من ضياعه التي له بالبادية، وكان كثير الخروج إليها والسفر، للوقوف على شؤونه بنفسه. ومن حسن الحظ أنه في هذا الأوان، كان يتعذر الخروج للبادية، بسبب ما كان من اتِّقاد نيران الفتن، من جراء قيام الثائر أبي حمارة، والريسوني؛ فاغتنمت الفرصة في الفقيه المذكور، وطلبت منه أن يفتح معنا قراءة قسم الإجارة من مختصر الشيخ خليل، إذ كنت وقفت في دروس العلامة العراقي، على بابها، فساعد رحمه الله، وشرع يقرأ معنا بجدّ واجتهاد، وتتابع في الدروس، الأمر الذي لم يكن معهوداً في الفقيه المذكور.

وفي هذه الدروس، تحقق لديّ أن شيخنا المذكور، مبرز في الفقه، محقق في الدروس، وازددت له حبا وإعظاما، ولا غرو في ذلك، فإن شيخنا هو شيخ الإسلام والمسلمين، وإمام

أهل العلم والدين، وقدوة العلماء المتقين، وبركة الفضلاء العاملين، مع مشاركته في كل الفنون، وحفظ عن ظاهر قلب للمتون، إلى تواضع وسكون، ووقار كالجبل الراسي، لا تضعضعه عواصف الفكاهات والمجون، ولا يبالي أنظرَت إليه شزراً أو إقبالاً من الأعيان العيون، وما هو بالتعاظم وبعلمه أو جاهه بمفتون، يمشي على الأرض هونا مقتصدا، معرضا عمن يقصده لتقبيل يده مبتعدا، مقتصرا على المهم من أسبابه، ساعيا في ضروریاته بنفسه، حاملا لأمور بيته بيده. أخبرني بعض من كان له به اتصال، أنه شاهده يوما وهو آت من بستانه على دابته، وفي حجره طنجرة من طناجر الطبخ، وفوقها كَسكاسها.

وهذه هي سيرة السلف الصالح، وأهل المتجر الرابح، الذين هم بآثار الرسل والأنبياء مقتدون، وبهدايتهم وشمائلهم مهتدون، ففي الحديث: " إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده، ويكون في مهنته لأهله؛ يدفع به الكبر عن نفسه". وقد كان صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك.

وكان أبو عبيدة بن الجراح، وهو أمير، يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمّام. وقال سيدنا علي، كرم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة لمروان. وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر، رضي الله عنه، معلقا لحماً في يده اليسرى، وفي يده اليمنى الدِّرَّة، يدور في الأسواق، حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت عليا، رضي الله عنه، قد اشترى لحما بدرهم، فحمله في ملحفته، فقلت: أحمل عنك يا أمير المؤمنين. فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل هـ.

وبالجملة، كما في الإحياء: " أن مجامع حسن الأخلاق والتواضع، هي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فبه ينبغي أن يُقتدى، ومنه ينبغي أن يُتَعلم. وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخُدري، ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب، والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي، كل لله،واشرب لله. وكلّ شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة، أو رياء أو سمعة؛ فهو معصية وسرف. وعالج في بيتك من الخدمة، ما كان يعالج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في بيته؛ كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويَقُمُّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيى، ويشتري الشيء من السوق،

ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده، أو يجعله في طرف ثوبه. يصافح الغني والفقير، والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً علىكل من استقبله، من صغير أو كبير، أسود أو أحمر، حُرّ أو عبد من أهل الصلاة. ليست له حلة لمدخله، وحلة لمخرجه. لا يستحيي أن يجيب إذا دُعي، وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه، وإن لم يجد إلا خشف الدقل؛ لا يرفع غذاء لعشاء، ولا عشاء لغذاء، هيّن المؤونة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه، بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبشم قط من شبع، ولم يمد يده من طمع. قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة، رضي الله عنها، فحدثتها بما قال أبو سعيد، في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت ما أخطأ منه حرفا ."هـ [307/3].

قلت: وكان من أخلاق شيخنا، رحمه الله، أنه إن وقف معه شخص في الطريق، أو حيث يكلمه، كان لا ينصرف هو حتى يكون ذاك الشخص هو المنصرف.

وكذلك كانت سيرته، صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تستوقفه الأمَة والوليدة وتأخذ بيده، فلا ينزع يده من يدها، حتى يقضي حاجتها وتنصرف. ففي صحيح البخاري ان كانت الأمة لتأخذ بيده، صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به في حاجتها. وهذا من كمال تواضعه، صلى الله عليه وسلم، وتنزله على علو مرتبته لأدنى الناس.

كما كان من طبع شيخنا، رحمه الله، إيثار الوحدة والانفراد، ودفن نفسه في أرض الخمول، حتى كاد أن يصير لدى العامة والخاصة مجهولاً لا يُعْرف، ومكانته في المعرفة نكرة لا تُعَرّف، حتى أنه لم يكن يعرف قدره العظيم؛ إلا شرذمة قليلون من أهل العلم والفضل؛ كشيخنا العلامة ابن الأبار، وصديقنا المطلع، سيدي علي الخطيب، والصوفي الذاكر، سيدي الحاج عبد الوهاب لوقش.

ولقد كان يحضر في بعض المحافل، ومن عادته أنه يجلس أو يقف في الأطراف، ولا يبالي به أحد، ولا أظنه كان يتأثر من ذلك. أما مخالطته للناس، فقد كانت قليلة جداً. وغالب أوقاته كان يقضيها في زاويتهم التي بالطرّافين، فريداً إما لصلاة أو تلاوة. وفي بعض الأحيان، كان يعمر الزاوية المرزوقية. وربما يصاحبه فيها الشريف الدين الخيّر، سيدي

المكي ابن ريسون، والد صديقنا سيدي محمد، وكان الجامع، فيما يظهر، بينهما؛ الانزواء عن الناس، وطول الصمت.

وهذه هي حلية الأبدال، كما قاله محيي الدين، في "الفتوحات". ولقد كان يقول لي صديقنا المرحوم، سيدي علي الخطيب، متعجباً: ماذا يقول الفقيه البقالي، وسيدي المكي، في اجتماعهما ؟، يعني أن الغالب عليهما الصمت وعدم الكلام. فإذا اختليا، ماذا يكون كلامهما؟. ومن وصفه، رحمه الله، أنه لا يتكلم ابتداء، بل غالب كلامه يكون جواباً مقتصراً على المفيد. وقد كنت قلت أبياتا في هذه الأحوال في رجز:

والمرءُ لا يَسلمُ في ذا الوقتِ ... إلا بحبسِ نفسهِ في البيتِ
واعتزلَ الخلقَ بقلبٍ وبدنْ ... وتركَ الدنيا وما فيها فتنْ
وآثر الخمولَ والخفاءَ ... ورفضَ الظهورَ والعلاءَ
واستعذبَ الخلوة جمعاً للفِكَرْ ... في مُلكِ ربِّهِ وفي سِرِّ القدرْ
يتلو كلامَ ربِّه نهارا ... وليْلَهُ في سرٍّ أو جِهارا
يقومُ فيه يومَهُ وليْلَهْ ... ويستقي نَهْلَهُ وعَلَّتَهْ
ويجتني منه علوماً جَمَّةْ ... ويقتني فوائدا مُهِمَّةْ
يأخذُها عن ربِّه دونَ سَنَدْ ... ليست بأخذٍ عن سِواهُ من أحَدْ
يفتحُ كل مغلقٍ لهُ إذا ... أخلصَ في القصدِ ورامَ المأخذا
واتَّسَقت لهُ طريقَ الفتْحِ ... وفازَ في الأخرى بمحضِ الرِّبحِ

ومع هذا لم يكن، رحمه الله، من الجاهلين بأمور الدنيا، ولا مغفلا عن تصرفاتِ أهلها، بل كان رحمه الله، عيبة أسرارها، وجُهينة أخبارها، والمطلع على مواردها ومصادرها، حتى إنه كانت له في الأمور السياسية، أفكار راقية، وأنظار مصيبة.

فمنها أنه لما تم الاتفاق بين الدول، على نشر حماية فرنسا على جنوب المغرب، وإسبانيا على شماله، واتفقا على أن يكون السلطان بالجنوب، وخليفته بالشمال، وعين الخليفة، وجعل مقره بتطوان، واستقر بكرسي الخلافة محوطا بالخدم والجيش، ومؤزّراً بالوزارات والكتاب، ولكن ليس له نفوذ حتى على أدنى خدمه، وإنما النفوذ بيد رؤساء

الإسبان، وسمع الفقيه المذكور، بعض الناس ينتقد ذلك، ويراه من العبث، أجابه بما معناه، جعلهم السلطان، أو خليفته، واسطة بيننا وبينهم، وإبقاء اسم السلطان، أو الخليفة، أحسن من ترك ذلك بالكلية، ونصب إفرنسي، أو إسباني، للتصرف معنا مباشرة. يشير رحمه الله، إلى الحكم المباشر.

ومن أفكاره في الاتحاد وعدم الافتراق، والتآلف والتعاضد، في العبادات وغيرها، أنه كان يقرر لنا يوما في الدرس، قول الشيخ خليل في تراويح رمضان: (وانفرادٌ فيها). قال لنا: هذا هو الفقه، ولكن النظر يقتضي أن الاجتماع فيها أولى، لما فيه من القوة التي ليست توجد في الانفراد.

ومن أفكاره وتشبيهاته، التي تشير إلى كون الديانة الإسلامية، ديانة تساوي بين الأفراد، ولا أثرة فيها ولا امتياز في صفوف إقامتها الشعائر الدينية، وأنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير. إذ قال لنا يوما في درس المختصر ما معناه؛ إن غيرنا لايسمح في الصلاة ونحوها، بوقوف حقير مساوياً لعظيم، ولا لمأمور أن يقف مع أمير، بل يكون ذلك بحسب المراتب. وأما نحن، فالصف ـ مثلا ـ في الصلاة، يجمع بين الأمير والمأمور، والعظيم والحقير، والكبير والصغير.

قلت: يشير، رحمه الله، إلى ما يسمونه اليوم؛ الديمقراطية. وهي الديمقراطية الصحيحة.

ومن تنبيهاته على ما أحدثه الناس، من بدعة الذكر بالجهر في تشييع الجنائز، حكى لنا أنه كان يوما بمدينة جبل طارق الإنجليزية، أي في توجهه لمدينة مليلية، إذ عين هو والفقيه سيدي محمد لوقش، في ديوانة الحدود، التي بين مليلية، وقبائل الريف المغربية، قال لنا: إنهما كانا نازلين بمنزل قنصل المغرب، ومرت يوماً جنازة لإنجليزي، فلم يشعر إلا أن ناداه الفقيه لوقش، وقال له؛ يا فقيه هلمّ إلى أن ترى الناس مارّين في جنازتهم على مقتضى السنة. وذلك، كما هو معروف، أن عادة النصارى في جنازتهم أن يذهبوا معها ساكتين مطأطئين رؤوسهم، معتبرين. قلت: وسياتي لنا الكلام بعد على هذه المسألة.

ولم يكن، رحمه الله، شأنه الحرص على الدنيا وجمع المال، واقتحام المشاق في ذلك والأهوال. بل كان مغتنيا باليسير مما تدره عليه أملاكه وضياعه اليسيرة، ولم يكن يتصدى للشهادة إلا في الندرة. أما الفتوى، فكان كثيرا ما يفتي، ولكن مع تحري طريق الجادة وقصد

السبيل، دون تعسف أو ارتكاب بُنَيَّات الطرق، أو اتخاذ الحيل والتلبس لأكل أموال الناس بالباطل، كما هو شأن عامة مفتي العصر الحاضر.

وكان يقرر لنا، رحمه الله، في درسه أن العلم هو أساس الدين، وأن الله تعالى، لا يُعبد بالجهل، إذ رب قائم وليس له من قيامه إلا التعب، ورب صائم وليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وأن الله لا يقبل من عبد عملاً إلا ما كان موافقا لما حدده الله واشترط فيه. وحكى لنا، رحمه الله، في هذا الموضوع، أنه لما كان بفاس أيام الطلب، كان يتردد إلى المدرسة التي كان يقطنها، رجل مشار إليه بالصلاح والولاية. وكان الطلبة لما يأتي إليهم، يبتهجون به، ويحتفلون له، ويعظمونه. قال شيخنا: ثم إنه ورد إليهم في يوم مطير، فقال لهم: إني لما وصلت إلى وادي سبو، ألفيته قد ملأ السيل جوانبه، واحتمل زبداً رابياً، واختلط ماؤه بالحمأة والطين، وتغير لونه، فتيممت بحجر أو تراب. قال شيخنا: فانظر إلى هذا الرجل المشار إليه بالصلاح، كيف تيمم مع وجود الماء الذي تغير بقراره الذي لا يخرجه عن وصف المائية، وصلى بدون وضوء. أو كلاما هذا معناه.

قلت: ومثل هذا الشيخ، هو الذي قال فيه صاحب الرائية:

إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر

وفي الحديث الذي رواه ابن عبد البر، ونقله في "الإحياء": "أن قليل العمل ينفع مع العلم، وأن كثير العمل لا ينفع مع الجهل ". وفي حديث آ خر رواه الترمذي، وقال حسن صحيح: " فضل العالم على العابد، كفضلي على أدنى رجل من أصحابي". قال في "الإحياء":

" فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم يكن عبادة "هـ. [ج1/6].

يعني أن العابد الجاهل بواجبات العبادة، فلا عبادة له، وليس من العباد في شيء، إذ رب قائم في الصلاة وليس له من وقوفه إلا التعب، لإخلاله بشروط الصلاة، كما في الحديث: "رب صائم وليس له من صيامه إلا الجوع والعطش". لأن القاعدة الشرعية، كما في قواعد القرافي، دلت على أن كل جهل يمكن للمكلف دفعه، لا يكون حجة للجاهل، فإن الله بعث رسله

إلى خلقه برسائله، وأوجب عليهم كافة أن يعلموها، ثم يعملوا بها. قال: وفي الحديث: "الناس كلهم هلكى إلا العالمون". قال: فحكم على جميع الخلق بالهلاك، إلا العلماء منهم". ثم ختم كلامه بقوله:

"وأصل كل فساد في الدنيا والآخرة، إنما هو الجهل. فاجتهد في إزالته عنك ما استطعت، كما أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة، إنما هو العلم، فاجتهد في تحصيله ما استطعت"هـ[الفروق 251/4].

[مسألة الجهر بالذكر في تشييع الجنائز]

قلت؛ ومن تمام ما سبق فيما وقع له، أي للشيخ البقالي، مع رفيقه إلى مليلية الفقيه الخيِّر سيدي محمد لوقش، بجبل طارق، من مشاهدة جنازة إنجليزي، أنه كان يسودها السكوت والوقار، وتنبيه لوقش، لشيخنا إلى أن هذه الحالة في الجنائز؛ هي السنة، وأن الناس خالفوا السنة بالجهر بالأذكار والدعوات، ونحوهما.

قلت: ما قاله الفقيه لوقش، واستصوبه شيخنا وحكاه لنا؛ هو سنة السلف الصالح. وقد صرح فقهاؤنا بذلك، وأن المطلوب هو السكوت، والتفكر والاعتبار. فقد سئل سيدي العربي الفاسي، عن معنى حديث: "من دَخلَ القبر بلا إله إلا الله، خلَّصه الله من النار". هل المراد تمادي الإنسان عليها إلى وفاته؟ أو المراد ذكر الحاملين والمستغيثين له؟ فأجاب:

أما دخوله بلا إله إلا الله، فمعناه مصحوباً داخله بمعناها، أي الإيمان بالله واعتقاد وحدانيته، وهو معنى حديث: " من مات وهو يعلمُ أن لا إله إلا الله، دخل الجنة ". لأنه إذا مات وهو يعلمها، فمعناها مصحوب له إلى أن يبعث عليه، ولا يحمل على أن المراد ذكر الحاملين له والمشيعين، لاتفاق علمائنا على أن ذلك بدعة هـ.

وقال محيي الدين النووي في "الأذكار":

"واعلم أن الصواب والمختار، وما كان عليه السلف، رضي الله عنهم؛ السكوت في حال السير مع الجنازة، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك. والحكمة فيه ظاهرة، وهي

أنه أسكن لخاطره، وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال. فهذا هو الحق ولا تغترن بكثرة من يخالفه "هـ.[ص91] .

وخالف في ذلك، بعض الفقهاء المتأخرين، وأفتوا بجواز ذلك، ففي جواب للإمام ابن خجُّو، عن هذه المسألة:

ذكرُ الله مطلوب على كل حال، وفي كل حال، وينتفع الذاكر المخلص، بذكر الله لا محالة. ولا خلاف أن الميت ينتفع بدعاء من دعا له، وذلك كله محمود. ومن قال إن ذلك بدعة، فمراده البدعة الجائزة، لا المحرمة، ولا المكروهة، لأن البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام: محرمة، ومكروهة، وواجبة، ومستحبة، فالمسئول عنها، مباحة. ولما توفي الإمام الفقيه الأستاذ، بركة المتأخرين، شيخنا سيدي محمد ابن غازي العثماني، رحمه الله؛ أخرج جنازته من حضر حملها للقبور، بذكر مجهور، كان أوصى به فيما بلغنا، ولم أستحضره هـ.

وأصل ما قاله سيدي العربي الفاسي، لابن لب، وغير واحد. قلت؛ وفي كلام "البيان"، ما يفيد ذلك. ولقد وقفت في كتاب "سفر السعادة "، للإمام مجد الدين الفيروزابادي، على ما ربما يشهد لهذه الأذكار على سبيل الإشارة لا التصريح، إذ قال في فصل العادة النبوية في أحوال الميت وأداء حقوقه، ما لفظه:

"وأول الإحسان إلى الميت، أنه كان، صلى الله عليه وسلم، يأمر بتجهيزه نحو آخرته على أحسن الأحوال، وأفضل الصفات، ثم يقف، صلى الله عليه وسلم، وجميع أصحابه صفا؛ يستغفرون للميت، ويطلبون له الرحمة من حضرة ذي العزة، ثم يسيرون معه إلى مدفنه، ويقوم هو وأصحابه على قبره، يدعون له ويسألون له التثبت والرحمة، عند أشد ما يكون محتاجا إليها، ثم لا يزال يتعهد قبره، ويخصه بالدعاء الذي يستوجب الروح والراحة، والمغفرة والرحمة "هـ.[ص54].

نسب شيخنا البقَّالـي

أما نسب شيخنا هذا، فهو من الشعبة البقالية التي تنتسب لسيدنا حمزة بن إدريس، فهو شريف إدريسي. ولقد نازعهم في نسبتهم هذه، النقيب الشريف العلامة سيدي أحمد ابن عبد

الوهاب، الذي كان يتولى النقابة بهذه الناحية، من قبل السلطان المقدس مولانا إسماعيل العلوي، وكان ولاه أثناء عام سبعة وعشرين ومائة وألف (1127). حتى آل الأمر بين النقيب المذكور، وبين هذه الشعبة، إلى التدافع والخصام، والترافع لدى مجالس القضاء والأحكام، وأدلى الجانبان بما لديهم من الحجج، حتى كان الفوز لجانب البقاليين، إذ أتوا بالحجج التي عجز النقيب إذ ذاك أن يطعن فيها بمقبول شرعا. وحكمَ الحاكم الشرعي بثبوت نسبتهم، وكتب النقيب المذكور بعد الحكم:

{الحمد لله، حيث حكم الشرع العزيز أخلده الله، لمن ذكر أعلاه، مع وجود هذه النقول، لم يبق للنقيب المذكور في شرف أولاد البقاليين ما يقول. وكتبه موافقاً النقيب أحمد بن أحمد ابن عبد الوهاب، وفقه الله بمنه}.

ولما رُفعت الحجج التي يتمسك بها البقاليون، إلى السلطان مولانا سليمان، قدس الله روحه، كتب بخطه ما لفظه: {الحمد لله، أنوار النبوة لا شك لائحة على هؤلاء السادات. وكتب سليمان بن محمد، أمير المؤمنين، لطف الله به}.

قلت؛ وقد جمع بعض أهل العصر، ما في هذه الشعبة من النزاع، وما لها من الحجج على شرفها التي آل إلى الحكم بها، حتى لم يبق لخصومهم أي نقض أو دفاع، وكتب على ذلك جماعة من علماء العصر، فجزاهم الله خيراً.

والعجب من صاحب "الدوحة "، حيث ذكر في كتابه قطب هذه الشعبة وإمامها، وقبلة الوفود إليه من أنحاء المغرب وأقطارها، وهو جدهم سيدي علال الحاج، ولم يذكر نسبته، ولا حام حول وصفه بالشرف، مع أنه أثنى عليه ثناء جميلا، وأثبت له خوارق ظهرت على يديه، وأنه كان مقصد الراغبين.

وقد يجُاب عن هذا بأنه لم يكن الحال بينهما على تمام الصفاء، إما من أول مرة، والغالب أن يكون هذا الحال في الأثناء، بسبب ما تحدثه المعاصرة من التنافس والتجافي. وبنقل الترجمة المذكورة بتمامها، يظهر لك ما قلناه.

ترجمة سيدي علال الحاج البقالي

قال في ترجمته في "الدوحة" المذكورة:

"ومنهم الشيخ الفقيه، الأديب الفصيح، أبو الحسن علي، المعروف بالحاج ابن البقال، الأغصاوي، رحل إلى المشرق، وجال في أقطاره، نحو الست عشرة سنة، ولقي فيه المشايخ. ثم رجع إلى المغرب وأخذ عن الشيخ أبي محمد الهبطي، وعن الشيخ أبي عبد الله، محمد الخروبي السفا قسي، وعليه عوّل في طريقته. وكان كاتباً فصيحاً بليغاً لغوياً، ذا هيبة كبيرة ".

"وشمر عن ساق الجد في بداية أمره، فكان صواماً قواما، كثير الانقطاع عن الناس، وكانت الخوارق تظهر على يديه، إلى أن انتشر صيته، وبعد ذكره، وكبرت وطأته عند الملوك وغيرهم، وقصده الناس من جميع الآفاق. وفد على السلطان الغالب، مرتين، فقام بحقه أحسن القيام، وخرج إلى لقائه بظاهر فاس، وقضى حوائج الناس على يده، ووفّى له بكل ما سأله في قضائه، فكثر أتباعه، وفتحت أبواب الدنيا عليه من كل جانب، فتنزل منزلة الأمراء في الأمر والنهي ونفوذ الإرادة، وشمخت به نفسه عن الإنصاف".

" لقيته مرتين، ووقعت بيني وبينه؛ مناظرة في مسألة إقامة الجمع في قرى البادية، فأعجب في قوله ولم يرجع. فبلغ ذلك سيدي أبا محمد الهبطي، فأمرني بالإمساك عن الكلام معه، وقال لي: نحن صحبناه على طبعه".

"ووقعت بينه وبين الشيخ الفقيه، صاحبنا أبي عمران، موسى بن علي الوزاني، مناظرة في مسألة العدوى والفرار من الطاعون، وألف أبو عمران تأليفاً في ذلك، فلم ينصف له أبو الحسن".

"زعم بعض أمراء السلطان الغالب بالله، أنه كتب إليه وأخبره في كتابه، بوفاة السلطان المذكور، قبل نزولها بثلاثة أشهر. توفي في آخر سنة إحدى وثمانين[من القرن العاشر] ودفن بزاويته من بلاد غصاوة "هـ[دوحة الناشر32].

فمن هذه الترجمة، نستفيد ما كان بين صاحب "الدوحة "، وسيدي علال الحاج، من تدافع وتنافر. رحم الله الجميع.

وقد ذكر صاحب "الدوحة" التخالف الذي وقع بينهما في إقامة الجمع في قرى البادية، ولكنه لم يذكر رأي كل منهما، ولا وجه الخلاف. كذلك ذكر مخالفته لأبي عمران الوزاني، في مسألة الفرار من الطاعون. من غير بيان نظر كل واحد منهما.

والذي يظهر أن صاحب "الدوحة"، كان يذهب على ما هو المشهور في مذهب مالك، من لزوم إقامة الجمعة في هذه القرى الجبلية، لأنها مقامة الإقامة على التأبيد، مبنية بالقصب والحجارة، مطينة بالطين، ونحوه، متصلة البيوت، مخططة المسالك والطرق، مستقلة في نفسها، مستغنية عن غيرها في مرافقها، قائمة في الدفاع في سبيل أمنها. فهي بهذه الصفات ملحقة بالمدن والأمصار، في وجوب الجمعة عند مالك. قال المواق:

"قال ابن القاسم: الخصاص والمحال، إذا كانت مساكن كمساكن القرى في اجتماعها، وكان لهم عدد؛ لم يحل لهم أن يتركوا الجمعة" هـ.

نعم؛ إن كانت هذه الجماعة لها بيوت من شعر أو ثياب، وهم الأعراب الرحل، فلا تلزمهم، لأنهم في الغالب على نية عدم الإقامة، وهي المنازل المعروفة بالخيم، وهذا هو قول الشيخ خليل:(باستيطان بلدٍ أو أخصاصٍ، لا خيم).

والأخصاص؛ هي البيوت من القصب، وبلغة العامة هي "النواويل"، أما إذا كانت هذه النواويل مبنية بالطوب أو باللوح والقزدير، وما أشبه ذلك، فوجوب الجمعة عليهم من باب أولى. ولا يخفى أن بيوت أهل البادية في هذه العصور، قد شابهت المدن في إشادة بنائها.

أما مقابله، سيدي علال المذكور، فكان، والله أعلم، يذهب إلى أنه لا تجب الجمعة على أهل البادية مطلقاً، وكأنه كان يقلد في ذلك مذهب أبي حنيفة الذي يقول: إن الجمعة لا تقام إلا في المصر. وهي رواية أشهب عن مالك في "العتبية". قال الباجي في "المنتقى": وفي "العتبية"، من رواية أشهب عن مالك، ليس على أهل العمود جمعة" هـ[1-196]. والله أعلم.

[مبحث في مسألة العدوى والفرار من أرض الوباء]

وأما مسألة العدوى، والفرار من الطاعون، التي خالف فيها سيدي علال الحاج، أبا عمران الوزاني، فالذي يظهر أيضاً، أن أبا عمران كان يذهب مع ظاهر الحديث الصحيح، الذي في البخاري وغيره، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها ". وعلى قضية سيدنا عمر، لما خرج إلى الشام، ولقيه أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة ابن الجراح، وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. فاستشار في الإقدام على الدخول؛ المهاجرين الأولين، فاختلفوا، فمنهم من أشار بالدخول، ومنهم من أشار بالرجوع. ثم شاور الأنصار، فاختلفوا كذلك. ثم شاور مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فأشاروا عليه بالرجوع. فأخذ برأيهم، وعزم على الرجوع، فعارضه أبو عبيدة بقوله؛ أفراراً من قدر الله؟ فقال له عمر متعجباً؛ لوغيرك قالها يا أبا عبيدة. وبين أنه لا بأس بذلك بقوله: نعم؛ نفر من قدر الله، إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. ثم جاء سيدنا عبد الرحمان ابن عوف، فأعلمهم بما سمع من رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به بأرض" الخ. فحمد الله عمر، ثم انصرف ولم يدخل الشام. قال الحافظ ابن حجر:

"وفي هذا الحديث جواز رجوع من أراد دخول بلدة، فعلم أن بها الطاعون، وأن ذلك ليس من الطيرة، وإنما هي من منع الإلقاء إلى التهلكة، أو سداً لذريعة، لئلا يعتقد من يدخل إلى الأرض التي وقع بها، أن لو دخلها وطعن؛ العدوى المنهي عنها". هـ[فتح الباري114/10].

وبالجملة، فقد تخالفت الأنظار في ظاهر هذا الحديث، إذ ظاهره هو المنع من الدخول إلى أرض الطاعون، والمنع لمن بها من الخروج بعد وقوع الطاعون، كما هو مقتضى النهي. وقال قوم: النهي يحمل في الدخول على التنزيه، وأن القدوم عليه جائز لمن غلب عليه التوكل، والانصراف عنه رخصة. قاله في "الفتح" عن البغوي.

كما أن الخروج منه اختلفوا فيه، فمنهم من حمل النهي على التحريم، ومنهم من حمله على الكراهة، ومنهم من قال بالجواز دون كراهة، فقال جماعة يحرم الخروج منها، لظاهر

النهي الثابت في الأحاديث الماضية، وهذا هو الراجح عند الشافعية وغيرهم. ويؤيده ثبوت الوعيد على ذلك. وقال غيرهم: النهي فيه للتنزيه، فيكره ولا يحرم.

ونقل عياض وغيره، جواز الخروج من الأرض التي يقع فيها الطاعون، عن جماعة من الصحابة. منهم أبو موسى الأشعري، والمغيرة ابن شعبة، ومن التابعين؛ منهم الأسود بن هلال، ومسروق.

والخلاصة هنا، أن مسألة إثبات العدوى ونفيها، قد اضطربت فيها الأقوال والمسالك، قديماً وحديثاً، لما ورد فيها ما يعارض ظواهر الأحاديث والأخبار، التي ذهب كل فيها كل مذهب، فمنهم من أبطل حديث الفرار، ومنهم من رجح، ومنهم من نحى منحى الجمع، وسلكوا في طريق الجمع مسالك:

إحداها: نفي العدوى جملة، وحمل الأمر بالفرار من المجذوم، على رعاية خاطر المجذوم.

ثانيها: حمل الخطاب بالنفي والإثبات على حالتين مختلفتين، فلا عدوى، يخاطب به من قوي يقينه وصح توكله، بحيث يستطيع دفع اعتقاد العدوى. وعليه يُحمل حديث جابر، في أنه، صلى الله عليه وسلم، أكل مع مجذوم، وقال: " ثقة بالله وتوكلاً عليه.

ثالثها: تخصيص العدوى بالجذام، ونفيها فيما سواه.

رابعها: أن الأمر بالفرار من المجذوم، ليس من باب العدوى، بل لأمر طبيعي، وهو انتقال الداء من جسد لجسد، بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة. ولذلك يقع في كثير من الأمراض في العادة انتقال الداء من المريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة، وهذه طريقة ابن قتيبة، فقال: المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثته ومضاجعته. وكذا يقع كثيراً بالمرأة من الرجل وعكسه، وينزع الولد إليه، ولهذا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم، لا على طريق العدوى، بل على طريق التأثر بالرائحة، لأنها تسقم من واظب اشتمامها. قال:

" ومن ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: " لا يورد مُمْرِضٌ على مُصِح". لأن الجرب الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها، وآوى إلى مباركها؛ وصل إليها بالماء الذي يسيل منه، وكذا بالنظر نحو ما به". قال:

"وأما قوله لا عدوى، فله معنى آخر، وهو أن يقع المرض بمكان كالطاعون، فيفر منه مخافة أن يصيبه، لأن فيه نوعاً من الفرار من قدر الله "هـ[باختصار من فتح الباري 123/10].

قلت: وهذا يقرب مما يقوله أطباء العصر، من انتقال الداء بواسطة المكروب الذي اكتشفوه وشاهدوه بواسطة آلاتهم، وتوصلوا إلى أخذ صورة كل نوع من أنواع المكروبات، وميزوا لكل مرض مكروبه الخاص به في هذه الأمراض المعدية، وقالوا إن هذه الأمراض كثيرة، تصيب الإنسان بتأثر مكروبات مخصوصة، وتنتقل من شخص لآخر بالعدوى، وفي بعض الأحيان تنتشر بسرعة انتشاراً وبائياً، ولذا تسمى أيضاً بالأمراض الوبائية، ووصفوا هذه المكروبات بأنها كائنات عضوية حية، نباتية أو حيوانية، صغيرة جداً، لا ترى بالعين المجردة، ويلزم لمشاهدتها استعمال النظارة المعظمة.

قالوا وهذه المكروبات التي تنشأ عنها الأمراض، لم تكتشف إلا في سنة1850. وهذا المكروب يوجد في الهواء، وفي الماء النابع كذلك بقلة، بخلاف مجاري المياه والماء العادر. وتوجد أيضاً في الأرض بكثرة، وعلى سطح الجلد، وخصوصاً منابت الشعر، وتصل هذه المكروبات للجسم بالهواء، وبواسطة الماء والغذاء، وبواسطة الحشرات، ومتى وصلت للجسم بإحدى هذه الطرق، أثرت بحسب الاستعداد الشخصي. أنظر تمام ذلك في محله.

ومن الحشرات التي تنقل الأمراض بكثرة؛ البعوض (الناموس) ولهذا يحذر منها الأطباء، ويخشون من وقوعها على الأجسام، إذ قالوا إنها تنقل كثيراً من الأمراض الخطيرة من الحميات وغيرها. وفي هذا الموضوع، نقل الجاحظ في كتاب الحيوان، إذ أجرى شيئاً من[ذكر] غرائب انتقال المرض بواسطة السموم، في قصة طويلة، إذ قال [له] المحدث:

"عندي بالمعاينة ما ليس عند أحد. خرجت مع ابن عمي هذا، ومع ابني هذا، أريد قريتي الفلانية، فإذا بقرب الجادة، بعير قد نهشته أفعى، وإذا هو وافر اللحم، وكل شيء حواليه من الطير والسباع، ميت. فقمنا على قاب أرماحنا، وإذا عليه بعوض كثير. فبينا أقول لأصحابي هؤلاء، إنكم لترون العجب، أول ذلك أن بعيراً مثل هذا، يتفسخ من عضة شيء لعله أن يكون في جسم عرق من عروقه أو عصبة من عصبه، فما هذا الذي مجه فيه، وقذفه إليه، ثم لم

يرض بأن قتله وفسخه، حتى قتل كل طائر ذاق منه، وكل سبع عض عليه. وأعجب من هذا قتله لأكابر السباع والطير، وتركه قتل البعوضة، مع ضعفها ومهانتها ؟.

فبينا أنا كذلك؛ إذ أهبت ريح من تلقاء الجيفة، فطيرت البعوض إلى شقنا، وسقطت بعوضة على جبهتي، فما هو إلا أن عضتني، إذ قد اسود وجهي، وتورم رأسي، فكنت لا أضرب بيدي إلى شيء أحكه من رأسي وحاجبي، إلا انتثر في يدي. فحُملت إلى منزلي في محمل، وعولجت بأنواع العلاج، فبرأت بعد دهر طويل، على أنه بقي عليّ من الشين أنه تركني أقرع الرأس، أمرط الحاجبين "هـ.[119/5].

خامس المسالك: أن المراد بنفي العدوى، أن شيئاً لا يعدي بطبعه من غير إضافة إلى الله، رداً على من يعتقد تأثير الطبيعة استقلالاً، فأبطل النبي، صلى الله عليه وسلم، اعتقادهم، بالأكل مع المجذوم، ليبين أن الله هو المبلي وهو المعافي. ونهاهم عن الدنو منه، ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها. ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، وأن الله هو الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت. قال الحافظ: وعلى هذا أكثر الشافعية. ثم ساق كلام البيهقي [الذي قال، بعد أن أورد قول] الشافعي، في مسألة الجذام والبرص، عن أهل الطب والتجارب: أنه يُعدي الزوج كثيراً.

سادس المسالك: العمل بنفي العدوى أصلاً ورأساً، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة، لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك، فيظن أنه بسبب المخالطة، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع ". ثم ساق الحافظ، نصوص الأئمة الذين ذهبوا إلى هذا المسلك كأبي عبيد، وابن خزيمة، والطبري، والطحاوي هـ.[فتح الباري بتصرف واختصار124/10].

هذا، والذي كان يخالج فكر كاتبه، القليل العلم، العليل الفهم؛ أن لا تنافي بين نفي العدوى، والأمر بالفرار من المجذوم ونحوه، إذ النفي متوجه إلى الحقيقة، والأمر بالفرار منوط بالأسباب التي رتبتها الشريعة، فمن فر من المجذوم اتقاء من أن يناله من المرض ما بالمجذوم، مع اعتقاد أن ذلك إنما هو من الأسباب التي رتبها مسببها وخالقها، وأنها إن أعدت فليس ذلك من طبيعتها استقلالاً، وإنما هي بخلق خالقها ومسببها، وأنها قد تخلف كما هو مشاهد؛ ففراره هذا جائز، بل هو مأذون فيه، لا سيما فيمن ضعف تحمله، وغلبت عليه

بشريته، ومن لم يفر منه، واقتحم عقبة المخالطة، متوكلاً في ذلك على خالق الأسباب، ومعتقداً أنه لا يصيب نفساً إلا ما كتب عليها؛ فقد أصاب أيضاً، وسلك طريق أهل اليقين، وعباد الله الذين يراقبون مولاهم في كل لحظة وحين.

وبعد هذا، وجدت الشيخ العارف، ابن أبي جمرة، صرح بهذا، وبسط القول في ذلك بأوضح عبارة، وأجمل إشارة، وأنار المبحث بنور كلامه أي إنارة، فقال:

"الأمر بالفرار من الأسد ليس للوجوب، بل للشفقة، لأنه صلى الله عليه وسلم، كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأي وجه كان، ويدلهم على كل ما فيه خير. وقد ذكر بعض أهل الطب، أن الروائح تحدث في الأبدان خللاً. فكان هذا وجه الأمر بالمجانبة، وقد أكل هو، صلى الله عليه وسلم، مع المجذوم. فلو كان الأمر بمجانبته على الوجوب لما فعله". قال:

"ويمكن الجمع بين فعله وقوله، بأن القول هو المشروع من أجل ضعف المخاطبين، وفعله حقيقة الإيمان، فمن فعل الأول؛ أصاب السنة، وهي أثر الحكمة. ومن فعل الثاني؛ كان أقوى يقيناً، لأن الأشياء كلها لا تأثير لها، إلا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره، كما قال تعالى: (وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) فمن كان قوي اليقين، فله أن يتابعه، صلى الله عليه وسلم، في فعله، ولا يضره شيء. ومن وجد في نفسه ضعفاً، فليتبع أمره في الفرار، لئلا يدخل بفعله في إلقاء نفسه إلى التهلكة. فالحاصل أن الأمور التي يتوقع منها الضرر، وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها، فلا ينبغي للضعفاء أن يقربوها، وأما أصحاب الصدق واليقين، فهم في ذلك بالخيار". قال: "وفي الحديث ان الحكم للأكثر، لأن الغالب من الناس هو الضعف، فجاء الأمر بالفرار بحسب ذلك" هـ بنقل الحـــافظ في الفـــتح [125/10].

وهو كلام أنوار الفتح عليه ظاهرة، ولوائح إصابة التوفيق لفصوله ناضرة. ويقرب من هذا الجمع ما قاله الأبي، في شرح مسلم، عن الطيبي، قال:

"العدوى: تجاوز العلة صاحبها إلى غيره. يقال عدَا فلان فلانا في علته ". قال: والأطباء يجعلون ذلك في سبع علل؛ في الجذام، والجرب، والجدري، والحصبة، والنجر، والرمد، والأمراض الوبائية. واختلف في الحديث، أي حديث: "لا عدوى"، فحمله الأكثر على أن المراد به إبطال العداء في نفسه، كما هو ظاهر الحديث. وقيل: ليس المراد به إبطاله، وقد

قال صلى الله عليه وسلم:" فر من المجذوم فرارك من الأسد". وقال: " لا يورد ممرض على مصح ". وإنما المراد به نفي ما يعتقدونه من أن تلك العلل المعدية مؤثرة بنفسها، ويشير إلى هذا، قوله صلى الله عليه وسلم:" فمن أعدى الأول؟"، فأعلمهم أنه ليس الأمر كذلك، وإنما هو بمشيئة الله تعالى وفعله، وبين بقوله:" فر من المجذوم" وبقوله:" لا يورد ممرض على مصح"، أن مدانات ذي العلة، أحد أسباب العلة، فليتق كما يتقي الجدار المائل. ورجح هذا القول من حيث إنه يقع الجمع بين الأحاديث، وأيضاً فإن القول الأول يفضي إلى تعطيل الأصول الطبية، ولم يرد الشرع بإبطالها، بل ورد باعتبارها على وجه لا يناقض التوحيد ".هـ[37/6].

فبان لك من هذه الفصول، المطوقة بالنقول، أن التخالف الذي وقع بين أبي الحسن البقالي، وبين أبي عمران الوزاني [له ما يبرره]، إذ كل جانب له ما يتمسك به ويعتصم، ولكل وجهة بها يتحلى ويتسم، والله يسع الكل برحمته، ويكافيه على قدر حسن نيته.

الرجوع لترجمة الشيخ البقالي
[وذكرمسألة تتعلق بالقراءات السبع]

ولنرجع إلى ترجمة شيخنا البقالي، فنقول؛ إنه رحمه الله، أخذ كما هي العادة أولاً عن شيوخ بلده تطوان، الذين كانوا في ذلك العصر منتصبين للتعليم، ومن أجلّهم العلامة السلاوي، الذي تقدمت لنا ترجمته، وكان شيخنا ينوه به كثيراً، ويحلّيه بشيخنا.

وكثيراً ما كان ينقل لنا عنه في درسه، بعض ما جرى له في درسه. فمنها أنه ذكر لنا، ونحن نقرأ عليه مختصر خليل في فصل سجود التلاوة، لدى قول المؤلف:{وقارئ إن جلس ليتعلم}، واستفهم هل يختص ذلك بالقارئ بقراءة ورش، أو يتعداه لسائر القراءات السبع؟ فتوقف في ذلك. ثم قال إن شيخه السلاوي، سئل عن ذلك عند قراءة قول الشيخ خليل:{ولوح لمعلم ومتعلم} فتوقف.

قلت؛ ولم يظهر لي في ذلك وجه للتوقف، لأن القراءات السبع، كلها متواترة، وكلها قرآن، وروايتهم كلها متواترة موافقة لرسم المصحف الإمام، الذي فرقه الخليفة الثالث، على

الآفاق، وأمر باقتفائه وعدم الخروج عن مرسومه. وتعلم القرآن مطلوب، ولا يتعين قراءته برواية ورش، الذي هو أحد رواة نافع، ولا برواية غيره. ولا يخفاك أن نافعاً هو أحد القراء السبعة الذين اشتهروا في الأمة، وثانيهم ابن كثير، وثالثهم أبو عمرو ابن العلاء، ورابعهم عاصم، وخامسهم حمزة، وسادسهم الكسائي، وسابعهم ابن عامر. وأخذ عن هؤلاء جماعة، وتصدت الأمة للأخذ عنهم وتحقيق روايتهم، كما هو معروف.

وهذه القراءات السبع، وما ألحق بها، وإن لم تكن هي المقصودة بقوله صلى الله عليه وسلم:" إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كاف"، فقد قيل انها اشتملت على الأحرف السبعة أو على بعضها، وذلك أن هذه القراءات كلها مستمدة، كما سبق، من المصاحف العثمانية، وقد ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أنها مشتملة على جميع الأحرف السبعة، لأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن، لإجماع الصحابة على نقلها، وأجمعوا على ترك ما سواها. ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن، كما قاله ابن الجزري في "النشرفي القراءات العشر" هـ[30/1].

وعلى هذا، فالقراءات التي نقرأ بها اليوم، هي جميع الأحرف السبعة، لأنه لا يجوز للأمة ترك شيء من الأحرف السبعة، وإلا كانت الأمة جميعها عصاة مخطئين في ترك ما تركوا منه.[النشر33/1].

هذا ما أفاده ابن الجزري، وإن كان رجح أن المصاحف العثمانية، لم تشمل من الأحرف السبعة إلا على ما يحتمله رسمها. وعليه، فالقراءات السبعة أو العشرة أو الثلاثة عشر، لم تحو من الأحرف إلا البعض. انظر "النشر".

ووجه الشاهد، أن قراءة القرآن وتلاوته، ليست مطلوبة برواية خاصة، أو بحرف خاص، فالقارئ بقراءة نافع أو حمزة أو الكسائي أو غيرهم؛ قارئ للقرآن وتالٍ له. وكل مسلم مطلوب منه تلاوة القرآن، إما على وجه الندب، إن لم نقل على وجه الوجوب الكفائي، كما يؤخذ من كلام النشر. والتصدي لحفظ الروايات وضبط القراءات؛ هو اشتغال بمهم عظيم من مهمات الدين، مع ما في معرفة تلك القراءات من الفوائد، منها، كما في "الإتقان":

"إعظام الأجر من حيث إن القارئ يفرغ جهده في تحقيق ذلك وضبطه لفظة لفظة، حتى مقادير المدات وتفاوت الإمالات، ثم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والأحكام، من دلالة كل لفظ، و إمعانهم في الكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح"هـ.[الإتقان للسيوطي82/1].

وعليه؛ فالقارئ بأي قراءة من القراءات المتواترة، هو مشتغل بضبط القرآن وإتقانه، وإحكام حروفه وصيانة أحكامه، وهذا لا يخص ورشاً، ولا قالوناً، ولا حفصاً، ولا قراءة من القراءات، ولهذا قال الزرقاني في شرح قوله: (ومستمع فقط، إن جلس ليتعلم): حفظ القرآن من القارئ، أو إحكامه من مخارج حروف، وإدغام وإظهار وإقلاب وإخفاء، وغير ذلك، لتصان قراءته عن خلاف ذلك، أو ما يجوز من أحكامه كمد عارض، وهو ما يكون لعروض السكون لأجل الوقف، كمد نستعين، فإنه جائز، كما أن قصره مع الوصل كذلك"هـ.[شرح الزرقاني لمختصر خليل271/1].

وقد علمتَ أن هذا في سجود القراءة، وهو ظاهر جداً، وينبغي أن يلحق بذلك مس المُحدث، المعلم أو المتعلم؛ للوح القرآن حال تعلمه أو تعليمه. ولا يظهر وجه توقف شيخنا وشيخه، كما تبين لك مما قررنا، والله أعلم. نعم؛ عدم التوقف في سجود التلاوة أجلى وأظهر، ولا سيما على القول بوجوبها، كما هو مذهب أبي حنيفة. وبالله التوفيق.

رحلة شيخنا البقالي لحضرة فاس
لإتمام دروسه العليا

ثم بعد أن استوفى شيخنا ما أمكنه من الدراسة في مسقط رأسه على شيوخ عصره، أعمل الرحلة للأخذ عن شيوخ فاس. ويظهر أن رحلته إليها كانت في العشرة السابعة أوالثامنة من المائة الثالثة عشرة، إذ كانت الحضرة الإدريسية غاصة إذ ذاك بجهابذة العلماء، ونوابغ الفقهاء، كالإمام العلامة شيخ الجماعة، سيدي الحاج محمد كنون، صاحب اختصار الرهوني، وكالعلامة سيدي محمد بن عبد الرحمان السجلماسي، وكالعلامة سيدي أحمد ابن الحاج، صاحب حاشية المكودي، وكالعلامة المرنيسي، وكالعلامة الشريف البركة مولاي عبد المالك الضرير، وغيرهم.

وهؤلاء كلهم من شيوخ شيخنا ابن الخياط، حسبما يأتي ذلك في ترجمته. ثم إن التاريخ يعطي أن شيخنا البقالي، تمكن من الأخذ عن هؤلاء الجهابذة، وغيرهم ممن عاصرهم.
ثم رجع شيخنا لمسقط رأسه، وقد أدرك من المعارف مناه، وبلغ من فنون العلوم ما تمناه، فتصدى للتعليم في عدة مساجد، وكان في الأخير يلازم الدرس في مسجد جامع القصبة، إذ كان رحمه الله، يتولى الإمامة فيه والخطابة، إلى أن لبى داعي مولاه.

طريقته في التصوف

أما في طريق التصوف، فإنه لم يكن ينتسب إلى طريق من هذه الطرق المعروفة، إلا أنه كان في حالته أكبر صوفي، ويظهر أنه كان متمسكاً بطريقة شيخه السلاوي، من انحرافه عن هذه الطرق المحدثة، التي تعتمد على شيوخ جهلة، ليس معهم من حقائق التصوف أدنى معرفة، ولا لهم في قواعد الشريعة دراية، إذ يخوضون في تلك البحور دون سفينة، ويلججون فيها دون علم بمسالك النجاة. ولكن لم يكن شيخنا يصرح في ذلك بالانتقاد في الجماعات، كعادة الشيخ السلاوي.

أما السلاوي؛ فكان كثير الانتقاد، ولا سيما فيما يفعله الفقراء من التواجد والرقص، فقد شوهد يوماً، وكان حاضراً في مأتم بمسجد الزاوية الريسونية، وشرع الفقراء من الطائفة الحراقية في الذكر، ثم قاموا متواجدين على عادتهم، فقام السيد السلاوي في عجلة وإسراع، قاصداً باب المسجد للخروج، تاركاً نعليه، لما نابه من القلق، حتى أدركه بعض من كان هناك بنعليه، وكان فيما يظهر من شدة اغتياظه وإنكاره لهذه البدعة، عازماً على الخروج حافياً لفقد شعوره، لأنه اجتمع في هذه الحال؛ مخالفة ما كان عليه السلف، وفعل ذلك بالمسجد.
والفقيه المذكور، كان متمسكاً بما تقتضيه أصول الدين، من التمسك بهدي سيد المرسلين، ومنتهجاً نهج العلماء الراسخين، والفقهاء المتبعين لنصوص من سبقهم من المنكرين للمحدثات في أمر الدين.

إنكار العلماء

التواجد والرقص والتصفيق

ولم يزل أكابر العلماء، وأفاضل الفضلاء، من المجتهدين والمقلدين؛ ينكرون هذا التواجد الذميم، ويحاربون بسيوف أقلامهم من خرج بهذا الرقص عن الصراط المستقيم. قال الإمام عز الدين بن عبد السلام في كتابه،" قواعد الأحكام":

"وأما الرقص والتصفيق، فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أومتصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء، ممن طاش لبه، وذهب قلبه، وقد قال عليه السلام: " خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يُقتدى بهم، يفعل شيئاً من ذلك ". ثم قال:

"ومن هاب الإله، وأدرك شيئاً من تعظيمه، لم يُتصور منه رقص ولا تصفيق. ولا يصدر التصفيق والرقص، إلاَّ من غبي جاهل، ولا يصدران من عاقل فاضل. ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة، ولم يفعل ذلك أحد من الأنبياء، ولا معتبر من أتباع الأنبياء، وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء، الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ)، وقد مضى السلف، وأفاضل الخلف، ولم يلابسوا شيئاً من ذلك. ومن فعل ذلك أو اعتقد أنه غرض من أغراض نفسه، وليس بقربة إلى ربه. فإن كان ممن يُقتدى به ويعتقد أنه ما فعل ذلك إلا لكونه قربة؛ فبئس ما صنع، لإيهامه أن هذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرعونات ". قال:

"وأما الصياح والتغاشي والتباكي، تصنعاً ورياء، فإن كان عن حال لا تقتضيه، فقد أثم من وجهين؛ أحدهما: إيهامه الحال التامة الموجبة لذلك، والثاني: تصنعه به ورياؤه. وإن كان عن حال تقتضيه، أثم إثم ريائه، لا غير. وكذلك نتف الشعور، وضرب الصدور، وتمزيق الثياب؛ محرم لما فيه من إضاعة المال. وأي ثمرة لضرب الصدور، ونتف الشعور، وشق الجيوب؟ إلا رعونات صادرة عن النفوس"هـ.[210/2].

قلت: وما قاله سلطان العلماء، في مسألة التواجد والرقص، هو الجادة التي عليها أكابر فقهائنا، وسيأتي ما قاله إمامنا مالك في ذلك.

ولقد كان يجول في ضميري، إذ كتبت كلام الإمام ابن عبد السلام هذا، أنه كلام لا ترتضيه أهل الطريق الشاذلية وغيرهم، وربما عدوه خارجاً عن مناهج التحقيق. ولكن من العجيب أن وقع لي في ذلك ما يشبه الكرامة في حق الشيخ ابن عبد السلام، وذلك أني بعد أن فصلت عن كتابة كلامه هذا، وانتقلت لغيره، وقعت يدي من غير قصد، على أوراق من كتاب "المفاخر"، ففتحتها، فإذا أرى تلقاء بصري ما لفظه:

"فصل في السماع: قال رحمه الله، يعني الإمام الشاذلي: " سألت أستاذي، يعني مولانا عبد السلام، رحمه الله، عن السماع؟ فأجابني بقوله تعالى: (إِنَّهُمُ أَلْفَوا آبَاءَهُم ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ). وقال، رحمه الله: رأيت في النوم، كأن بين يدي كتاب الفقيه ابن عبد السلام، وأوراق فيها شعر من جزء، وإذا بأستاذي، رحمه الله، واقف، فتناول كتاب الفقيه بيمينه، والأوراق بشماله، فقال لي كالمستهزئ: أتعدلون عن العلوم الزكية، وأشار بيده إلى كتاب الفقيه؛ إلى أشعار ذوي الأهواء الرديئة، وأشار بيده إلى أوراق الشعر، ثم رماه في الأرض، وقال لي: من أكثرَ من هذه، فهو عبد مرقوق لهواه، وأسير لشهوته ومناه، يسترقون بها قلوب الغفلة والنسيان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب العرفان. يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود، ولم يحظ أحد منهم بما حظي أهل الشهود. لئن لم ينته الظالم، ليقلبن الله أرضه سماءً، وسماءه أرضاً. قال رحمه الله: فأخذني حال بوجد وبكاء، وأنا أقول إلاَّ إن النفس أرضية، والروح سماوية، فقال: بلى. إذا كانت الروح بأمطار العلوم دارَّة، والنفس بالأعمال الصالحة نبّاته، فقد ثبت الخير كله. وإذا كانت النفس غالبة، والروح مغلوبة، فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر، وجاء الشر كله. فعليك بكلام الله الهادي، وبكلام رسوله الشافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما. وقد أصاب الشر من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه. (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) "هـ.[المفاخر العلية، بالمآثر الشاذلية، لابن عباد ص81].

وأنا، بعد قراءة هذا الكلام، المحفوف بالنور، حصل لي اليقين بأنه كرامة في حق الشيخ ابن عبد السلام.

وقد سئل عن هذه المسألة، الإمام النظار، الحافظ علمي السنن والآثار، المحارب لذوي البدع وأهل الاغترار، أبو إسحاق الشاطبي، فأجاب قائلا، بعد كلام:

"وأما الغناء والشطح، فمذمومان على ألسنة السلف الصالح؛ فعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب. وقال المحاسبي: الغناء حرام كالميتة. وسئل مالك بن أنس، عن الغناء الذي يُفعل بالمدينة، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق".

"وهذا محمول على غناء النساء. وأما الرجال، فغناؤهم مذموم أيضاً، بحيث إذا داوم أحد على فعله وسماعه، سقطت عدالته، لما فيه من إسقاط المروءة، ومخالفة السلف. حكى عياض، عن التنيسي، أنه قال: كنا عند مالك، وأصحابه حوله، فقال رجل من أهل نصيبين: يا أبا عبد الله، عندنا قوم يقال لهم الصوفية، يأكلون كثيراً، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقصون. فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا. قال: أمجانين هم؟ قال: لا، قوم مشايخ وغير ذلك، عقلاء. فقال مالك: ما سمعت أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا.انظر كيف أنكر مالك، وهو إمام السنة، أن يكون في أهل الإسلام، من يفعل هذا، إلا أن يكون مجنوناً أوصبياً. فهذا يبين أنه ليس من شأن أهل الإسلام. ثم يقال: ولو فعلوه على جهة اللعب، كما يفعله الصبيان، لكان أخف عليهم، مع ما فيه من إسقاط الحشمة وإذهاب المروءة، وترك هدي أهل الإسلام، وأرباب العقول. لكنهم يفعلونه عن جهة التقرب إلى الله، والتعبد به، وأن فاعله أفضل من تاركه. هذا أدهى وأمر، حيث يعتقدون أن اللهو واللعب عبادة، وذلك من أعظم البدع المحرمات، الموقعة في الضلالة الموجبة للنار، والعياذ بالله ".انتهى المقصود. وانظر فتواه بتمامها في جامع معيار الإمام الونشريسي، صدر الجزء الحادي عشر[ص33].

وقد أجاب أيضاً عن هذا؛ الإمام الصالح، أبو عبد الله الحفار: "أن هذه الطائفة المنتمية إلى التصوف في هذا الزمان، وفي هذه الأقطار، قد عظم الضرر بهم في الدين، وفشت مفسدتهم في بلاد المسلمين، ولا سيما في الحصون والقرى البعيدة عن الحضرة، هنالك يظهرون ما انطوى عليه باطنهم من الضلال، من تحليل ما حرَّم الله، والافتراء عليه وعلى رسوله". ثم قال بعد أن أتى بنصوص شاهدة لرد هذه البدع:

"فليس في دين الله، ولا فيما شرع، أن يُتقرب إليه بغناء ولا شطح. والذكر الذي أمر به، وحثّ عليه، ومدح الذاكرين له، هو على الوجه الذي كان يفعله، صلى الله عليه وسلم، ولم يكن على تلك الطريقة من الجمع، ورفع الصوت على لسان واحد". قال:

"وإنما حمل هذه الطائفة على ارتكاب هذه الطرق المهلكة في الدين، أنهم لما احتاجوا إلى ما يحتاج إليه الناس، من المأكل والمشرب والملبس، وسائر المآرب التي يحتاج الإنسان إليها، ولم تكن لهم صناعة ولا حرفة يتعيشون بها، أو كانت، وصعب عليهم الكد في طلب المعاش، وتكلف الخدمة، لخسة همتهم، بركونهم إلى الدعة والراحة، فسول لهم الشيطان وزين لهم هذه الطريقة، التي هي لهو ولعب، ولبَّسوا فيها على الجهال، بالذكر الذي يفتتحون به مجالسهم، ولبسوا المرقعات، ونصبوها شبكة، إذ كانت لباس الخيَّار من أهل هذه الطريقة، قبل أن تدخلها البدع والضلالات. وقالوا لهم: هذه طريقة الأولياء، وهي أقرب الطرق إلى الله، وإلى نيل رضاه، والكون في جواره في الآخرة. فتهافت الجهال عليهم، وأوصلوهم إلى ما شاءوا من نيل شهواتهم إلى أقصى الغايات. فالإنسان إذا قيل له: كل واشرب، واشطح وتلذذ بالغناء، والهُ والعب طول عمرك، ولا تتعب في عبادة ولا غيرها، ثم مصيرك في الآخرة إلى أعلى الدرجات مع الأولياء والصالحين. فيرى أن هذه جنة معجلة قبل الموعود بها، وأنه قد حصل على ما لا غاية بعده. انظر تمام كلامه في "المعيار"[34/11]

اختلاف علماء الشريعة والحقيقة
في مسألة الغناء والتواجد، وما في ذلك

قلت؛ وهذه المسألة مما تكلم عليها علماء الشريعة والحقيقة، واختلف في الحكم فيها كل فريق منهم.

أما علماء الظاهر، فقد علمت ما قاله في ذلك مالك ومحققو أصحابه. وعلى ذلك أكابر المذاهب كلها، محتجين بأن ذلك لم يكن في زمنه، صلى الله عليه وسلم، ولا زمن أصحابه، ولا جاء كتاب، ولا سنة، باتخاذ مثل ذلك تعبداً. وكلام ابن عبد السلام، من الشافعية، والإمام الشاطبي، من المالكية، كافٍ في ذلك.

كما أن أكابر أهل التصوف، أنكروه في الجملة، كما سمعت في كلام أبي الحسن الشاذلي. ومن رخص فيه منهم، جعله خلاف الأولى في حق ذوي الفضل المقتدى بهم. قال حجة الإسلام في "الإحياء"، في آداب السماع:

"الأدب الرابع: أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء، وهو يقدر على ضبط نفسه. ولكن إن رقص أو تباكى، فهو مباح، إذا لم يقصد به المراءاة، لأن التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط. فكل سرور مباح، فيجوز تحريكه، ولو كان ذلك حراماً لما نظرت عائشة، رضي الله عنها، إلى الحبشة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهم يزفنون". قال:

"وقد روي عن جماعة من الصحابة، أنهم حجلوا، لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك". قال: "والزفن والحجل؛ هو الرقص، وذلك يكون لفرح أو شوق، فحكمه حكم مهيجه. إن كان فرحه محموداً، والرقص يزيده ويؤكده، فهو محمود. وإن كان مباحاً فهو مباح، وإن كان مذموماً فهو مذموم. نعم؛ لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر، وأهل القدوة، لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب. وما له صورة اللعب واللهو في أعين الناس، فينبغي أن يجتنبه المقتدى به، لئلا يصغر في أعين الناس، فيترك الإقتداء به "هـ.[267/2].

وفي هذا يقول ابن البنا، في المباحث الأصلية:

والرقصُ فيه دون هجم الحالِ ... ليس على طريقة الرجالِ

وإن يكن يقوى على السكونِ ... فإنـــه أســـلمُ للظنـــونِ

وبالجملة، فالوجد الهاجم على ذوي الأذواق، وأهل الأشواق، هو مسلمٌ لأهله، لأنه من قبيل الأحوال التي هي مواهب لا مكاسب. وأما التواجد، وهو استدعاء للوجد وتكلفه، بتباكي أو رقص، من أهل الصلاح، لا بأس به، وإن كان صاحبه معرضاً لسوء الظنون. ولهذا قالوا: إن تركه هو الأولى، بل ظاهر كلام صاحب "الفتوحات" إنكاره، إذ قال:

إن التواجدَ لا حـالٌ فتحمـــدَهُ ... ولا مـقـامَ لهُ حُكمٌ وسُلطـــانُ

يُزري بصاحبه في كل طائفـــةٍ ... وما لـه بطريـق القـوم مـــيزانُ

بل ذمَّه القومُ لما كان منقصـةً ... والنقصُ ما به في التحقيق رُجحانُ

وكلُّ ما هو فيه من يَقُومُ بـــهِ ... فـإنـهُ كُلَّـهُ زُورٌ وبُـهـتـــــانُ

اعتناء شيخنا البقالي بكتاب "الإبريز" مما يصح أن يقال انه (إبريزي) الطريقة

ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كان عليه شيخنا، من عدم انتمائه لطريق من الطرق الموجودة في عصره، فأقول:

إنه مع هذا، كان معتنياً بكتاب "الإبريز"، للعلامة ابن مبارك، الذي ضمنه أبحاثاً علمية، وإشكالات في موضوعات عقلية ونقلية، كان يسأل عنها ولي الله تعالى، الشريف المبارك، سيدي عبد العزيز الدباغ، حتى إن شيخنا، رحمه الله، كان يستحضر نصوص هذا الكتاب عند كل مسألة، حتى إن صديقنا المطلع، سيدي علي الخطيب، كان كثيراً ما يُبدي لي تعجبه من استحضار الفقيه المذكور، تلك النصوص في وقتها، وفي موضوعها اللائق بها. وبهذا يصح أن يقال إن شيخنا، رحمه الله، كان إبريزي الطريق.

وناهيك بها من طريقة، لأنها جامعة بين الشريعة والحقيقة، حسب ما يتحققه الناظر في هذا الكتاب، من تلك الأسئلة التي كان يلقيها ذلك العالم الظاهري، المتضلع في علوم الظاهر من نقلية وعقلية، على رجل عامي، لم يسبق له إلمام بالتعليم. بل كانت تلك الأجوبة الصائبة من العلوم الوهبية، والمعارف اللدنية، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلاّ وعلمه، (واتَّقوا اللهَ ويُعلِّمكُمُ اللهُ).

طريقة سيدي عبد العزيز الدباغ
متصلة بطريق العارف سيدي محمد ابن ناصر الدرعي

ويمكن أن يقال إن طريق الشيخ سيدي عبد العزيز الدباغ، كانت ناصرية، لأن الشيخ العارف ولي الله تعالى، سيدي العربي الفشتالي، كان أخذه للطريق عن العارف الكبير، سيدي محمد ابن ناصر الدرعي، وهو شيخه الأول، كما قاله سيدي عبد العزيز المذكور. والعارف الفشتالي، هو الذي أشار بخصوصية العارف الدباغ، وبشر بها قبل ولادته، وأوصى له بأمانة. وقد نقل سيدي أحمد ابن مبارك عن سيدي عبد العزيز، أنه قال:

"وسمعت أمي تقول: إن سيدي العربي الفشتالي، قال: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال لي: إنه سيزيد ولي كبير عند ابنة أختك. فقلت: يا رسول الله، صلى الله عليك، ومن أبوه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أبوه مسعود الدباغ. فهذا كان أعظم سبب في رغبة سيدي العربي، في مصاهرة أبي مسعود. وكان سيدي العربي يتمنى أن يدرك ولادة مولاي عبد العزيز. فلما كان الوباء الذي جاء عام تسعين وألف، مات سيدي العربي في ذلك الوباء، فلما حضرته الوفاة، أرسل إلى أبي مسعود، فجاءه، فقال: أين زوجتك؟ فأرسلوا إليها، فلما حضرا معاً، قال لهما سيدي العربي: هذه أمانة الله عندكما حتى يزيد عندكما عبد العزيز، فأعطوه هذه الأمانة. قال: وكانت الأمانة؛ شاشية وسباطاً كتابياً أسود، لأنه هو الملبوس في ذلك الوقت. قال: فأخذت أمي الأمانة وصانتها، فزاد عندها في ذلك الحمل بنت، ثم بقيت ما شاء الله، ثم حملت بي، فزدت عندهم، وبقيت حتى بلغت وصمت رمضان، فألهم الله تعالى، أمي إلى الأمانة. قال: فأخذتها وجعلت الشاشية على رأسي، ولبست السباط في رجلي، فحصلت لي سخانة عظيمة، حتى دمعت عيناي، وعرفت ما قال لي سيدي العربي، وفهمت إشارته. والحمد لله رب العالمين"هـ.[الإبريز 5/1].

ثم ساق في "الإبريز"؛ ترجمة سيدي العربي الفشتالي المذكور، وأنه كان من أكابر الأولياء، وأصحاب الكشف الكبير، ونقل كلام الناس في ذلك. ثم ذكر في الفصل الثاني مبادئ الشيخ الدباغ، وما قلب فيه بعد تحمله للأمانة، من البحث عن الشيخ، إلى أن التقى بسيدنا الخضر، وأعطاه الورد، بعد أخذه العهد أن لا يضيعه.

والورد هو أن يقول في كل يوم سبعة آلاف: اللهم يا رب بجاه سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، اجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله، في الدنيا قبل الآخرة. ثم ذكر قول الشيخ إنه احتوى على جميع ما عند سيدي العربي الفشتالي من الأسرار والخيرات. وكان ابتداء الفتح في ضريح سيدي علي ابن حرزهم بفاس، على يد قيمه سيدي عمر الهواري، وهو من تلامذة سيدي العربي الفشتالي. ثم أكمل الله له المقام، بإحصانه بشيخه وعمدته، سيدي عبد الله البرناوي، وبعد لقيه، رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، وكان الشيخ خائفاً. فلما رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له الشيخ البرناوي: يا سيدي عبد العزيز: قبل اليوم كنت أخاف عليك، واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى، سيد الوجود، صلى الله

عليه وسلم؛ أمن قلبي، واطمأن خاطري، فأستودعك الله عز وجل. فذهب إلى بلاده وتركني. وكانت إقامته معي بقصد أن يحفظني من دخول الظلام عليَّ في الفتح الذي وقع لي، إلى أن يقع لي الفتح في مشاهدة النبي، صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يخاف على المفتوح حينئذ، وإنما يُخاف عليه قبل ذلك. وانظر بقية الكلام في الإبريز[1/5-11].

والمراد من النقل هنا، أن سيدي عبد العزيز، رضي الله عنه، كان أصل طريقه من سيدي العربي الفشتالي، العالم الخبير، والولي الكبير. وسيدي العربي، أخذ طريقه عن الشيخ الشهير، سيدي محمد ابن ناصر الدرعي.

فمن الممكن أن يكون شيخنا البقالي، له إلى ذلك انتساب وانضمام، وبحبل تلك الطريقة تعلقُ واعتصام، بواسطة كتاب الإبريز، ولا سيما والطريق الناصرية تلاقي أخلاق شيخنا، رحمه الله، فشيخها الأول، ومؤسسها الذي كان في الإرشاد والتلقين عليه المعول، إذ كان شأنه وولده سيدي أحمد، الحض على اتباع السنة وسلوك طريق التعلم.

ترجمة الشيخ سيدي محمد ابن ناصر
وولده سيدي أحمد، والكلام على الطريقة الناصرية

وسيدي محمد هذا، هو ذاك الإمام الكبير، والعلامة الولي الصالح الشهير. قال تلميذه أبو سالم العياشي: كان شديد الإتباع للسنة في سائر أحواله، حتى في لباسه وأكله، وفي أنواع العبادات والعادات، سالكاً في ذلك سبيل الشيخ المرجاني، وابن أبي جمرة، وابن الحاج وأضرابهم هـ. وقال تلميذه أبو علي اليوسي: إنه كان، رحمه الله، مشاركاً في فنون العلم؛ كالفقه، والعربية، والكلام، والتفسير، والحديث، والتصوف. عابداً ناسكاً ورعاً زاهداً، عارفاً قائماً بالطريقة، شارباً من عين الحقيقة.هـ[صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ص174].

وقد أسس هذا الشيخ، رضي الله عنه، طريقته على عُمد التقوى، وبناها على دعائم إتباع الكتاب والسنة، وهو العروة الوثقى، والحبل المتين الأقوى، ولهذا نفع الله بعلمه الظاهر والباطن، وعمَّت أنوار هدايته كل المواطن، وأخذ الناس عنه شرقاً وغرباً، وامتلأت قلوب

الخلق من جمال جلاله حباً، وتواردت إليه الوفود للدخول في حزبه أفواجاً، إذ طلع في أفقهم بمعارفه وعرفانه سراجاً وهاجاً، فبنيت باسم طريقه رُبُط وزوايا بسائر مدن المغرب وأنحائه، وعطّرت نفحات أوراده كل آفاقه وأرجائه. وكان المركز الإمام بطرف الصحراء، من بلاد درعة، ناحية ورزازات، بقرية تمجروت.

وقد خلفه من بعده في الطريق، ولده أبو العباس سيدي أحمد، وهو ذاك الولي الصالح، إمام وقته علماً وعملاً، محيي السنن، ومبيد البدع، الذي كان لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يخاف في الله صولة صائل ظالم، فازدادت به الطريق الناصرية ظهوراً، فأخصبت بهدايته تلك الصحراء القاحلة وأشرقت به نوراً، حتى كان يقول بعض أشياخ العلم بفاس، كما نقله الإفراني في "الصفوة"، في الحديث الشهير: " لا تزال طائفة من أمتي بالغرب، وفي نسخة بالمغرب، ظاهرين على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله"؛ إن لم تكن هذه الطائفة الآن بتمجروت، فلست أدري من هم، لإقامة السنن فيها على وصفها المألوف هـ[ص221].

ولهذا تأسست بمدن المغرب وقراه، زوايا معدة للطائفة المباركة، وانتسبت إليها جماعة من أكابر العلماء، كالشيخ أبي سالم العياشي، وأبي الحسن اليوسي، إذ قال الثاني:

"وهذا الشيخ، يعني سيدي محمد ابن ناصر، هو الذي أخذنا عنه العهد والورد، وإليه ننتسب، وكل ما نذكره، يعني من الشيوخ سواه، على طريق انتفاع ما"هـ

ولتطوان، الحظ الوافر من هداية هذا الشيخ، إذ كان إمامها وناشر العلم بها، أبو الحسن سيدي علي بركة، الشهير؛ أخذ عنه، وإليه ينتسب في الطريق.

وهذه الطريق هي من فروع الشاذلية، بل هي شاذلية محضة، لأنه، أي الشيخ سيدي محمد الناصري، مؤسس الطريقة، أخذ عن سيدي عبد الله بن الحسين الدقي، عن أبي العباس أحمد بن علي الحاجي، عن أبي القاسم الغازي، عن أبي الحسن علي بن عبد الله السجلماسي، عن الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي، عن الشيخ زروق، كما قاله اليوسي. وسند الشيخ زروق إلى أبي الحسن الشاذلي، وقد تقدم لنا نظمه صدر الجزء الأول من هذه الفهرسة، في نظم الورد الدرقاوي، وهو:

عن زروق عن الإمام الحضرمي وهو ليحيى القادري ينتمي

عن قطبهم وهو علـي بـن وفـــــا عن سيدي محمد بحر الصفـــا
عن شيخه النجاري من ذوي الهمم عن الإمام ابن عطاء ذي الحكم
عن شيخه المرسي عن أبي الحسن حامي الحقيقة وحافظ السنـــن

—

الورد الناصري، ومبنى هذه الطريقة على كثرة الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم

أما الورد الناصري، فهو كما بينه الشيخ في "أجوبته"، إذ سئل عن الدخول في طريقه، فقال: وإنما طريقتنا الذكر، وهو نحو ما ذكره الشيخ السنوسي في آخر شرح العقيدة الصغرى، فإن رغبتم في الدخول في السلسلة، فصححوا التوبة بشروطها، وعليكم بتقوى الله، والتوكل عليه في جميع الأمور، والتأهب ليوم النشور، والتزود لسكنى القبور، وإذا فرغتم من الأذكار المأثورة بعد صلاة الصبح، فقولوا:

- أستغفر الله، مائة مرة.
- اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، مائة كذلك.
- لا إله إلا الله، ألف مرة. هذا إذا كان ممن يعالج القراءة. وأما المرأة فحسبها من الهيللة مائة مرة. وإن كان عامياً فليذكر الهيللة سبعة آلاف مرة، ويزيد تمام كل مائة؛ محمد رسول الله. صلى الله عليه وسلم.[قال]:

"هذا هو الورد بين الصبح والصبح. وإن استطعتم أن لا يفتر لسانكم عن لا إله إلا الله، كل وقت وحين، فهو الكمال. والمختار إطالة المدّ، إن كان يستجلب بذلك مزيد خشوع، ولابد من تحقيق الهمزة. وأفضل الأوقات للورد، ما بين الصبح والطلوع، فإن استوفاه حينئذ، كفاه إلى غد؛ إلا أن الأفضل أن لا تكون له ساعة خالية عن ذكر الله. وإن سها عنه في ذلك الوقت، فليذكره وقت ما تيسر، فإن ما بين الصبح والصبح وقت واسع له ". أنظر تمام كلامه في الأجوبة.[ص119].

وفي آخر هذا الجواب ما يفيد أن هذه الطريق بناها على كثرة الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم.

الصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم، تفرج كل هم

قلت: ولا غرو في ذلك، فإنها العروة الوثقى، والسبب الأقوى، وباب الله التي يدخل منها السالك، والصلة العظمى التي يصل بها العابد الناسك، وهي المفرجة عند اشتداد الأزمات، والدافعة عند نزول النكبات. قال الشيخ سيدي الطيب ابن كيران، في " شرح توحيد المرشد":

"وطريق الشاذلية، مبنية على الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم. وقد قال إمامهم أبو الحسن: صلاة واحدة عليه، صلى الله عليه وسلم، تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة. وفي "شرح الصغرى"، لمؤلفها: رأيت لبعض أهل التصوف، أن من فقد شيوخ التربية؛ فليكثر من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، فإنه يصل بها لمقصوده. وفي "القواعد" للشيخ زروق: قال شيخنا أبوالعباس الحضرمي: وعليك بدوام الذكر، وكثرة والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، فهي سُلَّم ومعراج وسلوك إلى الله، إذا لم يلق الطالب شيخا مرشدا، كما قاله بعض أهل الصدق مع الله ". هـ[ملزمة25 ص4 ط حجرية].

ولا غرابة في هذا، إذ الشيخ إنما هو واسطة صغرى، والنبي صلى الله عليه وسلم، هو الواسطة العظمى، وهو باب الله الذي فتحه الباري جل وعلا، للوصول إليه، فمن تعلق بالواسطة العظمى، وتمسك بالعروة الوثقى، وأكثر في التعلق به، وتوسل إليه بالصلاة عليه؛ نال مرغوبه لا محالة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إن أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة ". ولا يخفى ما ورد عنه، صلى الله عليه وسلم، من فضل الصلاة عليه. وراجع ذلك في: الشفا، والإحياء، وأول دلائل الخيرات.

حرص الشيخ على عدم التشريك في أخذ الأوراد، ورأيه في أخذها من الكتب

قلت؛ وكان من شأن الشيخ الناصري، الغيرة على التلميذ، والحرص على عدم التشريك في أخذ الأوراد، ويرى ذلك أنه من صميم الطريق الشاذلية؛ فقد سأله بعض التلاميذ قائلا: إنه لا يأخذ إلا وِرْدَ واحدٍ، ولا يأخذ عن الغير، خلاف ما يفعله بعضهم من الأخذ عن هذا وهذا. فأجاب: أنتم على الفرقة الشاذلية، وهم من أهل الغيرة.

كما أنه كان يرى أن أخذ الأوراد من الكتب؛ كالغزالي، وزروق؛ لا تنفع، وربما يكون في ذلك مضرة، قائلا: لأن أوراد الأولياء، تكون لبعض الناس فيها منفعة، ولبعضهم مضرة.

وهذا ما قاله هذا الشيخ، رحمه الله، وهو مع شيوعه واشتهاره بين أهل هذه الطائفة وغيرها، حتى إنه بلغني عن بعض أشياخنا العلماء، كان يقول في بعض أهل العزلة من أهل التقوى، وكان وقع له آخر عمره شبه اختلال؛ إن ذلك كان من إدامة ذكر الإسم المفرد بدون إذن، والله أعلم.

وأنا دائما أستشكله، لورود الأمر بالأذكار، في الكتاب والسنة، من التسبيح والهيللة، والاستغفار، وغير ذلك من الأذكار التي بلغها الشيخ لأتباعه، وأقول: كيف يأمرنا الله في كتابه بذكره على كل حال، ويحضنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على ذلك، ويبين لنا حصة تلك الأذكار أفراداً وجمعاً، ونحن نتوقف على إذن بشر، ونلغي ما أمر الله ورسوله به؟.

[كلام أهل التحقيق في مسألة توقف الأذكار على إذن خاص]

ولكن بعد هذا، استوضحت من كلام أهل التحقيق، أن التوقف في هذه الأذكار على إذن خاص، ليس على إطلاقه، وإنما هو مبني على اصطلاح القوم في سلوكهم، وأخذهم الورد الخاص عن شيخ التربية، لأجل الوصول إلى الحضرة الإلهية.

أما الذكر لأجل الفضل الوارد، فلا يفتقر لذلك. وهذا يمكن أخذه عن شيوخ عدة، لأجل التبرك. وقد تكلم الشيخ المسناوي، في أجوبته على هذا المعنى وأطال. وخلاصة ذلك، أنه قال عن الشيخ زروق: "يحتاج مستعمل الأذكار لاعتبار الحالة الذاتية والزمنية، وذلك يخفى، إلا على ذي بصيرة، والغالب فقده في هذه الأزمنة. فعليكم بظاهر الشريعة، وظاهر الحقيقة، بعد طلب الفتح من الله بكنه الهمة" هـ. قال الشيخ المسناوي:

"والتلقين الجاري اليوم، بخلاف ذلك كله، فإنه عند متعاطيه عامٌ في الأشخاص والأحوال". إلى أن قال:

"وإذا كان التلقين الوقتي ليس إلا لمجرد الأجر، لم يكن مقصوراً على أحد، ولا محصوراً بعدد، ولا متوقفاً على إذن شيخ ولا غيره، لأن الله ورسوله أمرا بالذكر، وحضا عليه كتاباً وسنة. فكل عالم بذلك مطلوب أن يأمر بما أمرا به، ويحض على ما حضا عليه. ويكون ذلك من باب الدلالة على الخير، والأمر بالمعروف، الذي العلماء فيه سواء، لا من باب ادعاء المشيخة للغير، واعتقاد المزية والتقدم عليه. ولا يلزم أيضا والحالة ما ذُكر؛ الاقتصار في التلقين على نوع واحد منه، لاستواء الأنواع كلها في المطلوبية وابتغاء الأجر بها. وإنما يلزم ذلك عند أهل التربية، بما يلقنون منها، الجارين في ذلك على اصطلاحهم الخاص، وطريقهم المعهود "هـ.[نوازل المسناوي178].

ومحصل المباحث هنا :

هل تحتاج هذه الأذكار إلى إذن خاص؟

هل إذا أخذ التلميذ ورداً عن شيخ، يجوز له أن يأخذ عن غيره ورداً آخر؟

من هو شيخ التربية الذي يتقيد به المريد؟

شيوخ الوقت لا تنطبق عليهم حقيقة شيوخ التربية:

الصدر الأول لم يكن لهم إمام ومرشد وشيخ، إلا النبي، صلى الله عليه وسلم

لا يخفى أن الصدر الأول، وهو عصر الصحابة والتابعين ومن يليهم، لم يكن لهم إمام ومرشد وشيخ، إلا النبي، صلى الله عليه وسلم. فهو الذي يتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهو الذي يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فآمن به المؤمنون، وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل إليه.

ثم لما انتقل، صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى، ترك النور الذي أنزل معه، وهو كتاب الله، المشروح بسنته، التي هي وحي من الله، فتلقى أصحابه، رضي الله عنهم، ذلك النور بكمال القبول، وشمروا للعمل به، والاجتهاد في امتثال أمره، واجتناب نهيه، فكانوا بعده هم الملقين لوحيه، والمرشدين لمن أتى من بعده، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عُضُّوا عليها بالنواجد". وقال: " اقتدوا بالذين من بعدي؛ أبي بكر وعمر". وقال فيما يروى عنه: "أصحابي كالنجوم؛ بأيهم اقتديتم اهتديتم ". وذلك هم الذين تلقوا منه الشريعة، وهم الذين حملوها لينقلوها لمن بعدهم، كما قال لهم:" ليبلغ الشاهد الغائب". وقال: " بلغوا عني ولو آية".

ثم جاء التابعون بعدهم، فكانت حالهم كحال الصحابة، يهتدون بهداهم، ويقتفون آثارهم في كون إمامهم القرآن، وهديهم سنة سيد ولد عدنان.

وهكذا كان شأن أئمة تابعي التابعين، فلم يكن لديهم شيخ يُعتمد، ولا إمام إليه يُستند، إلا الكتاب والسنة. ومن شاء ابتداع شيء مما سواهما، ردوه إلى الله ورسوله، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله.

فكان الحاكم، يرجع إلى أحكام القرآن والسنة، والقاضي، يستفتي في عقودها نصوصها، والفلاح يقتدي بما يفهم أولو العلم من أحكامها. وهكذا الصانع والأجير، وغيرهم. والزاهد يقرأ:(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)، والذاكر يتلو:(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ). ولم تكن الأمة تحتاج إلى شيء سواهما، لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، ما فارق الدنيا، حتى ترك الأمة على محجة واضحة بيضاء، لا يزيغ عنها إلا ضالّ أو مضلّ، فكان أفراد الأمة وقراؤها، لا يحتاجون في العمل إلى إذن إمام أو شيخ، بل إمامهم، كما قدمنا، الكتاب والسنة.

نعم؛ من ليس من القراء والعلماء، يسأل عن تفسير ذلك أهل العلم، كما قال تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)، والعلماء إذا اختلفوا، رجعوا إلى الكتاب والسنة،

بمقتضى قوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)، ففي الكتاب والسنة، تبيان لكل ما يَهُمُّ المؤمن، من أوراد صلواته، وأذكاره، وغير ذلك، مما يحتاج إليه في دنياه وآخرته.

[نشأة الصـــــوفية وتطورها]

نعم؛ لما تغيرت الحال، وانقرض عصر الصحابة، ومن جاء بعدهم من التابعين، وبدأ في الدور الثالث، بعض فتور في الهمم، واعتراهم نقص في الاجتهاد في الأعمال، بسبب اتساع الدنيا على الأمة، لسعة فتوح الأقطار، واختلاط ليل الضَّلال بالنهار، وامتزاج الصادق بالكاذب، واخضرّ في الدين جانب، وصار يجف في جانب، وتجلَّت زهرة الدنيا بحسنها الفاتن، وأقبل عليها الناس في كل المواطن، وكاد أن يعمَّ الضلال، ويعود صحيح الإسلام إلى الاعتلال والاختلال؛ قامت طائفة من أهل التقوى والزهد، ورفضوا الدنيا وأسبابها التي توصل إلى الافتتان بها، وجعلوا طريقهم إلى الله، هو الزهد في العرض الفاني، واشتغالهم بما يوصلهم للدائم الباقي، وجعلوا همّهم بالله واحداً، بحيث لا يرون غيره في الوجود، ولا يوجهون وجههم إلا للملك المعبود، حتى صفت قلوبهم من أدناس الدنيا، وصفت أفئدتهم لتلقي ما يوصلهم إلى المرتبة العليا؛ فسموا الصوفية.

فالأصل في هذه الطريق، هو روح الشريعة، من إخلاص العبادة لله، والتوجه إليه في كل حال، وإسناد الأمر كله إليه، مع الاعتصام بالكتاب والسنة، وعدم إتباع المحدثات. وهذه هي سيرة أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسيرة التابعين بعدهم، وتابعي التابعين.

افتراق الناس إلى فرقتين؛
أهل الباطن، وأهل الظاهر، وتفسير ذلك

ولكن بعد أن امتازت هذه الطائفة، واختصت بطريقها الذي مبناه على الزهد الكلي في هذا العرض الفاني، وإيثار الاستعداد للأخرى، وإدمان العبادة وصرف العناية لإصلاح الباطن؛ افترق الناس إلى فرقتين:

أهل الظاهر، ويعنون بذلك الفقهاء، الحارسين لحدود الشريعة وأحكامها، الصارفين أوقاتهم في أصولها وفروعها.

وأهل الباطن، وهم الذين وجهوا وجهتهم إلى عبادة مولاهم، وصرفهم العناية إلى ما يصلح باطنهم، أي مع القيام بالواجبات الشرعية الظاهرة. وإلا فهو ليس بظاهري، ولا باطني، كما أن أهل الظاهر لابد لهم من اعتبار أمر الباطن، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء، أن أهل الظاهر هم القائمون بأمور الشريعة الظاهرة، وأهل الباطن هم القائمون بأمور الباطن، من إصلاح القلوب وتطهيرها من أهوائها، وتعمير أوقاتهم بالطاعات، من صلاة وأذكار.

قال أبو الحسن اليوسي في" قانونه":

"علم التصوف وهو فقه أيضاً، غير أن الفقيه اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة، من حيث سقوط الحرج والذم وحصول الأجر وانضباط أمر المعاش. والصوفي اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة، من حيث طلب الكمال وإقامة العبودية لحق الربوبية " هـ[ص 48].

ولكن بعد هذا، صارت هذه كأنها مستقلة عن الشريعة، بسبب ما أحدث فيها من البحوث المباينة للشريعة. ودخل فيها الدخلاء، وامتزج بها أهل الكذب والافتراء. وهذا الاختلاط هو الذي حمل بعض العلماء من أهل الظاهر والباطن، للرد على الصوفية وتضليلهم. ولكن مع الإمعان، لا يكون الرد متوجهاً إلا على من خرج عن منهج الصوفية الصحيح. نعم؛ كان أكابر الأمة، من الصدر الأول، من الأئمة المجتهدين، ومن في طبقتهم، لا يرون الخروج عن ظاهر الكتاب والسنة، من أي فرد كان، ولا يسوغونه بوجه من الوجوه، ويرون [كما قال القائل]:

وخير أمور الناس ما كان سنة وشرُّ الأمور المحدثاتُ البدائعُ

ويمتثلون لقوله، صلى الله عليه وسلم: " أما بعد. فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار" . وبقوله:" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد."

ولهذا لما سمع الإمام أحمد، كلام الحارث المحاسبي، قال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم.

وسئل أبو زرعة، عن الحارث المحاسبي وكتبه. فقال للسائل: " إياك وهذه الكتب. هذه الكتب كتب بدع وضلالات. عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل، عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمة، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس، وهذه الأشياء؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم. يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق. ثم قال: ما أسرع الناس إلى الابتداع"هـ. بنقل أبي الفرج في تلبيسه[ص166].

هذا ما يقوله أهل العلم من الصدر الأول، في الصوفية من الصدر الأول. وابتداعهم إذ ذاك كان خفيفاً، ولا يخلو من مستند شرعي في الجملة.

رؤساء أهل التصوف
وعلماؤهم يحضون على إتباع الكتاب والسنة

ثم تزايد الأمر وعم البلاء، بدخول الجهال في هذه الطريق، وانتسابهم إلى أهل التصوف، وهم ليسوا منهم في ورد ولا صدر. وقد عقد إمام الصوفية؛ الإمام السهراوردي، باباً في ذكر النسب إلى الصوفية وليس منهم؛ إذ أوائل الصوفية كان مبنىَ طريقهم، كما قدمنا، على الزهد في الدنيا، والإقبال على عبادة المولى، مع التمسك بالكتاب والسنة، والاعتصام بحبلها المتين، كما أفصح بذلك زعماؤهم.

فعن أبي سليمان الداراني، قال: ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين؛ الكتاب والسنة.

وعن أبي يزيد، أنه قال: لو نظرتم إلى رجل أعطِي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود. وعنه أنه قال: من ترك قراءة القرآن، والتفقه، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى؛ وادعى بهذا إنسان، فهو مبتدع.

وعن السري السقطي: من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم، فهو غالط.

وعن الجنيد أنه قال: مذهبنا هذا مقيد بالأصول؛ الكتاب والسنة. وقال: علمنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه؛ لا يقتدى به. وقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات. لأن التصوف من صفاء المعاملة مع الله، سبحانه وتعالى. وأصله التفرغ عن الدنيا، كما قال حارثة: عرفت نفسي في الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري.

وعن النوري: "من رأيته يدعي مع الله، عز وجل، حالة تخرجه عن حد علم الشرع؛ فلا تقربنه. ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر؛ فاتهمه على دينه".

فهؤلاء أعلام الصوفية وأئمتهم وقادتهم وشيوخهم، الذين أخِذَت عنهم الطريق، يقولون إن طريقهم مبناها على الكتاب والسنة، وإن من خالفها، وانتمى إليهم، فهو ليس منهم، بل هو كذاب أشِر، ومبتدع مخترع.

وإذا علمنا هذا، ورأينا من يخالف ذلك، ويتبع ما تشابه ابتغاء الفتنة، فتيقن أنه ممن في قلبه زيغ وخروج عن جادَّة القوم، هذا ممن لم يثبت صلاحه وجلالته.

أما من كان من أهل العلم والصلاح، وسلوك الجادة، ووقعت منه مخالفة في الظاهر، فإنه يُحكم عليه بأنه غالط، أو له في ذلك تأويل لم نطَّلع عليه، إذ قد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة، وله غلطات، كما قاله أبو الفرج.

أما الذي لم يثبت صلاحه، وكان متبعاً غير سبيل أهل الدين، ومخالفاً في أقواله وأعماله لسنن المهتدين، فهذا لا يؤبه بـه، ولا يقام له وزنُ.

انتقاد العلماء

بعض ما خالف فيه الصوفية ظاهر الشريعة

ولم يزل علماء الظاهر، ينكرون على أكابرهم فيما أحدثوه، مما هو مخالف للشريعة. فمن ذلك؛ أنهم أحدثوا صلاة ركعتين بعد لبس المرقعة، والتوبة. ومنها إحداثهم بناء الرُّبُط والزوايا للتعبد، وقد انتقد عليهم بوجوه؛ منها أن فيها إضراراً بالمساجد العامة، وتقليل

القصد إليها، وتقل الخطى للثواب إليها. وهذا إذا كان القصد صحيحاً، كما قاله أبو الفرج، وإلا فهي مَناخ للبطالة، وإعلام لإظهار الزهد. والجمهور منهم يأتي إليها للاستراحة من كدّ المعاش. ومنها خروجهم عن أموالهم، وجلوسهم على بساط الفقر يترقب من يعطيه. ومقصد الصوفية الصادقين صحيح، أما غيرهم فهو تابع لشهوته.

وللحارث المحاسبي، كلام في التحذير من جمع المال، صدره بقوله:

"أيها المفتون، متى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه، فقد أزريت بمحمد، صلى الله عليه وسلم، والمرسلين، وزعمت أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، لم ينصح الأمة، إذ نهاهم عن جمع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم، وزعمت أن الله لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم، وما ينفعك الاحتجاج بمال الصحابة. ودّ ابن عوف، في القيامة، أن لو لم يوت من الدنيا إلا قوتاً ". ثم ذكر ما وقع لأبي ذر مع كعب الأحبار، بعد موت ابن عوف. ثم ذكر شواهد من الحديث وغيره، على موضوعه. وقد أيد أبوحامد، مقالة المحاسبي، هذه بقوله:

" فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صرف إلى الخيرات، إذ أقل ما فيه اشتغالهم بإصلاحه عن ذكر الله، عز وجل. فينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته، فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه، فهو محجوب عن الله، عز وجل"هـ.[تلبيس ابليس ص178]. وقد تصدى أبو الفرج، لرد مقالة المحاسبي، وتتبع كلامه فصلا فصلا، جملة جملة.

[مبحث في التفاضل بين الغنى والفقر]

أما فتنة المال، ولو كان حلالا، فلا شك فيها، فكلام المحاسبي، والغزالي، واضح لمن أنصف. وكلما ازداد المرء درهماً، إلا وازداد غماً. وقد سمعت في هذا المعنى، حديثاً من شيخنا العلامة القاضي سيدي محمد بن الطالب الفاسي، إذ قال لي يوماً، وهو قاض بثغر طنجة، أثناء عام 1330، وقد أقبلت عليه الدنيا، قال لي، رحمه الله، بعد مذاكرة في شأن الدنيا وفتنتها، ما هذا لفظه: صدق مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ قال: " ما

ازداد الإنسان درهماً إلا وازداد غماً". هـ. ولكن إلى الآن، ما عثرت على تخريج هذا الحديث، والله أعلم.

وفي "الحلية"، بسنده إلى بكر بن عبد الله المزني، أنه كان يقول: "يكفيك من دنياك ما قنعت به ولو كفا من تمر، وشربة ماء، وظل خباء، وكل ما يفتح عليك من الدنيا ازدادت نفسك لها مقتا".

وقال أبو الفرج ابن الجوزي:

"أما شرف المال، فإن الله عز وجل، عظم قدره وأمر بحفظه، إذ جعله قواما للآدمي، وما جعل قواما للآدمي الشريف، فهو شريف، فقال تعالى:(وَلاَ تُؤتُوا السُّفَهَاء امْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَماً) ونهى عز وجل، أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال:(فَإِن انسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) وقد صح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه نهى عن إضاعة المال، وقال لسعد:" لأن تترك ورثتك أغنياء، خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس". وقال: " ما نفعني مال كمال أبي بكر".

ثم ذكر عن عمرو بن العاص، أنه قال: " بعث إليَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني"، فأتيته، فقال: " إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة ". فقلت: يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام. فقال يا عمرو: " نعم المال الصالح، للرجل الصالح ". وورد أنه دعا لأنس بن مالك بكل خير، وفي آخر دعائه: "اللهم أكثر ماله وولده".

قال ابن الجوزي: "فهذه الأحاديث مخرجة في الصحاح، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة، من أن إكثار المال حجاب وعقوبة، وأن حبسه ينافي التوكل. قال: ولا يُنكر أنه يُخاف من فتنته، وأن خلقا كثيرًا اجتنبوه لخوف ذلك ". ثم قال:

"وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة، فبئس المقصود. وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح؛ أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية، أفضل من كثير من الطاعات". ثم قال: "وأبلغ من هذا، أن يعقوب

عليه الصلاة والسلام، لما قال له بنوه: (وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم. وأن شعيباً طمع في زيادة ما يناله، فقال: (فَإِن أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)، وأن أيوب، عليه السلام، لما عوفي نثر عليه رجل جراد، أي جراد كثير من ذهب، فأخذ يحثو في ثوبه يستكثر منه، فقيل له أما شبعت؟ قال: يا رب من يشبع من فضلك؟! وهذا أمر مركوز في الطباع، فإذا قصد به الخير، كان خيراً محضاً "هـ.[تلبيس إبليس ص178].

ومن هذا الوجه، اكتسب بعض الأنبياء أموالاً وضياعاً. فقد كان لسيدنا إبراهيم، زرع ومال. وكذلك كان لشعيب وغيره.

وأما الصحابة، فلا يخفى ما كان فيهم من الغنى. فغنى سيدنا عبد الرحمان بن عوف، مشهور. وكذلك غنى سيدنا عثمان. وقد خلف سيدنا طلحة ثلاثمائة بهار، في كل بهار ثلاثة قناطر، والبهار الحمل. وكان مال الزبير خمسين ألف ألف ومائتي ألف، أي خمسين مليوناً ومائتي ألف.

قال أبو الفرج:

" وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلفوها، ولم يُنكِر أحد منهم على أحد". قال:

"واعلم أن الفقر مرض. فمن ابتلي به فصبر، أثيب على صبره. ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لمكان صبرهم على البلاء. والمال نعمة، والنعمة تحتاج إلى شكر، والغني وإن تعب وخاطر؛ كالمفتي والمجاهد، والفقير؛ كالمعتزل في زاوية "هـ.[تلبيس إبليس ص180].

ثم اعلم أن الفقر مرض شاغل لمن ابتلي به، عن أموره الدينية والدنيوية، مُوقع لصاحبه في الفتنة. وربما آل به إلى التسخط والشكوى، وعدم الرضا بالقضاء. ولهذا سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "الكفاف والعفاف، والغنى عن الناس". وورد عنه عليه السلام، أنه قال: " كاد الفقر أن يكون كفرا ".

وقد ورد عن أكابر التابعين وزهادهم، طلب المال وجمعه، لقضاء نفقاتهم، والقيام بمهامهم، وصون وجوههم وأعراضهم من تكفف الناس وسؤالهم. فقد كان سعيد بن المسيب يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه. فإن مات تركه ميراثاً لمن بعده. وكان سفيان الثوري يقول: المال في هذا الزمان سلاح. وعن

المروزي قال: سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله، يعني الشافعي: إني في كفاية. فقال: إلزم السوق، تصل به الرحم، وتعود المرضى. يعني وإن كُنتَ أنت لك كفاية في نفسك، فتسبب لجمع المال بلزوم السوق، وأنفق الفضل من مالك في وجوه الخير.

أما الخروج عن المال بالكلية، بعد أن كان له، والتعرض بعد ذلك للتكفف والسؤال، فهذا لا يقره صريح الشريعة، ولا يرضاه أكابر أهل الحقيقة. فإن قال القائل: إن المال فيه فتنة، واشتغال به عن صرف الوجهة إلى الله، لقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ)؛ نقول: كذلك الفقر فتنة، كفتنة المال، أو أكثر، وهذا [ما] وقع لبعض من أشار إليه بعض أشياخه بالخروج عن ماله، ليخشع قلبه لذكر الله، وينال القرب من الحضرة، فلما خرج عن ماله، لم يزده إلا بعداً وقسوة.

فقد ذكر في "الطائف المنن"، عن شيخه أبي العباس المرسي، أن الشيخ عبد الرزاق، الولي الكبير، أتاه رجل من أهل المهدية، فسأله الشيخ عن قصته، فقال: كنت من أعيان المهدية ومثريها. فورد علينا رجل يدَّعي أنه من الدالين على الله، فتعلقت به ليوصلني إلى الله. فقال لي: إنك لا تصل حتى تخرج عن مالك كله، وتطلق نساءك بتاتاً، وتغير زيك. ففعلت ذلك، فما ازداد قلبي إلا قسوة، فضاق صدري، وحرت في أمري، وفارقت المهدية، وجئت قاصداً للحج. فقال الشيخ عبد الرزاق: دَعَوْا على غير بصيرة. قاتلهم الله. ثم أخذ الشيخ عبد الرزاق، بيده، ووجهه إلى الحج. ولما رجع، أمره بالرجوع إلى بلدة المهدية، وأن حاله سيعود إلى ما كان أو أحسن، فرجع. فكان الأمر كذلك، ببركة الشيخ عبد الرزاق. [هـ باختصار] أنظر القضية بتمامها في "الطائف المنن"[ص126].

وعليه، فالخروج عن المال، ربما كان فيه حسرة وندامة، وتعرض بدينه وعرضه لما لا يحل. قال أبو الفرج:

"وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة، ثم عادوا يتعرضون للأوساخ ويطلبون. وهذا لأن حاجة الإنسان لا تنقطع، والعاقل يعد للمستقبل". ثم أتى بحديث رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله، قال: "كنا عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله: أصبت هذه من معدن، فخذها، فهي صدقة ما أملك غيرها. فأعرض عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك،

فأعرض عنه. ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحذفه بها، فلو أصابته لأقصعته أو لعقرته. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "يأتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس. خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى"هـ.[تلبيس إبليس ص182].

وبالجملة، فهذا مبحث طويل الذيل، قد أفاض القول فيه أهل الظاهر والباطن، وتخالف فيه أهل الشريعة والحقيقة. فمنهم من فضل الغني الشاكر، على الفقير الصابر. ومنهم من الصوفية؛ ابن عطاء، والحكيم الترمذي، وتبعهما أبو العباس المرسي، ويقول: الشكر صفة أهل الجنة، والصبر ليس كذلك.

وذهب الجنيد، والأكثرون من أهل الحقيقة، إلى تفضيل الفقير الصابر. وإليه مال أبو حامد في "الإحياء" واحتج لهذا المذهب، بما يطول، قال:

"إعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا. فذهب الجنيد والخوّاصُ والأكثرون، إلى تفضيل الفقر. وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه، أفضل من الفقير الصابر. قال: ويشهد له ما رُوي في الخبر؛ أن الفقراء شَكوْا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات، والحج والجهاد، فعلّمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء. فتعلم الأغنياء ذلك، فكانوا يقولونها. فعاد الفقراء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبروه، فقال عليه السلام:(ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤتِيهِ مَنْ يشَاء). وقد استشهد ابن عطاء أيضاً، لما سئل عن ذلك فقال: الغنى أفضل، لأنه وصف الحق".

وقد انتصر حجة الإسلام، لمذهب الجنيد، ورد ما تمسك به ابن عطاء، وأطال في ذلك، ثم قال:

"فلنطلق القول، بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف، وبقدر ضعف علاقته، يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور، كتأثيرها في قلب مشغول". ثم قال:

"ولذلك قال سفيان، رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء؛ اختار الفقراء راحة النفس، وفراغ القلب، وخفة الحساب. واختار الأغنياء تعب النفس، وشغل القلب، وشدة الحساب ". هـ باختصار[إحياء علوم الدين173/4].

ومن هذا قلت:

أفضل النــاس فقيـــــرٌ صابـر لله عـابــــــدْ

راحة النفس اجتباهـــا وفراغ للمســاجــــــدْ

وهو في العرض خفيف لم تثقله الفـوائـــــدْ

وأخو الثروة يمضـــي وهو في نُعماه ناصبْ

لم يزل في شغل بـــال وعناء ومتـــــــاعبْ

حملـه في ذا ثـقيــــل عند تشديد المحاسـبْ

مبحث فيما أحدثه الصوفية

من اتخاذ الشيوخ والأخذ عنهم، وبيان السند في ذلك

ومما أحدثوه في طريقهم؛ اتخاذ الشيوخ، والتزام طاعتهم، بحيث يصير الفقير أو المريد أو التلميذ، بين يدي شيخه، كالميت بين يدي غاسله. ومنها: تلقي ما يرسمه له الشيخ من الورد من الأذكار، بحسب ما يراه الشيخ مناسبا لهذا المريد. ومنها: أنه إذا أخذ عن شيخ، فلا يجوز أن يأخذ عن شيخ آخر .

وهذا هو المبحث الذي وقعت الترجمة له، ولأجله أسست هذه المقدمة :

قلت: أما اتخاذ الشيوخ والعمل بأورادهم، والتمسك بطاعتهم؛ فهو من اجتهاد الشيوخ، الذين لهم في هذه الطريق تقدم ورسوخ، قياساً على ما كان عليه الصحابة، رضوان الله عليهم، من إتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وامتثال أمره وطاعته في كل ما يأمرهم به.

وربما أخذوا ذلك من قضية سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، إذ قال له: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)، فأجاب السيد الخضر بقوله: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)، فقال

له سيدنا موسى، عليه السلام:(سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً). ولما التزم سيدنا موسى الصبر وعدم مخالفة أمره، صار يعلمه من علمه اللدني.

وهذا الأخذ كثيراً ما كان يجول بخاطري. ثم وجدت في "رسالة" الإمام القشيري، الإشارة لهذا المعنى، إذ قال:

(باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم): قال الله تعالى، في قصة موسى مع الخضر، عليهما السلام: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)، قال الإمام: لما أراد صحبة الخضر، حفظ شرط الأدب، فاستأذن أولا في الصحبة. ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء، ولا يعترض عليه في حكم. ثم لما خالفه موسى، عليه السلام، تجاوز عنه المرة الأولى، والثانية، فلما صار إلى الثالثة، والثلاث آخر حد القلة وأول حد الكثرة؛ سامه الفرقة، فقال: (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)هـ[ص163].

وهذا يؤخذ أيضا، من قوله عليه الصلاة والسلام: " من يرد الله به خيرا يرزقه خليلاً صالحاً، إن نسي ذكره، وان ذكر أعانه " .

[إحداث رموز واصطلاحات للعلوم، وإسناد تعليم ذلك لأهل الاختصاص]

وأوضح من هذا، أنه لما دُوِّنت العلوم ورُتِّبت، وجُعل لها قوانين واصطلاحات، وقام في كل فن من الفنون أئمته وعلماؤه بتبويب الأبواب، وتفصيل الفصول، وإحداث رموز واصطلاحات تخص ذلك الفن، وأناطوا تعليم ذلك بالعارف بالفن، وما يحويه من تلك الرموز والمصطلحات، وحكَموا على من لم يمارس ذلك الفن على أربابه، ويأخذه عن المختصين به، بأنه ناقص الاعتبار، واقع في الخطإ والغلط.

فقد قام علماء التفسير، بإحداث قواعد رتبوها، وأحكام في الأخذ نقحوها، وكشفوا عن رواة التفسير، فجعلوا منهجهم المقبول الصحيح، والمعتل المردود المطروح، وأرشدوا الآخذين، إلى طريق الأخذ، وعمن يأخذون. وقد تكفل بمباحث هذا الفن، الإمام السيوطي في "إتقانه"، وبين فيه طبقات المفسرين.

كذلك أيضا، قام علماء الحديث وألفوا في[الرواة] الثقاة والضعفاء، والوضاعين الدجالين الكذابين، وجعلوا الصحيح من الحديث، هو ما أخِذ عن شيخ ثقة، عن شيخ ثقة، إلى أن ينتهي إلى الرسول عليه السلام، وشرحوا مراتب الصحيح[ ] والضعيف، في شروح وتفاصيل طويلة.

وكذلك أهل الفقه، من المجتهدين وأصحابهم، فقد اجتهدوا، وأحدثوا قواعد وأصولا، بنوا عليها فروع فقههم، وشرطوا في اعتماد أحكامهم، أن تؤخذ عن شيوخ تحققت معرفتهم، وتمت ديانتهم، وثبت أخذهم عن شيوخ شهدوا لهم بالمعرفة وأجازوهم، ورأوهم أهلا للفتوى والاقتداء. فهذا إمام الأئمة، وعمدة المدينة المنورة، يقول: إنه ما أفتى الناس، حتى أجازه أربعون محنكا. وكان المحنك، هو العالم الذي يفتي الناس في الأحكام وغيرها. وقيل له: لو قالوا لك: لا تفتي ؟ قال: كنت أتأخر عن الفتوى.

فانظر إلى مالك، وهو الإمام، كيف توقف عن بث علمه في الفتوى، حتى يحصل على الإذن ممن فيه أهلية. وهذا شيء مقرر عند المحققين من أهل العلم الظاهر، إذ من شأن صحة الأخذ والتعلم في كل علم، أن يؤخذ عن أهله، واستجازتهم والحصول على الإذن منهم فيما تخصصوا به. ولا يكفي التلقي من الكتب والأوراق.

قال الإمام، أبو إسحاق الشاطبي، بعد تقرير في هذا الموضوع:

"فإذا تقرر هذا، فلا يؤخذ إلا ممن تحقق به، أي بذلك العلم، وهذا واضح في نفسه، وهو أيضا متفق عليه بين العقلاء، إذ من شروطهم في العالم بأي علم اتفق، أن يكون عارفا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم، قادرا على التعبير عن مقصوده فيه، عارفا بما يلزم عنه، قائما على دفع الشُبَه الواردة عليه فيه. وهذه المعرفة لابد أن تكون مستمدة من شيوخ أخذوا عنهم علما وعملا. وذلك لا يكون إلا بالأخذ والملازمة والمتابعة، ليتم العلم بالعمل، كما كان شأن السلف الصالح. وأول ذلك ملازمة الصحابة، رضي الله عنهم، لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأخذهم أقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد منه، كائنا ما كان، وعلى أي وجه صدر، كما يعرف ذلك كل من طالع سيرهم، واطلع على أحوالهم معه، صلى الله عليه وسلم، وتأدبهم بأدبه، وتخلقهم بأخلاقه. وهكذا كانت سيرة التابعين مع الصحابة. وهكذا شأن

من أتى بعدهم، من الفقهاء والمحدثين، ممن اشتُهر ذكره، وازدهر علمه، وارتفع قدره؛ كمالك، والشافعي، وأضرابهما". قال أبو إسحاق الشاطبي:

"وحسبك من صحة هذه القاعدة، أنك لا تجد عالما اشتُهر في الناس الأخذ عنه، إلا وله قدوة اشتُهر في قرنه بمثل ذلك. وقلما وجدت فرقة زائغة، ولا أحداً مخالفاً للسنة، إلا وهو مفارق لهذا الوصف. وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ، ولا تأدب بآدابهم، وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم"هـ. [الموافقات59/1].

قلت: وهذا هو مصداق ما رواه الحافظ ابن عبد البر، عن لقمان الحكيم، في وصيته لابنه:

"يا بني؛ إنه قد بقي شيء آخر؛ جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك. وفيها: ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم، ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء، من صبر لهم، ولزمهم، واقتبس من علمهم في رفق "هـ.[جامع بيان العلم106/1].

ولهذا ذكر أئمتنا من آداب العلم؛ استناده في أخذه إلى معلم وأستاذ، كما أشار إليه الإمام الشافعي في قوله :

أخي لن تنال العلمَ إلا بستةٍ ... سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٍ وحرصٍ وافتقارٍ وغربةٍ ... وتلقينِ أستاذٍ وطولِ زمانِ

وقال الإمام أبوحيان النحوي، منكراً على من يأخذ العلم من غير أستاذ:

يظن الغُمرُ أن الكُتبَ تهدي ... أخا فهم لإدراك العلوم

وما يدري الجهولُ بأن فيها ... غوامضَ حيرت عقلَ الفهيم

إذا رُمتَ العلومَ بغير شيخ ... ضللت عن الصراطِ المستقيم

وتلتبسُ الأمورُ عليك حتى ... تصيرَ أجهلَ من توما الحكيم

[ما أحدثه أهل الباطن من مصطلحات،
يشبه ما أحدثه أهل الظاهر]

هذا ما يقوله علماء الظاهر. ويلزم ذلك في علماء الباطن. فان قال أهل الظاهر إن المشيخة مطلقا لا ننازع فيها، وإنما ننازع في المشيخة بهذه الصفة الخاصة عند أهل الباطن، لأنها لم تكن في الصدر الأول، فهي بدعة محدثة؛ يقال إن المشيخة بهذه الصفة أيضا عند أهل الظاهر، لم تكن مفهومة في الصدر الأول، فهي أيضا بدعة، كما لا يخفى، إذ لم تكن مؤلفات في التفسير، ولا في الحديث، ولا في الفقه، ولا في غيرها من الفنون تدرس في المعاهد على الشيوخ، ولا كانت هناك اصطلاحات مرموزة، ولا قواعد محدودة، ولا قوانين مألوفة، ولا أبواب مفتوحة، ولا فصول مشروعة؛ وإنما العلم في حفظ القرآن وتفهمه، ونقل الحديث الصحيح وتعلمه. وما سوى ذلك كله، محدث آخر القرن الثاني، لوقوع الحاجة إليه.

فكذلك يقال في علوم أهل الباطن، وما أحدث فيها من المصطلحات. ولهذا قال الإمام القشيري في الرسالة:

"اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء، لهم ألفاظ يستعملونها، انفردوا بها عمن سواهم، تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها، من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها. وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف. بل هي معانٍ أودعها الله تعالى، قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم "هـ.[ص33].

على أن أهل الباطن، لم يدّعوا، فيما ظهر منهم يخالف الأحكام الظاهرة؛ أنهم شرّعوا به في الدِّين ما لم يأذن به الله، بل أبانوا باجتهادهم، أنهم ما أخذوا ذلك إلا من الكتاب والسنة، [وأتوا] في ذلك بأدلتهم الواضحة، كما صرح بذلك أكابر شيوخهم، وعمد طريقهم.

توجيه حسن للعارف الحرَّاق التطواني
في وجه اتخاذ شيخ التربية

ويعجبني في توجيه شيوخ الطريق، ما في رسائل العارف الحرَّاق، رضي الله عنه، إذ يقول فيها لبعض أصحابه:

"وأحضكم ولابد، على الاجتماع بالزاوية، يوم الجمعة وبغيره من الأيام، إن أمكن، ولو في غير الزاوية عند بعض الإخوان، لأن جدار العبودية لا يقوم إلا بأحجار الإخوان غالبا، ولذلك سنّت الشريعة، الاجتماع في الصلوات الخمس، والجمعة والأعياد، وموسم الحج ".

"ولابد لتلك الأحجار، من طين يضم بعضها إلى بعض، وذلك تراحم الإسلام والإيمان. ويشتد التراحم بالاجتماع على شيخ واحد. ولابد من معلم يناسب تلك الأحجار بعضها مع بعض، حتى يتماسك الجدار ويستقيم، وهو الشيخ أو نائبه. ولذلك جعل الشارع لكل جمع في الصلوات الخمس والجمعة والأعياد وموسم الحج؛ إماما يُقتدى به، وقال: "إنما جعل الإمام ليؤتم به ".

"ولابد أن يكون ذلك المعلم، عليما بدسانس عيوب البناء، ليلا يكون بناؤه مختلا، وبكيفية وضع الأحجار في محلها، وكيفية نجرها وتهذيبها، إن احتاجت إليه، لأن كل مولود يولد على فطرة الإسلام، حتى يلتصق به الجس، وهَواجِسُ النفوس. وأول ما ينال ذلك من عشيره الأول، وهو والده، ولذلك قال عليه السلام: " فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه". وبمخالطة أهل الحس، يلتصق الحس أو يزيد، إن كان في الإنسان. ومخالطة الإخوان قطعاً تفيد الإنسان خيراً "هـ.[النورواللامع.مخطوطة ص11].

وهو كلام حسن، عليه أثر نور العلم ا لرباني، الذي له تألق وإشراق، فرضي الله عن الشيخ الحراق.

اتخاذ الصوفية لطريقهم سنداً
إلى سيدنا علي، وجعلهم هو الواضع لها

ثم إن أهل الطريق، الذين أسسوا طريقهم على أساس التحقيق، جعلوا لطريقهم سندا، كما اتخذ ذلك أهل التفسير والحديث والفقه، وواصلوا ذلك السند إلى سيدنا علي بن أبي طالب، وقالوا إنه أول من تكلم في هذا العلم وأظهره، وأخذ عنه ولده سيدنا الحسن، أول الأقطاب. ولهذا جعلوه هو واضعه الأول. وعلى ذلك اعتمد سيدي حمدون ابن الحاج، إذ قال في نظم الحكم:

وَلَهُ عليٌّ واضــــــعٌ   هو ذو العُلومِ وذُو الحِكَم

وبذلك أيضا، صرح الشيخ الحراق، في أول شرح الحكم. ولكن المنتقد لا يكتفي بهذا، كما لا يخفى، لأن سيدنا علياً، لم يتخذ هذه الطريقة الحديثة شعاراً له، ولا كان في عصره اسم الصوفية بهذا اللفظ يذكر.

وأحسن الأجوبة في هذا؛ أن روح الطريقة، التي هي إفراد الحق بالعبادة، وتوحيده في ذاته وصفاته وأفعاله، وعدم النظر إلى الدنيا نظراً يُلهي عن ذكر الله، والقيام بعبوديته، أو التخلي عن كل خلق دني، والتحلي بكل خلق سني؛ هي طريقة سيدنا علي، وغيره من الصحابة، رضوان الله عليهم، بشهادة الكتاب العزيز لهم بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً).

والتصوف بهذا المعنى، لا ينكره أحد في الشريعة الغراء، بل لا ينكره إلا كافر أو فاجر. قال الإمام ابن عبد السلام، الشافعي، المعروف بسلطان العلماء :

"والطريق في إصلاح القلوب، التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها؛ تطهيرها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه ويُزلفه لديه، من الأحوال والأقوال والأعمال، وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه، والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات، وحال من الأحوال، على حسب الإمكان، من غير أداء إلى السآمة والملل".

"ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة. وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال، والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه

من أعمال القلوب. فمعرفة أحكام الظواهر، معرفة لجل الشرع، ومعرفة أحكام البواطن، معرفة لدق الشريعة. ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافر أو فاجر"هـ.[قواعد الأحكام202/2].

وهذا كلام يبين لك ما يقول أهل الفقه في الدين، الراسخون في العلم من أهل التحقيق؛ في طريق الصوفية الحقة، التي لا يشوب صفاءها كدر أهل الابتداع والتلفيق. وهذا الذي قاله هذا الإمام القدوة المجتهد؛ هو، كما علمت، وصف أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن حذا حذوهم من التابعين وأتباعهم، ولهم ألف الإمام الحافظ أبو نعيم، في "الحلية"، مُصَدِّراً بالخلفاء الأربعة، ثم بباقي العشرة المبشرين بالجنة، ثم أكابر الصحابة، واحداً بعد واحد، ثم أماثل التابعين ومن بعدهم إلى عصره، وسمى كتابه هذا بـ: "حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء ".

وعنوانه هذا؛ يعرب عن أن مقصوده أهل التصوف الحقيقي، الذي سمعت معناه، لا التصوف بمعنى لبس الصوف والمرقعة، وفراغ القلب من التقوى، ومن مراقبة المولى، وتعميره بشغل البال بالدنيا، والتصنع لأهل المال والجاه وأصحاب المراتب العليا، وتقضية الوقت بالغناء والرقص، والتلذذ بالمآكل والمشارب المستطابة.

وبهذا تعلم أن انتقاد الحافظ ابن الجوزي، على "الحلية"، في غير محله.

أما إسناد وضع علم التصوف لسيدنا علي، رضي الله عنه، دون سائر الخلفاء، فمعناه أن سيدنا علياً يؤثر عنه عبارات تشير إلى أصول هذا العلم و أسسه الحقيقية، وناهيك في ذلك ما شهد له به الرسول عليه السلام، كما في حديث عمار، الذي في " الحلية " إذ قال له يا علي: "إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحبَّ إلى الله منها، هي زينة الأبرار عند الله عز وجل؛ الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً"هـ.[71/1].

وروي عنه، رضي الله عنه، كما في "الحلية":، أنه قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين؛ رجل أذنب ذنباً فهو تدارك ذلك بتوبة، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقل عمل في تقوى، وكيف يقل ما يتقبل".

وعنه رضي الله عنه، أنه قال: "إن أخوف ما أخاف؛ إتباع الهوى، وطول الأمل، فأما إتباع الهوى فيصُد عن الحق. وأما طول الأمل، فينسي الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحد منهما بَنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فان اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل"هـ [حلية الأولياء1/75-76].

إلى غير ذلك من كلامه في هذا الموضوع، مما يصح أن يكون أساساً تُبنى عليه قواعد هذا العلم، من المقامات والأحوال.

الكلام في التصوف، يتحرر في طرفين وواسطة

ثم بعد هذا، يمكن لك أن تقول؛ إن الكلام يتحرر في هذا الموضوع، في طرفين، وواسطة:

أما الطرف الأول؛ فهو التصوف بالمعنى الذي كان عليه الصحابة والتابعون ومن حذا حذوهم. وقد شرحنا معناه، وهذا لا ينكره إلا كافر أو جاحد، كما سبق عن العز ابن عبد السلام. وهذا هو الذي يمكن أن تؤخذ أصوله عن سيدنا علي، كرم الله وجهه.

وأما الطرف المقابل له؛ فهو التصوف ادعاءاً وزوراً وتلبيساً، والخروج عن معنى التصوف الذي كان عليه السلف الصالح. وهذا الطرف لا يخلو منه عصر من العصور، واليه يتوجه انتقاد المنتقدين، وإنكار المنكرين، وعليه تنزل تلك الفتاوي التي قدمناها عن الشاطبي، والحفار، وعليهم نبه عز الدين ابن عبد السلام، بقوله في "القواعد" :

"وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شر من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى. وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات يطلقونها على الله، ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل، وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء، وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم، وسلوك طريقهم"هـ[203/2].

ومن هذا قول الشاطبي، في "الاعتصام"، بعد ما قرر ما كان عليه السلف الصالح في مجالس الذكر:

"فهذه مجالس الذكر على الحقيقة، وهي التي حرمها الله أهلَ البدع من هؤلاء الفقراء، الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف، وقلَّ ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة إلا على اللحن، فضلاً عن غيرها، ولا يعرف كيف يتعبد، ولا كيف يستنجي أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة "هـ[313/1].

أما الواسطة؛ فهم قوم اتسموا بالصلاح، وأسلموا وجوههم إلى الله، وهم محسنون في أعمالهم، مثابرون على طاعة مولاهم، زاهدون في هذا العرض الفاني، معرضون عن عالم الحس، إلا أنهم ألزموا أنفسهم ومن اتبعهم، بالتزامات هي في ظاهرها مبتدعة وخارجة عن ما تقتضيه نصوص الشريعة، وأحدثوا في طريقهم أموراً لا يعرفها السلف الصالح، ولم تكن معتادة لديهم ولا عملوا بها. وهذا القسم هو معترك الأفكار، ومجال رحب لعلماء الظاهر في القبول والإنكار.

والقول الفصل في هذا الموضوع، هو ما قاله الإمام النظار، أبو إسحاق الشاطبي، في اعتصامه، ولفظه:

"كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن، لا يخلو؛ إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة أم لا. فإن كان له أصل، فهم خلقاء به، كما أن السلف من الصحابة والتابعين خلقاء بذلك. وإن لم يكن له أصل في الشريعة، فلا عمل عليه، لأن السنة حجة على جميع الأمة، وليس عمل أحد من الأئمة حجة على السنة "هـ[288/1].

وهذا كلام قبله الأئمة المحققون، كالشيخ زروق، والشيخ المسناوي. وهو الكلام الفصل، والقول الحق. ونبز الشيخ الشاطبي الصوفية بالمغترين، يرشد إلىالمتصوفة المدعين لهذه الطريق، الذين ينتسبون إلى القوم وليسوا منهم في ورد ولا صدر؛ فهؤلاء لا يؤبه بكلامهم، ولا ينظر لأعمالهم إلا نظر الطعن والرد، وصرفهم عن أعمالهم بالإبعاد والطرد، وهم الذين قال فيهم العز ابن عبد السلام: هم شر من قطاع الطريق.

وقد عقد إمام الصوفية وعمدتهم؛ السهروردي، في عوارفه، باباً لبيان من انتسب إلى الصوفية وليس منهم، تحذيراً للعوام من أن يتلبس عليهم الأمر، وينخدعون لترهات هؤلاء الدجالين الكذابين الملبسين.

الورد وأصله وأخذه
عن الشيوخ، والتزامه والتحري في تلقينه وتوقيته

أما الورد، وأخذه عن الشيوخ، والتزامه والتحري في تلقيه، وهو موضوع بحثنا، فان له أصلا.

أما معناه في الاصطلاح، فهو ما يرتبه الإنسان على نفسه، من العبادة، من صلاة وتلاوة قرآن، وأذكار. والشائع الآن في معناه، هو ما يأخذه المريد عن الشيخ، من أذكار، كهيللة وتسبيح وتكبير واستغفار، وصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ويكون ذلك على سبيل الملازمة والمداومة.

وكل شيخ له أذكار؛ لـه أعداد محدودة، وأوقات معينة. وقد يكون للشيخ أوراد مختلفة، يلقنها لأصحابه بحسب استعدادهم، وقبول إقبالهم لها. وكلّ هذه الأذكار، لها بعددها وأوقاتها، أصل في الأخبار والأثر.

أما الذكر من حيث الإطلاق، والأمر به، والمداومة عليه في الليل والنهار، والغدو والآصال؛ فهو ثابت في الكتاب والسنة، وبيان فضله فيهما لا يخفى عن كل قارئ وتال. قال تعالى:(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم)، وقال تعالى:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم)، وقال:(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِ وَالآصَالِ وَلاَتَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)، وقال:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقالت عائشة، رضي الله عنها: كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يذكر الله على كل حال، أ ي في كل الأوقات.

وقال عليه السلام، فيما يرويه عن ربه: " يقول الله عز وجل؛ أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه ".

وقال عليه السلام: " ما عمل ابن آ د م من عمل أنجى له من عذاب الله، من ذكر الله عز وجل". وسئل صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ فقال: "أن تموت ولسانك رطب بذكر الله".

وقال صلى الله عليه وسلم: " تذكر الله بالغداة والعشي، أفضل من حطم السيوف في سبيل الله، ومن إعطاء المال شحاً ". إلى غير ذلك من الأحاديث.

أما ما ورد في كل ذكر من الأذكار، وما ذكر فيها من الأعداد؛ ففي التهليل؛ قال صلى الله عليه وسلم: " أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قبلي؛ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له"

وقال: "من قال لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كل يوم مائة مرة؛ كانت له عِدْل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء بـه، إلا أحد عمل أكثر من ذلك".

وقال صلى الله عليه وسلم، لأبي هريرة: " يا أبا هريرة، لقن الموتى بشهادة لا إله إلا الله، فإنها تهدم الذنوب هدما ". قلت: يا رسول الله: هذا للموتى، فكيف للأحياء؟ قال صلى الله عليه وسلم: " هي أهدم وأهدم" .

قلت: وما أحسن ما أشار إليه العارف الحراق، في بعض رسائله، من تنزيل هذا الحديث على أهل الغفلة، إذ جعلهم من قبيل الموتى، فقال صدر الرسالة:

"ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد، الذي أشرق الوجود بمعناه، والمشير لدواء الغفلة عن الله، بقوله:{لقنوا موتاكم لا إله إلا الله}". هـ. فما أحسنها من إشارة [وتوجيه و] إرشاد في عبارة. فرضي الله عن سيدي محمد الحراق. إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في لا إله إلا الله.

وفي التسبيح، قال صلى الله عليه وسلم: " من قال سبحان الله وبحمده، في اليوم مائة مرة، حطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر" .

وروي أن رجلا جاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: تولت عني الدنيا، وقلّت ذات يدي، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "فأين أنت من صلاة الملائكة، وتسبيح الخلائق، وبها يرزقون ". فقال: وما ذا يا رسول الله؟ قال: " قل: سبحان الله وبحمده،

سبحان الله العظيم، أستغفر الله. مائة مرة، بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح، تأتيك الدنيا راغمة صاغرة، ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة، لك ثوابه" .

وفي صحيح البخاري، وبه ختم كتابه: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمان؛ " سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" .

وفي التحميد والتكبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ فعنه، صلى الله عليه وسلم، كما في "الإحياء" : " ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ إلاّ غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زَبَد البحر".

وفي صحيح مسلم، عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر، تملآن ما بين السماء والأرض ".

وقد قال، صلى الله عليه وسلم، فيما شهد عليه أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري: " إذا قال العبد لا إله إلا الله، والله أكبر. قال الله عز وجل: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، وأنا أكبر. وإذا قال العبد: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. قال تعالى: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، وحدي لا شريك لي. وإذا قال: لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. يقول الله سبحانه: صدق عبدي. لا حول ولا قوة إلا بي. ومن قالهن عند الموت، لم تمسه النار" .

وأما الاستغفار، ففي القرآن الكريم: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم)، وقال، جل وعلا، لنبيه: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا)، وقال تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ).

وقال عليه السلام: "من أكثر من الاستغفار، جعل الله عز وجل، له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب" . وقال: " إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة". وقال:" انه لَيُغانُ على قلبي، حتى إني لأستغفر الله تعالى كل يوم مائة مرة ". إلى غير ذلك مما هو كثير في هذا الباب .

وفي الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وردت أحاديث كثيرة، وناهيك كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ قال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيما).

وفي صحيح مسلم، عن عمرو ابن العاص، أنه سمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "من صلى عليّ، صلى الله عليه بها عشرا " .

وروى الترمذي، وقال حسن، عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:" أولى الناس بي يوم القيامة، أكثرهم عليّ صلاة " . إلى غير ذلك من الأحاديث.

ولا يخفى أن الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، عند الصوفية، من أهم الوسائل، وأعظم القربات إلى حضرة الجلالة، ولاسيما أهل الطريق الشاذلية، كما قدمنا سابقا، وهي من أركان أورادهم .

وأما توقيت أهل الصوفية الذكر والورد، وفعله في الغالب مرتين في اليوم، صباحا ومساء، فالأصل فيه، ما في كتاب الله جل وعلا إذ قال: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِ وَالآصَالِ) وهو جمع أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقال: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإبْكَارِ)، وقال:(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اِسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِ والآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) الخ الآية.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من قال حين يصبح وحين يمسي، سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلاّ أحد قال مثله أو زاد" .

هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، من الأذكار المستعملة في الأوراد عند أهل التصوف، التي تلقاها الصحابة والتابعون وعلماء الأمة، عنه صلى الله عليه وسلم .

الذكر بالإسم المفرد الشائع عند أهل الله
وما قاله فيه بعض أهل الظاهر

وأما ذكر اسم الجلالة مفرداً، فهو من الأذكار الشائعة لدى الصوفية، وهو عندهم من أعظم الأذكار، يلقنونه للمريدين، ويحضونهم عليه كثيراً. ولكن علماء الظاهر، ينكرون ذلك، وفي مقدمتهم الإمام ابن عبد السلام، الشافعي، فقد سئل عن الرجل يذكر فيقول: الله الله،

ويقتصر على ذلك، هل هو مثل قوله: سبحان الله، والحمد لله، والله اكبر، وما أشبه ذلك؟ وإذا لم يكن بمثابته، فهل هو بدعة لم تنقل عن السلف أم لا ؟ فأجاب:

"هذه بدعة لم تنقل عن الرسول، ولا عن أحد من السلف، وإنما يفعله الجهلة. والذكر المشروع كله؛ لابد أن يكون جملة فعلية أو اسمية، وهو مأخوذ من الكتاب والسنة وأذكار الأنبياء. والخير كله في اتباع الرسول، واتّباع السلف الصالحين، دون الأغبياء من الجاهلين"هـ.ونقل الجواب الإمام الحطاب، في شرح المختصر، آخر باب الردة [ ] وسلمه.

وتعقبه الشهاب الخفاجي، في أول شرحه للشفا، لدى ذكر القاضي: (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُونَ) قائلا:

"وأما ذكر الله تعالى، فقد ورد الأمر به، ووعد ذاكره بالثواب في آيات وأحاديث لا تُحصى، كقوله تعالى: (الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ). وفي الحديث القدسي: {من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين}. إلى غير ذلك مما لا يُحصى، ولم يقيد بقيد. على أن الذاكر قصده التعظيم والتوحيد. فهو إذا قال الله، ملاحظاً لمعناه، فكأنه قال معبودي واجب الوجود، مستحق لجميع المحامد. ولم يزل أهل الله من العلماء والصلحاء يفعلونه من غير نكير. وكان الأستاذ البكري، رحمه الله، يفعله ويقول: أستغفر الله مما سوى الله، وكل شيء يقول الله. وفي مجلسه أجلة العلماء والمشايخ. وهذا هو الحق. وقد صُنِّف في رد مقالة ابن عبد السلام هذه عدة رسائل رأيناها. وممن صنَّف فيها؛ القطب القسطلاني، والعارف بالله المرصفي، والشيخ عبد الكريم الخلوتي، وبه أفتى من عاصرناه "هـ.[نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض1/37].

قلت: وصنيع عياض في تمثله بهذه الآية، فيه إشارة إلى الجواز، لاسيما وقوله هذا، مقتبس من قول أحد أشياخ الصوفية المشايخ، وهو الإمام أبو بكر الشبلي، إذ قال له بعض أصحابه أوصني؛ فقال له: عليك بالله ودع ما سواه، وكن معه، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون.

التفسير بالإشارة عند الصوفية

قلت؛ كما في كلام القاضي استعمال التفسير بالإشارة، وفيه بين أهل الشريعة والحقيقة نزاع. وكنت كتبت تحريرا لطيفا أثناء مقدمة دروس التفسير التي كنت ألقيها في المعهد

العالي بتطوان. وهذا بعض ما كتبته في ذلك، بعد رد ما خرجت به الباطنية وغيرهم، عن معهود مدلول اللفظ العربي في التفسير، وإحالة ظاهر نصوص القرآن إلى الباطن، وجعلوا ذلك الباطن هو المقصود، لاما يقتضيه ظاهر اللفظ. وهؤلاء هم الباطنية، وهم قوم كفار، إذ أرادوا بذلك إبطال الشريعة جملة وتفصيلا :

وطائفة من محققي علماء الصوفية، يجعلون النصوص على ظواهرها، إلا أنها تنكشف لهم في الآيات إشارات لا تنافي ما تفيده الظواهر، فتكون هذه الإشارات تابعة للآيات، لا الآيات تابعة لها، وهذا الأخذ لا بأس بـه، بل هذا لا يكون إلاّ من أهل التحقيق والعرفان، ومن تخلق بأخلاق القرآن الحسان، إذ ذلك بمنزلة القياس، وهو من الفهم الذي يؤتيه الله لعباده في كتابه. قال السعد في شرح العقائد:

"وأما ما يذهب إليه بعض المحققين، من أن النصوص محمولة على ظواهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة؛ فـهو من كمال الإيمان، ومحض العرفان ". هـ[ص148]. وهذا من باب الاعتبار. قال الحافظ ابن تيمية: "للصوفية إشارة، وهي تنقسم إلى صحيح وباطل". هـ .

ومن الإشارات الصحيحة، التي يصح أن تُجعل أساسا ودليلا لإشارات الصوفية، ما ورد عن سيدنا عمر، رضي الله عنه، واحتج لذلك به في "الموافقات"، أنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية:(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا). وكان هو يعتبر نفسه بها. والآية إنما نزلت في الكفار، لقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُم في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) الآية هـ[الموافقات 3-239]

قلت: وأخذ الشيخ الحرَّاق ـ من الشيوخ المتأخرين ـ لذلك؛ مما ورد عن سيدنا عمر، إذ سأل سيدنا عبد الله ابن عباس، رضي الله عنهم، عن قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ)، فأجابه بأن هذا أجَلُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعلم به. إذ ليس في الآية إلا الأمر بالتسبيح والاستغفار، وليس فيها دلالة بطريق التصريح على الإعلام بحضور الأجل. وإنما يؤخذ ذلك بطريق الإشارة. قال الشيخ الحرّاق: فتأمله منصفاً.هـ[مخطوطة شرح الحِكَم ص152].
يشير، والله أعلم، أن هذا الأخذ، هو أول من اهتدى له، ودلالته على الموضوع واضحة .

[الرجوع لإتمام الكلام على الإسم المفرد
وعلى أصل الأوراد]

ولنرجع إلى إتمام الكلام على الاسم المفرد، الذي أنكره العز ابن عبد السلام، فنقول زيادة على ما تقدم: إن قطب الصوفية، العارف الحاتمي، قد علل وجه ترجيح الصوفية لهذا الإسم العظيم، ووجهه توجيهاً رائقاً إذ قال :

"فإن قلتَ فقد رجح أهل الله ذكر لفظة: الله، الله، وذكر لفظة: هو؛ على الأذكار التي تعطي النعت، ووجدوا لها فوائد؛ قلتُ: صدقوا وبه أقول، ولكن ما قصدوا بذكرهم الله الله، نفس دلالته على العين، وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهو، من حيث انهم علموا أن المسمى بهذا الاسم أو هذا الضمير، هو من لا تقيده الأكوان، ومن له الوجود التام، فإحضار هذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم، بذلك وقعت الفائدة، فانه ذكر غير مقيد، فإذا قيده بلا إله إلا الله، لم ينتج له إلا ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده بسبحان الله، لم يتمكن له أن يحضر إلا مع حقيقة ما يعطيه التسبيح، وكذلك الله أكبر، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكل ذكر مقيد، لا ينتج إلا ما تقيد به، لا يمكن أن يجنى منه ثمرة عامة، فان حالة الذكر تقيده، وقد عرفنا الله انه ما يعطيه إلا بحسب حاله في قوله: " إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي "، الحديث. فلهذا رجحت الطائفة ذكر لفظة الله وحدها، أو ضميرها، من غير تقييد". ثم قال الشيخ الحاتمي:

" ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئاً إلا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلا من الذكر، قال: (وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) وقال(اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيراً)، وما أتى الذكر قط، إلا بالاسم الله خاصة، معرى عن التقييد، فقال اذكروا الله، وما قال بكذا، وقال: (وَلَذِكْرُاللهِ أَكْبَرُ) ولم يقل بكذا ". ثم قال الشيخ:

"وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله ". فما قيده بأمر زائد على هذا اللفظ، لأنه ذكر الخاصة من عباده، الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا "هـ.[الفتوحات المكية228/2].

وهو كلام يتلألأ نوراً، ويكاد أن يتجسم ظهوراً. نفعنا الله بأهل قربه ومحبته، آمين .

وليكن هنا رجوع إلى الكلام على أصل الأوراد، ليكون لنا عليه الاعتماد، وإليه في الرد على المخالف الاستناد، فنقول:

إن مما فيه إشارة لأصل الأوراد، ما في "حلية الأولياء" لأبي نعيم، إذ قال في ترجمة سيدنا علي، رضي الله عنه :

"وكان رضوان الله عليه وسلامه، على الأوراد مواظباً، وللأزواد مناحبا. وقد قيل: إن التصوف؛ الرغبة إلى المحبوب، في درك المطلوب".

ثم رفع سنده إليه أنه قدم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسبي، فقال علي لفاطمة: إئتي أباك، فسليه خادما تقي به العمل. فأتت أباها حين أمست، فقال لها: " مالك يا بنية ؟" قالت: لاشيء، جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأل شيئا، فلما رجعت، قال لها علي: ما فعلت؟ قالت لم أسأله شيئا واستحييت منه.

وهكذا جاءت إليه المرة الأولى، والثانية، إلي أن كانت في المرة الثالثة. قال سيدنا علي:

"حتى إذا كانت الليلة الثالثة مساء، خرجنا جميعا حتى أتينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "ما أتى بكما ؟" فقال علي: يا رسول الله: شقّ علينا العمل، فأردنا أن تعطينا خادما نتقي به العمل. فقال لهما رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " هل أدلكما على خير لكما من حُمُر النَّعَم؟" قال علي: يا رسول الله نعم؛ قال: "تكبيرات، وتسبيحات، وتحميدات، مائة حين تريدا أن تناما، فتبيتا على ألف حسنة، ومثلها حين تصبحان، فتقومان على ألـف حسنــة ".

فقال علي: فما فاتتني منذ سمعتها من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا ليلة صفين، فإني نسيتها حتى ذكرتها من آخر الليل فقلتها. وفي بعض الروايات أنه ما ترك ورده حتى ليلة صفين ".

كما أنه ورد في روايته أن سيدنا عليا قال لمن روى عنه الحديث:

"ألا أخبرك عني، وعن فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ كانت أكرم أهله عليه، وكانت زوجتي، فجرَّت بالرحى حتى أثر الرحى بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر، حتى دنست ثيابها.

فأصابها من ذلك ضر، فقدم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سبي، أو خدم، فقلت لها: انطلقي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسليه خادما يقيك ضرَّ ما أنت فيه ". فذكر الحديث الخ.[حلية الأولياء 1/69-70].

وفي "الحلية" أيضا، في ترجمة الصحابي أبي هريرة، رضي الله عنه، بسنده إليه، أنه قال: إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم إثني عشر ألف مرة. وروي عنه أيضا، أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة، فلا ينام حتى يسبح به. وفي هذا أيضا زيادة على موضوعنا؛ الدليل لمشروعية اتخاذ السبحة.

قلت: ومقصد الحافظ أبي نعيم، إقامة الدليل على أن هذه الأوراد التي يلزمها أهل التصوف على أنفسهم، وعلى تلامذتهم، لها أصل في السنة.

وقد بينا أن ذلك مسلَّم على وجه الندب، ولكن الباحث إنما يبحث في التزام ذلك على سبيل الوجوب والفرضية، إذ فيه:

أولا: زيادة على ما فرضه الله على العبد.

وثانيا : الدخول على نية التأبيد.

وثالثا : ما فيه من الحرج المنهيّ [عنه] في الشريعة، لأنه بالمداومة عليه ربما أورث مللاً. وقد صرح في الاعتصام بالكراهة في هذا. أما المداومة على الأعمال فهي مطلوبة، كما يؤخذ ذلك من قوله تعالى: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا). وقال عليه السلام: " أحب الأعمال إلى الله، ما داوم عليه صاحبه، وإن قلّ " . فلذلك كان عليه السلام، إذا عمل عملا أثبته. هذا إذا كان العامل لا ينوي الدوام عليه، فكيف إذا دخل على نية الدوام، فهو أحرى بطلب المداومة عليه. وقال عليه السلام، لعبد الله بن عمرو: " يا عبد الله: لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فتركه ". قال الشاطبي، وهو حديث صحيح .

وخلاصة ما قاله الشاطبي هنا، أن العمل الذي هو مظنة المشقة عند المداومة عليه، مطلوب الترك، داخل في الكراهة، لأنه عند العجز أو التساهل، يدخل في قوله تعالى: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا). وعليه فمن التزم شيئا يشق على النفس، من ورد الصلاة أو الذكر، وكان يعتقد الوفاء به؛ فهو مندوب في حقه مطلوب المداومة عليه، بمقتضى التزامه أونذره. ولهذا قال عليه السلام:" من نذر أن يطيع الله فليطعه". وقال تعالى في معرض المدح:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)، وقال تعالى في الذين ابتدعوا الطاعات ووفوا بها: (وَآتَيْنَا الذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) على بعض التفاسير .

قال في "روح المعاني": (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي ما حافظوا عليها حق المحافظة، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر، وهو عهد مع الله تعالى يجب رعايته، لاسيما إذا قصد به رضاه عز وجل، ويستدل بذلك على أن من اعتاد تطوعا، كُره له تركه. هـ.

[طرق أخذ الأوراد، وشروط شيخ التربية]

إذا علمت هذا، فالملتزم للتعبدات، من صلوات وأذكار:

إما أن يكون التزامه إتباعا للوارد، وطلبا للأجر والفضل الثابت في الكتاب والسنة، من غير واسطة، بل أخذه متصلا بهما.

أو بواسطة إمام غير حي من أهل التصوف، رسم ذلك في كتابه ورغَّب فيه، وأذن فيه إذنا عاما، كمثل الأوراد المرتبة في كتاب "الإحياء" للغزالي، وكتاب "عوارف المعارف" للسهروردي، وغيرهما. فهذا واضح لا يحتاج إلى إذن شيخ.

وإما أن يكون ذلك الورد، مأخوذا ومأذونا فيه، من شيخ حي، فهذا إما أن يكون أخذه منه على سبيل التبرك وطلب الفضل، فهذا يلحق بسالفه. وإما أن يكون على سبيل الأخذ باليد والإيصال إلى حضرة الله بالإرشاد والتأديب والتربية، وهذا هو شيخ التربية. ولابد فيه من شروط مقررة عند أهل الطريق، بأن يكون عارفاً كاملاً، قد سلك طريق الحق ووصل إلى حضرته، فتنور وصار ذا بصيرة وهمة عالية سامية، لا تعلق له بغير الله، ولا اعتماد له على سواه، مصون السر عن الالتفات إلى الخلق، مرفوع الهمة على تأهيلهم، مكتفيا بالحق، متحققا بالحقيقة في جميع الأحوال، متوسما بالشريعة في الأقوال والأفعال. قاله سيدي الطالب، وساقه عن الشيخ زروق في "النصيحة".

والحاصل أنه لابد في شيخ التربية، أن يكون جامعا بين علمي الشريعة والحقيقة، متصفا بهما على أكمل وجه وأتمه. ولهذا أشار الشريشيّ في الرائية:

وللشيخ آياتٌ إذا لم تكن لـــــهُ فما هو إلا في ليالي الهوى يسري

إذا لـم يكن لديـه علمٌ بظاهـــــر ولا باطن فاضرب بـه لججَ البحـر
وان كان إلا أنه غيرُ جـامـــــع لوصفيهمـا جمعاً على أكمل الأمـر
فاقرب أحوالِ العليلِ إلى الرَّد ى إذا لـم يكن منـه الطبيبُ على خُبر

وقد رأيتُ للشيخ محيي الدين، في "الفتوحات"، عبارة جامعة في الموضوع، وهي في الحقيقة جامع للأخلاق النبوية، والشمائل المحمودة المرضية، الواردة في الوصايا السُّنية السَّنية، إذ قال بعد ما ذكر ما أسلفناه عنه في شأن الشيوخ وانهم نواب الحق بحكم الوراثة عن الرسول، عليه السلام، ولهم حفظ الشرائع وحفظ القلوب في الخصوص، وانهم بمنزلة الأطباء ـ كما سبق لفظ كلامه ـ ثم قال بعد ذلك:

" فالشيوخ على حالين؛ عارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهر هم، متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله، ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، يُوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويُميطون الأذى عن طريق الله وطريق الناس، يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدون الحقوق إلى أهلها، يبرون إخوانهم بل الناس أجمعهم، لا يقتصرون بالجود على معارفهم، جودهم مطلق، الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ وكفء، والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة؛ يتفقدون حوائجهم، إن أطاعوا، رأوا الحق فوقهم في طاعتهم إياه، وإن عصوا، سارعوا بالتوبة والحياء من الله، ولاموا نفوسهم على ما صدر منهم، ولا يهربون في معاصيهم إلى القضاء والقدر، فإنه سوء أدب مع الله، هينون لينون، رحماء بينهم، تراهم ركعا سُجَّداً، في نظرهم رحمة لعباد الله، كأنهم يبكون، الهمّ عليهم أغلب من الفرح، لما يعطيه موطن التكليف. فمثل هؤلاء، هم الذين يقتدى بهم، ويجب احترامهم، وهم الذين إذا رؤوا ذكر الله "هـ[365/2].

قلت؛ وما قاله هذا الإمام في الشيخ، هو كله مقتبس من الآيات القرآنية، والأخلاق النبوية. وفي وصيته عليه السلام، لسيدنا معاذ بن جبل، ما يشير إلى أكثر أصول ما ذكره محيي الدين، بل يزيد على ذلك، إذ قال له، صلى الله عليه وسلم:

"يا معاذ : إني أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجار، وكتم الغيظ، وخفض الجناح، وبذل السلام، ولين الكلام، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل. وأنهاك أن تشتم مسلما، أو تكذب صادقا، أو تصدق كاذبا، أو تعصي إماما عادلا. يا معاذ: اذكر الله عند كل حجر وشجر، وأحدث مع كل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية ".

وزاد في رواية: "وعد المريض، وأسرع في حوائج الأرامل والضعفاء، وجالس الفقراء والمساكين، وأنصف الناس من نفسك، وقل الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم"هـ.[حلية الأولياء240/1].

وهذا يعرفك أن أهل الله الصاد قين، لا يأتونك في كلامهم الصريح، ولا في الإشارة والتلويح، إلا بما يأخذونه من الكتاب العزيز، الذي هو تبيان لكل شيء من العلوم الظاهرة والباطنة. وكل ما خفي أو أشكل على الفهم؛ شرحته السنة النبوية، وكشفت حجب المعاني عنه بمقتضى قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم)، وقال: (هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ).

والخلاصة هنا؛ أن من ألهمه الله رشده، ووفقه لأن يصيب مراده وقصده، أن يلقي سمعه ويحضر باله، ويستجمع عقله وفهمه، في التلقي من الكتاب والسنة، ويجعلهما شغله في كل روحة وغدوة، وليعد فيهما نظره، ويردد في معانيهما فكره، فإنه يجد فيهما علم الأولين والآخرين، ونصوص المتشرعين، وأسرار المتصوفين، ولا يسبقن إلى وهمه أن هناك شيئاً مستدركاً عليهما، ولا خيرا لنقص فيهما، وكل ما نسمعه أو نقرؤه في كلام أي عالم من العلماء، أو شيخ من الشيوخ الموثوق بهم، فإنما هو من كلام الله أو رسوله مقتبس، إما بنص واضح، أو فهم أوتيه فيهما لائح. وما سوى ذلك، مما يتحقق أنه مختلق، فهو مردود على صاحبه، مرمي به عليه كالثوب المختلق، والكل من أهل الشريعة والحقيقة به يعترف، وأنه من هذين البحرين اللذين يلتقيان يغترف.

الإلهام والكشف وشروط الأخذ بهما
وما قاله في ذلك علماء الشريعة وأهل الحقيقة

أما أهل الشريعة ؛ فأدلتهم محصورة في الكتاب والسنة، وما يرجع إليهما من القياس والإجماع.

وأما أهل الحقيقة؛ فهم أيضا لا يتعدون هذا إلا في التعبير، وربما توسعوا في الأخذ، وأطلقوا العنان في أفقهم، وربما أضافوا لذلك الإلهام والكشف. وبتأمل كلام المحققين منهم، يعلم أنهم لم يخرجوا قط عن التشريع، بل نصوص أئمتهم المرجوع إليهم في هذا الشأن ، يصرحون فيها بذلك، ويجعلون ما خرج عن هذا، هو خروجا عن طريقهم .

أما أهل الظاهر؛ فنصوصهم بذلك لا تخفى، إذ قالوا إن الأحكام الشرعية لا تؤخذ بطريق الإلهام والكشف، وإن الإجماع على أن معرفة أحكام الله، لا ثبوت لها إلا بأدلتها المقررة، أي التي هي الكتاب والسنة، وما يرجع إليهما، كما سبق. قال صاحب "جمع الجوامع":

"الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج به الصدر، يخصّ به الله بعض أصفيائه، وليس بحجة، لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره، خلافا لبعض الصوفية" هـ .

وعلى جواز العمل بالإلهام، وما في معناه، فهو مشروط بما أشرنا إليه، بأن لا يكون خارجا عن الأدلة الشرعية.

وفي "الموافقات"، بعد أن ذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، حذّر وبشّر، وأنذر وندب، وتصرف بمقتضى الخوارق؛ من الفراسة الصادقة، والإلهام الصحيح، والكشف الواضح، والرؤيا الصالحة، وأن من فعل مثل ذلك، ممن اختص بشيء من هذه الأمور، على طريق من الصواب، وذكر أدلة ذلك، قال:

"ولكن يبقى هنا النظر في شرط العمل على مقتضى هذه الأمور". ثم قال: "وذلك أن هذه الأمور لا يصح أن تراعى إلا بشرط أن لا تخرم حكما شرعيا، ولا قاعدة دينية، فان ما يخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا، ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال، أو وهم، أو إلقاء

الشيطان. وقد يخالطه ما هو حق، وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصح اعتباره من جهة معارضته لما هو مشروع ". وقال بعد هذا:

"ومن هنا يعلم، أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، فلا يصح ردها ولا قبولها؛ إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فان ساغت هناك، فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تقبل "هـ[2/183-194].

وأما نصوص أهل الباطن من الصوفية؛ فهي كثيرة. وقد نقلنا منها جملة كثيرة في شرحنا على "المشيشية"، عند قول الشيخ: {واحْمِلْني على سبيلِه إلى حضْرَتِك}.

منها قول أبي سليمان الداراني، أحد كبار الصوفية: ما قبلت خاطرا إلا بشاهدين عدلين؛ الكتاب والسنة.

وقال الإمام الشاذلي، رضي الله عنه: ضمنت لنا العصمة في الشريعة، ولم تضمن لنا في الخواطر هـ .

وفي "الفتوحات": ما فتح الله به عليه في قلبه [أي قلب الولي] من العلوم الإلهية التي هي فتح عين فهمه لما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، من القرآن والأخبار، لا أن هذا الولي يأتي بشرع جديد. وإنما يأتي بفهم جديد في الكتاب العزيز لم يكن غيره يعرف أن ذلك المعنى في ذلك الحرف المتلوّ أو المنقول.هـ من الجزء الثالث صحيفة 52 .

وقال أيضا في "الفتوحات"، بعد كلام: فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي، إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه هـ[3/334].

يقول الشيخ محيي الدين؛ إن كل ما نأتي به من المواعظ والحكم، وما نرشد به السالك، وما نرسمه في المقامات والمنازل، كله ناشئ عما نفهمه من القرآن الكريم، ومن آيات الذكر الحكيم. وقد قال سيدنا علي: ما أسر إليَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شيئا كتمه عن الناس، إلا أن يؤتي الله، عز وجل، عبداً فهماً في كتابه. وقال سيدنا عبد الله بن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن. أي يحركه ويجتلي معانيه بتدبر وتأمل.

ما قاله الأئمة في سقوط منزلة الشيخوخة
في هذه الأزمان المتأخرة

هذا، ولتعذر تطبيق هذه الشروط في الشيوخ في هذه الأزمنة المتأخرة، حكم الأئمة بفقدان شيوخ التربية على المنهج المعهود عند أرباب هذا الشأن، فقد قال شيخ الطريقة ومحييها، أبوالعباس، سيدي أحمد زروق:

"سمعت شيخنا أبا العباس الحضرمي، رضي الله عنه، يقول: ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة أربع وعشرين وثمانمائة(824)، ولم يبق إلا الإفادة بالهمة والحال. فعليكم باتباع الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.هـ بنقل الإمام المسناوي، في "أجوبته". وقال بعد ذلك: (تنبيه) على بعض ما يتعلق بالشيخ، لذكره في السؤال: هذا اللفظ مما ابتذل في هذا الزمان، وصار يطلق على من لم يشمّ أدنى رائحة لهذا الشأن. ومن أراد معرفة حقيقته وأقسامه، والاطلاع على شروطه وأحكامه، فليطالع "عدة المريد الصادق" هـ المراد. [النوازل ص180].

وقد قال الشيخ الطالب ابن الحاج، عند قول "المرشد": (يصحب شيخا عارف المسالك):

"إن من ليس كذلك، لا يطلب صحبته، بل تجب مجانبته وهجرته، لسريان دائه للصاحب، ومشاركته له في سوء العواقب. ومن هنا حذر الناصحون من الدخول في الطريق في هذا الزمان، والاستناد فيه إلى أحد ممن يُظن أنه من أهل هذا الشأن، لكثرة الغلط، وفقد شيخ يلقي المرء إليه قياده ويقتفيه، ولا ترى إلا المريدين المبطلين. ولله در أبي مدين، إذ يقول في رائيته :

واعلم بأن طريق القوم قد درست وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

هـ[ج1/ 158] .

ثم إن هؤلاء مع تجردهم عن حال المشيخة، بل ومن لباس التقوى، وتعمقهم في التمتع باللذات، كما يحب أحدهم ويهوى؛ يُكثرون الدعوى، ويوقعون أصحابهم بها في البلوى، ويلفقون لهم أحاديث كاذبة، وانتسابات لمقامات هي لأحوالهم غير مناسبة .

وقد ذكر الإمام ابن الحاج في "مدخله"، في تلبيسات هؤلاء، ما يفضح المفتر، وينبه الصاحب المغتر، وصدّر ذلك بفصل قال فيه:

"واعلم أن الطريقة الصوفية نظيفة، وأقل شيء يدنس النظيف. لا جرم أنه قد كثر التدليس والتخليط وظهر. وسبب ذلك أن كل طريقة ادعاها الإنسان، فضحته فيها شواهد الامتحان، إلا هذه الطريقة، فإنه لا يفتضح فيها غالبا ".

ثم ذكر السبب في ذلك، ثم عقد فصلا ذكر فيه جزئيات من تلبيسات المشايخ، وادعاءاتهم الكاذبة، وافتراءاتهم الشنيعة، فقال :

"وهذا باب متشعب، قلّ أن تنحصر مفاسده، أو يتعين ما يقع منه لكثرته، لكن نشير إلى شيء منه متسع ، ليستدل به على ماعداه، والله المستعان. فمن ذلك أن كثيرا من الناس، يدَّعي الدين والصلاح، وأنه من أهل الوصول، ويأتي بحكايات من تقدم من الأكابر ويطرز بها كلامه، وهو مع ذلك يشير إلى نفسه بلسان حاله، وأن عنده من ذلك طرفا. وبعضهم يزعم أنه حصل له من ذلك الأمر حاصل. ومنهم من له القدرة على تصنيف الحكايات والمراني التي يختلقها من تلقاء نفسه، سيما والعياذ بالله تعالى، ما ابتُلي به بعضهم، من تجرئه ودعواه رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، وأنه أقبل عليه وخاطبه، وأمره ونهاه". ثم قال:

"وبالجملة، فأحوالهم الرديئة لا تنحصر". قال: "هذا حال المستترين منهم. وأما غيرهم، فقد خرقوا السياج. وليس العجب منهم، بل العجب ممن يعتقدهم أو يميل إليهم، مع ما هم فيه من مخالفة الشرع الشريف". أنظر تمام كلامه في كشف عوراتهم، وبيان مخالفتهم وانحرافهم، وخروجهم عن المنهج القويم، واتباعهم غير الطريق المستقيم[ج3 ص194].

قلت: وهذا الانحراف الواقع في هذا الطريق، والاختلال الفادح في استقامتها؛ هو الذي، فيما يظهر لي، حرّف شيخنا البقالي، المترجم، أن لا يتقيد بطريق من هذه الطرق، ولا ينتسب إلى شيخ ملتبس أمره عليه.

من أراد النجاة فليجعل القرآن والسنة شيخا له،
ويستعين بكتُب أهل التصوف الحقيقي

قلت؛ وأنا على طريق شيخي المذكور، إذ لم أتقيد الآن بطريقة من هذه الطرق، وان كنت أسالم الجميع، وأعتقد أن طريق الإمام الجنيد وأتباعه؛ من أهل "الرسالة القشيرية"، ورجال "الحلية"، وأمثالهم؛ هم على حق وهدى من ربهم، كما قال تاج السبكي في "عقائده": وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه، طريق مقوّم.هـ. أي لأن استقامتهم أمر مقطوع به، كما قاله الشيخ حلولو، في مبحث اعتقاد صلاحهم، لأنهم جمعوا بين الشريعة والحقيقة.

هذا، مع عائلتنا، من الآباء والأجداد، كلهم ينتسبون لطريق من هذه الطرق، فأبي ينتسب للشاذلية أن ، من طريق ابن عجيبة والحرَّاق، كما سبق أول "الفهرسة"، وجدي من قبل الأم، ينتسب إليها من طريق الشيخ المُربي، سيدي أحمد ابن عبد المؤمن، إذ كان مقدم زاويته بتطوان، وابن العم الناسك، السيد الحاج العربي، كان مأذونا له في تلقين الورد الحراقي من قبل الشيخ الخلانجي السالمي، أحد تلاميذ الشيخ الحراق، وبقي يحتفظ به ولم يلقن أحدا حتى أداه إلى حفيده الذاكر سيدي إدريس، حسبما أخبرني بذلك الخير الذاكر، المرحوم سيدي احمد حلحول.

لأني لم أر ببصري القاصر، ولا ببصيرتي الفاترة، بهذه الزوايا، من أحرز بعض هذه المزايا، حتى ينقذني من حالي [ ] بحاله، أو يدلني على الوصول إلى رضى الله بمقاله.

ولهذا جعلت وجهتي إلى التلقي من الكتاب والسنة، وتوكف الاقتداء والهداية، من كتب أهل الولاية، الذين لهم البشرى، في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، وجعلت هجيراي من كتب أهل التصوف؛ الرسالة القشيرية، وعوارف المعارف للسهروردي، وإحياء الغزالي، والفتوحات لمحيي الدين، واتخذتها بمنزلة شيخي، وقلت في ذلك :

لما نظرتُ إلى الشيوخ فلم أجِدْ   شيخاً يلقنني بلوغَ المقصَدِ
أقمتُ مجتهداً أجَلُّ مشايخي   كتبُ الإمام الحاتمي المتفرِّدِ
بحرُ المعارفِ والحقائق والهُدى   محيي الديانةِ والطريق الأقصَدِ

فتحـاته فتـــــح لكل إشــــــارة وفصولـها وصل لعذب الــمـورد

حيث المقاماتُ والمنـازل فُتّحـت أبوابُـــها للـذاكــر المتهجّــــدِ

أبدت لنـــا شِيَمَ الذيـن تقدــمـوا من كـلّ قطبٍ في الولايةِ مهتـدي

عنهم فخُـذ وبفضلِهم فلُــــــــذ وبجَـاهِهِم فعُذ من شَـرِّ المُعتــدِي

وهنـاكَ في طيِّ الفتوحاتِ مُشكِلٌ يُعيي فُهـومَ المُنتَهـي والمُبتَـدِي

لكن لديها مبــاحثُ مفهومَـــــــة تَهدي المـريدَ بنورهـا المُتوقّــدِ

من محكم في قوله يقضي علـى متشابِهٍ فـي فهمـــه ومُعقَّـــــدِ

لا سيما تلك الوصايا وقد بَـدَت محفوفةً بشــواهِـــدَ ومُعَضِّــــدِ

نبويَّـةٌ سلفيَّــةٌ مأثـــــــــــورَةٌ في فصولِها من مُرشدٍ عن مُرشِدِ

كالشمسِ لائحة الضيـاءِ فنورُها يُبدي الطريقَ طريقَ ديـنِ مُحَمَّـدِ

فابهَج بها وانهَجْ طريقَ رشادِهـا واحفظ مباحِثَها الرشيدَةَ تَسْعَـــــدِ

قلت: ومن الاتفاقات الواقعة لي في هذا الموضوع، أنه كان زارنا [بتطوان]في شهر[ ] من السنة المنصرمة وهي سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة وألف[شهر شتمبر1962] الفقيه الواعظ المتصوف الشريف، سيدي المكي، ابن شيخنا العلامة الورع سيدي محمد بن جعفر الكتاني، وكنت اجتمعت به مراراً وتذاكرت معه في موضوعات مختلفة. ومن جملة ذلك ما ساقه الحديث في شأن القطب سيدي محيي الدين ابن عربي الحاتمي، فوجدت الفقيه المذكور مغرماً به وبفتوحاته. وأخيراً قال لي: إني اتخذت الفتوحات شيخاً لي. فعجبت من هذا الاتفاق. ومن الغد أتيته بهذه الأبيات فقرأها وقبلها، وقال لي: هذا من الاتفاق ووقوع الحافر على الحافر، أو كلاماً هذا معناه.

الحاتمي واختلاف الناس في شأنه،
وما قاله المحققون فيه وفي فتوحاته

هذا، ولا يخفى ما للعلماء المتقدمين والمتأخرين، في شأن الحاتمي، وفتوحاته. فمنهم المنتقد، ومنهم المعتقد. فالمنتقد وصل به إلى حد الكفر، والمعتقد أوصله إلى درجة القطبانية. وقد سئل عن ذلك الإمام الغوري، فقال:

أعرَف بكل فن من أهل كل فن. قيل له: ما سألناك عن هذا. فقال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية. قيل له: فما ترجّح؟ قال: التسليم هـ.

أما الشيخ ابن تيمية، فإنه جرد سيوف تضليله وأرهف حدودها، للوقوع في محيي الدين، وأضرابه، وإن كان في نظره أن محيي الدين، أقرب من الإسلام من غيره.

وقد تعرض لرد كلامه، الإمام ابن حجر الهيثمي، في أجوبته الحديثية، وضلّل من أجل ذلك ابن تيمية، وردّ ذلك عليه رداً عنيفاً.

وإني لأعجب من الحافظ الذهبي، حيث لم يتبع ابن تيمية، الذي هو شيخه، في التصريح بالتضليل، مع اتباعه في كثير من مبادئه، حيث ارتكب طريقاً وسطاً، إذ قال فيه ما لفظه: "إن له توسعاً في الكلام، وذكاءً وقوة خاطر، وحافظة وتوفيقاً في التصوف، وتواليف جمة في العرفان، لولا شطحه في كلامه وشعره. ولعل ذلك وقع في حال سكره وغيبته، فيرجى له الخير". هـ.

وهذا الكلام من الذهبي، فيه شم رائحة التسليم. فتصير المذاهب فيه ثلاثة: التضليل، والولاية والقطبانية، والتسليم وعدم القدح أو المدح.

ولنحو هذا المذهب، يشير جواب الإمام النووي، إذ قال فيه: الكلام كلام صوفي، وتلك أمة قد خلت. هـ.

وقد كنت كتبت على أول الجزء الثاني من "الفتوحات"، ما لفظه:

إعلم أن مؤلف هذا الكتاب، وهو زعيم الفئة الصوفية، قد تباينت فيه الآراء، فمن معتقد أنه شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وعمدة الحقيقة حقيقة ورسماً، وأنه فرد الأكوان، وغوث الزمان. ومن منتقد ممعن في النكير، وصل به إلى حد التكفير.

والحق الذي عليه الجماعة، أنه حجة الله الظاهرة، وآيته الباهرة، وما انتقده به المنتقد، رده أعلام الأئمة، وان انتقادهم لكلامه إنما هو لقصور الفهم ونقصان إدراك الهمة، وقد ألف العلماء في الرد عليهم، والتنويه بقدر الشيخ؛ مؤلفات، منها؛ "تنبيه الغبي، على تنزيه ابن العربي"، للسيوطي. ومنها: "الاغتباط "، لمجد الدين الفيروزبادي، صاحب القاموس، وغير ذلك .

أما كلامه؛ ففيه المحكم البين، والمتشابه المشكل، فيرد متشابهه الى محكمه. قال الشيخ أبو سالم العياشي في "رحلته":

[وكثيرا ما سمعت من] شيخنا العلامة، سيدي عبد القادر [الفاسي]، رضي الله عنه، يقول: محكم كلامه، يعني ابن العربي، يقضي على متشابهه، ومُطلقه يُرَدُّ إلى مقيده، ومجمله إلى مبيّنه، ومبهمه إلى صريحه، كما هو شأن كل كلام ظهرت عدالة صاحبه هـ.[402/1].

ومع هذا، فقد حذر العلماء العارفون من مطالعة كتاب "الفتوحات" وأشباهه، خوفاً على القاصر من الفتنة في اعتقاده، وفهم كلامه على غير قصده ومراده. قال العارف سيدي يوسف الفاسي، في كتاب إلى بعض تلاميذه:

ولاتزال تطالع كتب ابن عطاء الله، وما شابهها، لأنها أقرب للتصوف والجمع على الله، ودع سواها، ككتب الشيخ الحاتمي، وابن الفارض، لأنها تسد عنك باب الفتح هـ.

وجعل الشيخ حسن العطار، مؤلفات الشيخ الحاتمي وأضرابه، من الغوامض التي لا يفهمها إلا من ذاق أذواقهم.[قال]: وقد لا تفي عبارتهم بشرح المعاني التي أرادوها، بل ربما صادمت الدلائل العقلية. فالأولى عدم الخوض فيها، ويسلم لهم حالهم هـ[حاشيته على شرح "جمع الجوامع"467/2].

وإني لأعجب هنا من بعض عوام الفقراء، يدمن مطالعة "الفتوحات"، ويدعي أنه يفهمها تمام الفهم، حتى إن بعض العلماء ممن كان يخالط بعض هؤلاء، كان يقول إنه كان يفهم كلام "الفتوحات" أحسن منه.

وهذا لا يسلمه العقل ولا يقبله، إلا إن كان من قبيل الخوارق والكرامات. وذلك أن كلام "الفتوحات"، الخالي من المتشابهات، الجاري على القواعد المحكمات، لا يفهمه العامي

قطعاً تمام الفهم، ولاسيما وكلام هذا الشيخ كله ممزوج بقواعد علمية يأتي بها في غضون كلامه قضايا مسلمة، ومسائل فنية، وكليات مؤسسة، وجزئيات مفصلة، في أبواب فنونها؛ من تفسير وحديث وفقه، وأصول وكلام ومنطق، وبيان ومعاني وسير وشمائل، وتاريخ وهندسة وحساب وفلك، وغير ذلك من العلوم التي قد تخفى حتى على كثير من أهل العلم، فكيف بالعامي الجاهل.

قلت: أما أنا، فإني ،كما أشرت إليه، ألازم مطالعة كتاب "الفتوحات". ولكن أتتبع منها ما يقبله فهمي من الواضحات، أو ما يفتح الله علي فيها من التأويلات، ومهما أشكل علي الكلام، واشتبه علي الأمر، وآنست فيها ما يصادم النقل أو العقل؛ تركته وانتقلت للواضح البين. وكنت أشاهد فيما أفهمه أثراً عظيماً في قلبي، وأجد له روعة وبهجة لا أجدها في كلام غيره، وربما انفتحت لي بكلامه بعض المغلقات، واتضحت بعض المشكلات، ولا غرو في ذلك، فقد ذكر المحققون من أهل العلم والفهم، العارفون بقدره وبموقع كلامه، أن من خصائص مطالعة كتبه؛ انشراح الصدر على المشكلات، وفتح المغلقات. فقد سئل العلامة الفيروزبادي، صاحب القاموس، عن كتبه كالفتوحات وغيرها، هل تحل قراءتها وإقراؤها؟ فأجاب بالتنويه بقدر الشيخ، ومن جملة جوابه أن قال:

"ومن خواص كتبه، أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها، وتأمل ما في بيانها، انشرح صدره لحل المشكلات، وفك المعضلات. وهذا الشأن لا يكون إلا لأناس ممن خصه الله تعالى، بالعلوم اللدنية الربانية ".هـ

وبعد أن كتبت ما كنت أعده في مطالعة "الفتوحات"، من القبول لما أفهم، والتسليم لما انبهم، وجدت في "رحلة" أبي سالم العياشي، ما لفظه، بعد ذكر بعض انتقاد المنتقدين: ومن أيد بنور العلم، لم يشكل عليه شيء مما ورد عن أهل الله، مما يبادر عوام المترسمة إلى إنكاره. قال أبو سالم:

"وإني أحمد الله حمداً كثيراً، وأشكره شكراً أثيراً، على ما منحني من حسن الاستماع، وحسن القبول لما أسمع من كلامهم، فإني بحمد الله ما أذكر أني سمعت كلاماً من كلامهم، فنفر منه قلبي أو كرهه، وإن كان في غاية الإشكال، بل ينشرح قلبي لسماعه وقبوله ولو لم أفهمه. وغالبه لا أكرر النظر فيه مراراً بحسن النية إلا ويمن الله بفهمه على وجهه،

أوظهور محمل لائق أحمله عليه. وما لم أجد له محملاً أجد في قلبي بَرَد التسليم له، والتفويض في معناه لله ولرسوله، ولأولي العلم من خلقه، إذ هم خلفاء الله ورسوله في فهم كلامه وكلام أوليائه". هـ[353/1].

قلت: ولما وقفت على هذا الكلام، ابتهجت به، إذ كان منهجي من غير إرشاد مرشد، ولا كلام سمعته من غيري إليه أستند، وإنما ذلك من توفيق ومددٍ من العلي الكبير. ولا يعارض ما قلناه هنا ونقلناه عن المجد الفيروزبادي، وعن أبي سالم، ما سبق لنا من نهي العارف سيدي يوسف الفاسي، عن مطالعة كتب الحاتمي، لأن نهي سيدي يوسف، محله التلميذ المبتدئ، الذي لم يمارس كتب القوم، ولا سبق له إلمام بمصطلحهم في أذواقهم وإشارتهم، إذ من كان على هذه الحالة، ربما صدته هذه الكتب عن قصده، وأرجعته إلى الوراء، وأخرجته عن حده، لأنها مزلّة أقدام، ومضلّة أفهام، إلا للمنتهي الراسخ، أو المتوسط الممارس، الذي يأخذ الأسهل باليمين، ويلقى المشكل المغلق بقلب سليم، ممتطياً مطية التسليم، سائلاً فتح ما أغلق عليه في فهمه من الفتاح العليم. وشرح هذا من قول الإمام العارف، سيدي أحمد زروق، إذ قال في كتب الحاتمي وأشباهه:

"إن لها رجالاً لهم في الحقائق مجال، وعندهم في التمييز مقال، فلا يشتغل بها في البداية إلا قويّ، ولا في النهاية إلا جليّ، ولا في التوسط إلا ذكيّ، يأخذ بما بان رشده، ويسلم بما وراء ذلك ليسلم من آفاته". هـ.

وهنا نرسي سفينة الخوض في بحر هذه المباحث المديد، على نية العود إليها إن يسر الله.

الرجوع إلى إتمام ترجمة شيخنا البقالي

ثم نواصل إتمام ترجمة شيخنا البقالي، فنقول: إنه، رحمه الله، كما تقدمت الإشارة إليه، كان يتعاطى كعادة أمثاله من العلماء، التدريس والفتوى والشهادة والخطابة بالمسجد العتيق بهذه المدينة، جامع القصبة. وفي الأخير رُتّب مدرساً بالزاوية الريسونية، كما قلد من الوظائف الحكومية؛ عدلاً بالديوانة التي بين الحدود الريفية ومدينة مليلية، وقُدّم للقضاء بهذا الثغر التطواني، ولكن لسان حاله كان ينشد :

وليت القضاء وليتَ القضا　　لم يك شيئـا توليتُهُ
وقد ساقني للقضـاء القضـا　　وما كنت قدما تمنيتُهُ

ثم أخر عنه، فكان ذلك من أمانيه المنشودة، إذ كان رحمه الله، كثيراً ما يناجي ربه ويسأله أن ينقذه من الذبح بسكين هذه الولاية، التي قلما يخلص من الغرق، من خاض في بحرها الخضم، فقد كان أخبرني بعضهم أنه شاهد أو سمع من شاهد الفقيه المذكور، في ضاحية النهار، في بستانه حاسر الرأس، وهو يدعو ويقول؛ يا رب أقلني، أو نجني، من هذه البلية، أو نحو ذلك.

ولاشك أنها بلية وأي بلية، إذ متوليها في خطر عظيم. وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: "من ولي القضاء، فقد ذبح بغير سكين". وروى أصحاب السنن والحاكم، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "القضاة ثلاثة؛ إثنان في النار، وواحد في الجنة. رجل علم الحق فقضى به، فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار".

والرجاء أن يكون شيخنا من مفرد الثلاثة، كما دعا بذلك الإمام ابن عاصم، إذ قال :

وذاك لما أن بُليتُ بالقضا　　بعد شباب مر عنّي وانقضى
وإنني أسأل من رب قضا　　به عليَّ الرفق منه في القضا
والحَمْلَ والتوفيق أن أكونا　　من أمة بالحق يعدلونا
حتى أرى من مفرد الثلاثة　　وجنة الفردوس لي ورّاثة

ومن هذا الموضوع، أدعو لنفسي بما دعا به هذا الإمام، إذ قدر لي أن قضيت معظم عمري في هذه الخطة المحفوفة بالأخطار، الموقعة لصاحبها على شفا جرف هار من النار. ولا أنسى ما كان دعا لي به شيخنا الحافظ الحجة بالإطلاق، العديم النظير في الحديث والآثار بالاتفاق، الشيخ سيدي بوشعيب الدكالي، رحمه الله، إذ قال لي في كتاب وجهه إليّ في وصاية بمن تعلق به، وهو إذاك وزير العدلية لدى السلطان مولاي محمد، وأنا قاض بالعاصمة الخليفية: (جعلكم الله من مفرد الثلاثة، ولا خيب فيك رجاء أحبائك). وسنشير للرسالة بتمامها في ترجمته، إن شاء الله.

وقد عاش شيخنا البقالي، بعد تأخيره عن القضاء، على حاله المعتاد من مواصلة دروسه، واشتغاله بأمر معاشه ومعاده، هادئ البال، لا يتشوف لولاية، ولا يتسنم ذروة ذوي الرفاهية، ولم يتغير عن حاله المتواضعة، ولم يخرج عن سيرته الخمولية. واستمر على ذلك إلى أن اعتراه شلل في أعضائه، وانقباض في لسانه، ومع ذلك، كان يتابع دروسه الليلية في الزاوية الريسونية على عادته، إلى أن دعاه ربه فلبّى في يوم الجمعة، ثاني وعشري محرم من فاتح عام ألف وثلاثمائة وستة وثلاثين(1336). فأمحل ربع العلم والصلاح والتواضع من تطوان من فقده، وخلف في قلوب العارف بقدره حزنا من بعده. رحم الله شيخنا العظيم، ومتعه بالنعيم المقيم، في جنة النعيم.

وقد وقفتُ على رسالة في معنى رثائه، للفقيه التالي لكتاب الله، العابد الذاكر، أحد تلامذة الشيخ المربي سيدي الحاج عبد القادر ابن عجيبة؛ سيدي الحاج عبد الوهاب لوقش، كتب بها لصديقه الخيِّر الديِّن، العابد الناسك، الشريف سيدي المكي ابن ريسون، والد صديقنا الفقيه اللبيب، الشريف الجليل، سيدي محمد، وهو أحد المختصين بالفقيه المذكور في خلواته، حسبما تقدمت الإشارة إليه، ولفظها بعد صدر الخطاب:

(فعظم الله أجرنا وأجركم واحد، وسائر الشرفاء والسادات البقاليين، وأهل المحبة والصدق في دين الله، في شيخنا، شيخ الجماعة، وأخينا وأخيكم في ذات الله، العلامة الدراكة، المشارك المحصل، الهين اللين، سيدي محمد، ابن الأستاذ البركة، سيدي أحمد البقالي، ورحمه الله على الأبد، وجزاه بحمده، على الدين وأهله، شهادة كاملة يكون بها مع سيد الأولين والآخرين، وكبار أهل البيت والصحابة وجميع المنعم عليهم من النبيئين والشهداء والصالحين، آمين، ولا حرمنا أجره. ولا فتننا وإياكم بعده. وحيث لم يبق أحد يعمل بعلمه ونصحه، فالله أولى به، والله يرزق أولاده وأهل الصدق من أحباب الله، الصبر عليه وعلى من مضى من أمثاله. وإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فيا أسفى على الدين وغربة أمثاله. لكن الملك لله وحده، والله يُعلم وأنتم لا تعلمون).

القصيدة التي أنشأتها في رثاء شيخنا البقالي

وإني أقول كل ما قاله الشيخ عبد الوهاب لوقش، في شأن شيخنا، فهو حق، بل هو أكثر مما وصفه به، ولهذا حداني صدق محبة شيخنا المذكور، والمعرفة بقدره، أن أنشأت في رثائه وذكر جملة من أوصافه وشيمه الكريمة، قصيدة وهي:

لِمَـهْ تنطفي نار الأسى والتأسـفِ ... وكيف يكُفُّ القلب عن ذا التلهُّـفِ
وأنى يطيب لي التمتعُ بالمنـى ... وتهتزُّ نفسي للسرور وتحتفـي
وقد قُبِضَت نفسُ العلوم وأقـبرت ... ومات حليف الفضلِ في كل موقفِ
إمام همامٌ ناسـكٌ متهجـدٌ ... حليمٌ يفوق حلمُه حلـمَ أحنـَفِ
فقدنا عميدَ العلم والدينِ والتُقـى ... وركنَ الوفـاءِ والحيَا والتلـطفِ
يشـاركُ في كل العلـومِ مُبَـرِّزًا ... ويُختصُّ في أبحاثها بالتصرُّفِ
ففي الفقه إن تسأل، فسل عن دروسِهِ ... تجدها لفصل القول أجلى مُعَـرِّفِ
إذا أفتى في فتوى، ففتواه حجـة ... يسلم فحوى نصها كل مُنصِفِ
يوضح ما أخفاه نقل (ابن حـاجب) ... ويأتي (بتحصيل ابن رشـد) مُفوَّقِ
عليمٌ بأسرار النـوازل مبديـا ... مداركَها ينسيكَ فِقْهَ (مُطـرِّفِ)
ويستخرج المعنى بنبـل ذكائـهِ ... من اللفظِ إن أخفاه لفظُ المؤلِّـفِ
يوطئ في درس الموطا فصولَـها ... بنص خليلٍ إذ بـه الفقـهُ يستوفي
يساعدُه في نهجه حفظ متنـهِ ... فيا حسنَهُ من منهج بالمنى يفي
وفي علمِ تجويدِ القرآتِ فائـقٌ ... يعرفنا في حرفِـهِ بالمُحـرَّفِ
وفي الطبِّ يأسو مرشدا بإشـارةٍ ... يجد نفعها من قولِـه كلُّ مُدنـِفِ
وفي هيئة الأفلاك يدري قواعـداً ... يُذاكرُ في أبحاثِها غيْرَ مُسْـرِفِ
ولا ينتمي في الِادّعا لمتصـوفٍ ... وفي نسكِهِ قد فاقَ أهلَ التصـوفِ
ومن خلقه أن لا يعادي طريـقةً ... وإن رُمِيَتْ في سَيرِهَا بالتعسُّـفِ
يطيبُ له وصفُ الخمولِ مُنكَّـراً ... ويأنف أن يُدعى نِداءَ المُعـرَّفِ
إذا كان في حفلٍ رضي بطرْفِـهِ ... وأطرافُ جمعٍ قيل مثوى المشـرَّفِ
يجانب من يعتـاد تقبيـل كفـه ... ويزورُّ عنـهُ في الطريق وينكَفِـي

وشيمَتُهُ في النـاسِ إيثـارُ صَمْتِهِ وما نطقُهُ إلاّ بقـــولٍ مُثَـــــقَّــفِ

مضَى شيخُنا شيخُ العلومِ ولم يَدَعْ لنـا خَلَفاً نعتاضُــــــه بالمخلَّــــفِ

مضى شيخُنا والكلُّ يرثيـه باكياً ويفديـه لو يفدى بألفِ مُؤَلِّــــــفِ

محمَّدٌ المحمـودُ بالمجـدِ والتقـى وبالسيرة الغراءِ والخُلُق الوفـــــي

فيا آل بقـالٍ حظيتُـم بسيِّــــــدٍ ونلتم فَخـاراً بالإمـامِ الذي اصْطُفـــي

هنيئًا لكم إذ كـان حيًّا فخَارُكُـم وسيرتُهُ من بعدُ أسنـى مشــــرَّفِ

سقى الله قبرَ طيـبٍ عـاشَ طيِّباً إلى رفعةِ المختـار يعدو ويقتفـــــي

وأسكنَهُ في جنـاتِ الخلـدِ نـاعماً بمقعد صدقٍ في بهـاءٍ وزُخْــــرُفِ

[تذييل ترجمة الشيخ البقالي، بتقييد حول ما افتتن الناس به من ظواهر ومستحدثات]

في هذا الموضوع، إذ أشرت إلى ما كان عليه شيخنا من بعض الاطلاع على قواعد علم الهيئة، ودرايته بعلم التوقيت؛ وددت لو كان حياً في هذا العصر، الذي ادعى فيه أهل هذا الفن أنهم اطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم من المتقدمين، حتى زين لهم ذلك النزر اليسير الذي اطلعوا عليه من هذا الملك العظيم، أن يطاولوا الكواكب. ويعِدُّون لها المعدات ليصعدوا إليها ويستعمروها ويسكنوا فيها. وأول ما بدا لهم أن الصعود إليه أسهل، والوصول إليه أقرب؛ كوكب القمر، لأنه أقرب كوكب إلى الأرض. وأنه أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى، حتى افتُتن بذلك الناس، ولهذا لما آنست من بعضهم هذا الاغترار الناشئ عن الجهل بحكمة الباري في خلقه، وما حدده لكل مخلوق في سابق علمه؛ كتبت في ذلك ما فيه دفع هذا الاغترار، وإبطال ما تتشوف إليه هذه الأفكار، وأردت هنا إدخاله في ترجمة شيخنا البقالي المذكور، ليبقى محفوظا، ولكونه لو كان حيا لشارك في البحث في ذلك، ولراقه ما كتبته في ذلك. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب:

مقدمة التقييد

الحمد لله الذي أبدع هذا الكون فأحكم إبداعه وتقديره، ودبّر هذا الملك العظيم فأحسن خلقه وتدبيره، ونوَّع أنواعه وأجناسه، وخصَّ كل نوع وجنس بخصائص وألبسه كيف شاء لباسه، ووجه كلا لوجهته، وألهمه سلوك محجته. فلا سبيل لأي نوع أو جنس أن يخرج عن حدوده المحدودة، ولا التعدي عن حكمة منزلته المقصودة. خلق السماوات والأرض وما بينهما على أتم نظام وأكمل تدبير، وأظهر لنا ما أظهر، وأخفى ما أخفى، مما يعجز عن تعليل حسن نظامها أساطين الفلسفة، وحكماء الهندسة والتقدير، (تَبَارَكَ الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ).

والصلاة والسلام على من جال الآفاق، واخترق السبع الطباق، دون اختراع آلة مصنوعة، ولا طائرة معالجة بأدوات وخواص أرضية مجموعة، بل أركبه ربه، ليرينا التعلق بالأسباب، وإسناد القدرة لرب الأرباب، على دابة البُراق، فصارت به إلى ما تعجز عن رؤيته الأحداق، فشاهد من آيات ربه الكبرى، وأوحى إليه ربه في ذلك المقام ما أوحى، فأبصر صلى الله عليه وسلم، أسرار الملك والملكوت، ورأى بعينه أنوار القهر والجبروت، واكتسى بأنوار المعرفة والعرفان، وامتلأ قلبه بأسرار العلوم التي لم يحظ بها أي إنسان، فرجع، صلى الله عليه وسلم، فورا إلى مكانه، وما لبث إلا لمحة قليلة من زمانه، وصار يحدث أصحابه بما يبهر العقول، ولا يترك للجاحد ما ينتقده أو يقول. صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

أما بعد؛ فلما رأيت الناس في هذا العصر الحاضر، قد فتنوا بمستحدثات هذه الظواهر، ولهجوا بهذه العجائب المبتدعة والصنائع الدقيقة، التي كادت فيما يبدو أن تنقلب لها الحقيقة، إذ أوقعت من رقتها عقول العامة في رق الأوهام، وأوشكت أن ينقلب على عقبه من جرائها ذوو النباهة والأفهام، وربما أردت ببعض الجهلة فأوردتهم مورد التضليل، وساقهم سوء اعتقادهم إلى الإلحاد والتعطيل. وكل ذلك للجهل بأصول الديانة، وما جاء به الرسول في محكم الذكر الحكيم وأبانه، ولهذا كان من الواجب على أهل العلم أن يبينوا للناس حقائق ما نُزل إليهم، ويفسرون لهم دقائق ما خفي عليهم، ويدعونهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، لكي لا يكونوا بسكوتهم عن أحوالهم راضين، ولفساد عقائدهم معتقدين، ولئلا يعتل العليل في هذا التضليل، بقوله: هؤلاء علماؤنا وكبراؤنا أضلونا سواء السبيل.

وهذا هو الذي دعا كاتبه، أخذ الله بيده، أن يكتب هذه الأوراق. وسببه أنه كان في حفل ضمّ إليه من ذوي العلم وغيرهم، أفرادا جُلُّ خواصهم كان له إلى هذه الأحاديث الذائعة في العالم عن الصعود إلى القمر، صغو واستماع، وكاد أن يجزم بأن ذلك واقع بلا نزاع. ثم مع ما كان يخامر ضميرَهم من الظفر باحتلال السماء والتوغل في هضابها. والله الملهم للرشد والموفق لصوب الصواب .

مقالة مجملة خلاصتها

أن أسرار هذا الكون لا يحيط بها بشر

اعلم أن الديانات كلها، والشرائع السماوية بأسرها، لم تأت إلا بإرشاد الخلق إلى الحق، وتوجيههم إلى إفراد خالقهم بالتوجه إليه، والقيام بطاعته وعبادته، وإقامة الدين وعدم التفرق فيه، وهذا وحي عام أمر به سائر الرسل، وتعبد به جميع الأنبياء: (شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسىَ وَعِيسَى أَنَ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)،(هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) فالوحي السماوي والدِّين الخالص الإلهي، يجعل المقصود أمامك، وأن هذه الدار الفانية ما على الدوام فيها أقامك، وإنما هي قنطرة تُعبر ولا تعمر، ومجاز محدود، وأمد معدود، والدوام فيها على زاعمه مردود .

نعم؛ أبدع سبحانه لنا في عالم الشهادة ما أعجز به العقول، ووقفت دون الإحاطة بتحقيقه أفكار الفحول، وما خلق الخلق في هذه الدار، ومتعه بحواسه وخلق له ما في الأرض جميعا وبثه في ظهر هذه الغبراء ، وأظله بالسقف المرفوع من هذه الزرقاء؛ إلاّ ليستدل بآثار قدرته الباهرة، وآياته الواضحة الظاهرة؛ على وحدانيته، وكمال جلاله وعظيم قدرته، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ) وما قصد بهذه الآيات البينات، وأرسل بهذه الأدلة المنيرات، إلا ليرشد عباده إلى حضرته، ويدعوهم إلى نعيم جنته، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فالكل مأمور بإفراده بالربوبية، مكلف

بالتوجه إليه تعالى بالعبودية، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)، وما أمرنا سبحانه باستكشاف ما غاب عنا، أو زوى خبره علينا، ولا بالتطلع لما لا فائدة لنا فيه، ولا بالاشتغال بما لا يقتضيه الدين بل ينافيه، إلا ما ورد في ذلك عن الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا بما تلقاه من الملإ الأعلى.

هذه هي خطة الدين المرسومة، وطريقته المستقيمة. فحسب المؤمن الذكي أن يعتبر بالواضح البين، وأن يترك المشكل الذي لم يأمر بالتنقيب عنه الله ولا رسوله، ولا سلك مسلكه عالم متدين. وليجعل وراء ظهره ضلالة الفلسفة، فإنها كلها آيلة إلى الخروج عن الملة، والوقوع في الفسوق والسفه، ولينظر بعين الفطنة والذكاء، إلى هذه القبة الخضراء، حيث رفع الباري سمكها (فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)، وزينها بهذه الكواكب المنيرة، والمصابيح اللامحة المضيئة، وجعلها محفوظة من كل شيطان مارد، محجوبة في سيرها وسرها عن كل ملحد ومعاند .

فالمؤمن الموحد يشاهد في هذه المخلوقات آثار القدرة الربانية، ويرى بعين بصره وبصيرته حكمته البالغة القاهرة، فيرجع عن ذلك الاعتبار، وقلبه مليء بلوائح الأنوار، إذ يرى الشمس والقمر آيتين من آيات الله، خلقهما الباري جل جلاله والبسهما لباس الأنوار والضياء، وحلاَّهما بحلل الجمال والبهاء، وجعل فيهما لأهل هذه البسيطة منافع، وقدّر لهما بروجا ومنازل يقطعانها مرحلة فمرحلة، ليعلم بهما عدد السنين والحساب، ولمعرفة المواقيت المحتاج إليها دينا ودنيا، ولمنافع أخرى لا تعد ولا تحصى. ولولا تنقلات هذين النيرين في تلك البروج والمنازل، لأصبح الخلق في ليل بهيم من الضلال، يختلط عليه الحابل بالنابل، (هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)، ثم جعل الشمس سراجا وهاجا، ليتأتى للخلق السفر في مصالحهم، وليبتغوا فضلا من ربهم. وجعل القمر مشوبا بظلمة، لأنه سراج الليل. والليل جعله الله زمان راحة وسكون وهدوء، وتوقيف لأعمال النهار، إذ فيه تؤوب الأناسي إلى منازلها، وترتاد السكون في مضاجعها، وتغدوالحيوانات إلى مرابضها وأجحارها، والطيور إلى وكورها، ويتخذ كلّ قراره، ويميل لإراحة أعضائه وإعادة نشاطه. والضياء شأنه الإيقاظ وتنبه الأعضاء، لكنه سبحانه، لم يجعله ظلمة صرفة، بل جعل فيه من الضوء اللطيف ما يعين الساري في مسراه،

ولا ينتبه النائم في سريره. وفي ذلك كله حكمة بالغة، وتدبير لطيف، ورأفة بالخلق، (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) .

إن الفلاسفة المتقدمين، وأهل الهيأة من الفلكيين، من اليونان والعرب والروم والهنود وغيرهم، اتخذوا لمعاينة الكواكب والأفلاك، ومراقبة السيارات منها والثوابت؛ مراصد ومراقب، وما تركوا في جدهم واجتهادهم في الإطلاع على الحقيقة شيئا من الوسائل والأسباب، حتى ظنوا أنهم قد حصلوا على المراد، وأنهم أحاطوا بما قصدوه علما صحيحا لا يقبل التشكك والارتداد، فرسموا لذلك رسوما، وصوروا لذلك صورا، وكان تحقق في زعمهم أن هذه الأرض كرة تدور عليها أفلاك تسعة ومثلوها بالبصلة، ففي "رسائل إخوان الصفا":

"الأفلاك هي أجسام كريات مشفات مجوفات، وهي تسعة أفلاك مركبة بعضها في جوف بعض، كحلقة البصلة. فأدناها إلينا فلك القمر، وهو محيط بالهواء من جميع الجهات، كإحاطة قشرة البيضة ببياضها. والأرض في جوف الهواء، كالمح في بياضها. ومن وراء فلك القمر فلك عطارد. ومن وراء فلك عطارد، فلك الزهرة. ومن وراء فلك الزهرة، فلك الشمس. ومن وراء فلك الشمس، فلك المريخ. ومن وراء فلك المريخ، فلك المشتري. ومن وراء فلك المشتري، فلك زحل. ومن وراء فلك زحل، فلك الكواكب الثابتة. ومن وراء فلك الكواكب الثابتة، فلك المحيط ".هـ [74/1].

هذه هي الكواكب السيارة التي أدركت عند الأقدمين بالرصد، ولم يزل الحال سائرا عند الفلكيين على هذا التقويم. ثم ظهر لمن بعدهم في هذا الرصد أخطاء، فصار الآخر تارة يخطئ الأول، وتارة يؤيده، مما يتبين من ذلك أنهم في كل أرصادهم يبنون على الحدس والتخمين، وعلى التقديرات التي لم تقترن بيقين، وأنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله.

وهذا التخطيء لم يزل مستمرًا من لدن رؤساء هذا الفن، من أساطين حكماء اليونان وفلاسفتهم، من عهد بطليموس وطيمومارس ومابالاوس، إذ كان هؤلاء قد حكموا في الكواكب الثابتة بمقدار واتفقوا على صحته، واتصل الأمر بذلك سبعمائة سنة، والناس يقلدونهم في ذلك، إلى عهد المأمون العباسي، فوقع تجديد النظر في ذلك الرصد من علماء الصين في ذلك العصر. فألفوا فيه غلطا، واستصوبوا رصدهم، وسموه الرصد الممتحن،

وقرروه وأجمعوا عليه. ثم جاء أبو معشر مع جماعة من أمثاله بعد ستين عاما، فخطأوا الرصد الممتحن، واعتمدوا على ما زعموا أنهم حققوه في رصدهم. ثم جاء بعد أبي معشر، أبو الحسن المعروف بالصوفي، بعد نحو سبعين سنة، فغلط الأوائل والأواخر في أرصاد هم، وصنف كثيرا في معرفة الثوابت. قال فيه: ومعولهم على آلات مصورة من عَمل من لا يعرف الكواكب بأعيانها هـ.

وهكذا استمر هذا الاضطراب عند أهل هذا الفن، من العرب والروم وغيرهم، إلى عصرنا هذا، لأنه بعد أن أتى حين من الدهر، وهم مجمعون على أن الأرض هي مدار هذا الكون، تبين لهم أن هذا النظر خطأ، وأن مدار هذا الكون هو الشمس، وأن الكواكب تدور حولها في فلك بيضي أو اهليليجي، كما يقولون، وأن الأرض من جملة الكواكب، وأن القمر هو تابع للأرض، ولم يعدوه من السيارة. ثم صار هذا النظر يتبدل أيضا، وزعم أهل الفن في عصرنا الحاضر أنهم حققوا خلافه، وأن الشمس أيضا من جملة شموس تابعة للمجرَّة. وإليك عبارة [أحد] الخصيصين بنشر أبحاث هذا الفن في عصرنا الحاضر، وهو صاحب مجلة "المقتطف "، إذ قال في كتابه "فتوحات العلم الحديث":

"وضع علماء اليونان أول نظام فلكي تام، فكان أكبر حقيقة كشفوا عنها أن الأرض كرة. وكانوا يعتقدون أنها كرة مستقرة في مركز الكون، وأن على مسافات بعيدة عنها يدور القمر والشمس والسيارات الأخرى حولها، وأن النجوم مصابيح معلقة بباطن فضاء كروي، كالقبة تدور حول الأرض مرة كل يوم، وأن هذه القبة كانت وراء فلك أبعد السيارات، ولكن على مقربة منه، وأنها هي حد الكون الذي يرى".

"أما وقد عرفوا فيما عرفوهُ حجم الأرض والقمر، فقد حاولوا أن يقيسوا المسافة بين الأرض والشمس. ولكن الأدوات التي استعملوها لذلك لم تكن قد بلغت درجة من الإتقان تمكنهم من تحقيق غرضهم، فقال ارسترخس في القرن الثالث قبل المسيح؛ إن بعد الشمس عن الأرض يزيد تسعة عشر ضعفا عن بعد القمر عنها . ومع أن هذه المسافة ليست سوى جزء من عشر ين جزءا من بعد الشمس الحقيقي عن الأرض، ظل هذا القياس مسلما به إلى أوائل القرن الخامس عشر. ولكن خيال اليونانيين كان خيالا وثابا فكانوا يعمدون إليه حين

تخذلهم الأدوات، فحشدوا السيارات في كون صغير، إذا قيس بمقاييس الكـون المعروف الآن ".

"وصغر هذا الكون كان لا مندوحة عنه في مذهبهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن القبة التي علقوا بها النجوم، تدور حول محور الكون. فلما كبرت هذه القبة، زادت سرعتها عند خطها الاستوائي زيادة لا يسلم بها العاقل. فلما اضطروا أن يطيلوا قطرها، حتى يدخل فلك زحل فيها، حسبوا أن سرعة نجم على خط استوائها تبلغ ستة آلاف ميل في الثانية. فلا عجب إذا أبت عقولهم توسيع نطاق الكون ".

"وظلّ الكون الذي تصوره اليونان، بمقاييسه وشكله، مسيطرا على عقول الناس عصورا متوالية، إلى عهد كوبرنيقوس الذي جاء بشيرا للعصر الجديد، حينئذ أدرك الباحثون أن دورة القبة التي تصورها اليونان، إنما هي من بنات الخيال، فأحلوا محلها دورة الأرض نفسها، وهي لصغرها لا تقتضي سرعة تفوق حد التصور، ويتعذر التسليم بها. فقال إن محور الكون هو محور الأرض نفسها، وصرفوا النظر عن حسبان حدود الكون قبة تدور حوله. فلما تم ذلك، لم يوجد ما يمنع أن تكون النجوم بعيدة بعدا شاسعا عن الأرض، وعزلوا في الفضاء المجاور لنا النظام الشمسي، وقوامه الشمس والسيارات التي تدور حولها ومنها الأرض".

"فلما عزل النظام الشمسي عن الكون الذي يحيط به، اتجهت الأنظار إلى الكشف عن أسراره، واستنبط التلسكوب، فصحبته دقة في القياس لا عهد للعلماء بمثلها من قبل، وكشف عن نواميس الحركة، وناموس الجاذبية العام. فاستعملت أدوات لغزو الفضاء، فنشأ عن كل هذا، علم فلك جديد، أطلق عليه لقب فلك المكان ".

انتهى المراد من كلام صاحب كتاب "فتوحات العلم الحديث".[ص39]. والمقصود من نقله؛ ذكر الترددات والانقلابات في الأفكار، وعدم الثبوت في المعرفة والاستقرار، ممـا يدل على الحيرة وعدم الاطلاع على الحقيقة.

ويعجبني ما صرح به صاحب كتاب "نظام العالم والأمم"، إذ قال في هذا الكتاب[ج2 ص 13]:

"لعمري لقد حار الأقدمون والمحدثون في الكشف والعلم، وأقروا بالعجز، وانبهَر حكماؤهم، وعجز علماؤهم، وقالوا:(لا عِلمَ لنا إلا ما علَّمتَنا إنَّك أنت العليمُ الحكيم)؛ إن نظرنا إلى علماء الفلك، وجدناهم صاغرين أمام هذه الحكمة الباهرة، مقرين بالعجز والتقصير، غير معجبين بعقولهم، يثبتون اليوم ما نفوه بالأمس، ثم يقرون على ما نفوه فيثبتونه ". قال:

"فترى علماء الفلك قبل بطليموس، كانوا يحكمون بدوران الأرض حول الشمس. ثم عكس القضية بطليموس، ثم جاء من بعدهم كوبرنيكوس وأرجع الهيئة إلى حالها الأولى، والاعتقاد الأول، وسبقه إلى ذلك علماء الإسلام "هـ. وهو كلام من هذا المغرم بهذه الأفكار الحديثة، والتعلق بها، والتنويه بها؛ عجيب.

وخلاصة قولنا في هذه المقالة؛ إن أسرار الكون لا يحيط بها بشر، ولا يطلع على حقيقتها ثاقب الفكر، ولا حادّ النظر، وإن في هذا العالم عوالم لا يحصيها إلا خالقها، ولا يعلمها إلا مبديها ومنشئها، (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ).

ولهذا قال العلامة ابن خلدون:

"هذه الهيئة صناعة شريفة، وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة ".[المقدمة ص427].

الأجرام السماوية والكواكب السيارة
وهل يجوز النظر فيها في الشرع الإسلامي؟

قد أشرنا، فيما سبق، أن الشرائع الإلهية لم تأت بالبحث عن هذه الأمور التي لا مساس لها بالدين، ولا هي من أوامر الشريعة وفرائضها، ولا من سننها أو مندوباتها. نعم؛ جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية؛ مشيرة إلى التفكر والاعتبار بهذه الأسرار الكونية، وهذه الكواكب السماوية، وهذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)، وكان صلى الله عليه وسلم، إذا استيقظ من الليل، ينظر إلى السماء ويقرأ: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ) كما في صحيح البخاري عن ابن عباس.

ثم إننا مأمورون بالوقوف عند حدودنا، والتي هي قدر طاقتنا، دون تكلف استطلاع زائد، وتشوف إلى ما لم يأمرنا الشرع بالتنقيب عنه، كما قال تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، وما أبيح لنا من ذلك؛ إلا الاستدلال بما سُخر لنا من الشمس والقمر والنجوم التي تشاهدها العيان، فنستدل بها على عد الشهور والسنين، ونعتمد عليها في أوقات الصلوات، ومواقيت الحج وحلول الآجالات، ونهتدي بمواقعها في البر والبحر [عند السير] في الظلمات، كما قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) وقال: (وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البرِّ وَالبَحْرِ) وقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ).

ثم لابد من[تفصيل] بحثنا وما فيه من الحكم الشرعي:

النظر في علم النجوم، أو قل
علم الهيئة في الإسلام، وما في ذلك من التفصيل

قد قسم أهل هذا الفن، النظر في علم النجوم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: هو معرفة تركيب الأفلاك، وكمية الكواكب، وأقسام البروج وأبعادها، وعظمها وحركتها، وما يتبعها من هذا الفن. وهذا هو علم الهيئة.

الثاني: هو معرفة حل الزيجات وحل التقاويم، واستخراج التواريخ، وما شاكل ذلك القسم.

الثالث: هو معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج، وحركات الكواكب، على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر. ويسمى هذا النوع علم أحكام النجوم.

أما القسم الثاني، فهو من فروع القسم الأول. وقد تكلم علماء الإسلام على كل الأقسام، واشتغلوا بها، وألفوا فيها المؤلفات الكثيرة، وتكلم فقهاؤهم على حكم الاشتغال بها، كابن حزم، وابن القيم، والغزالي. قال هذا الأخير، في "إحيائه"، [ج1 ص27- 26]، في ذكر العلم المضرّ بصاحبه، ما لفظه:

"الثاني: أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان":

"قسم حسابي؛ وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، إذ قال عز وجل: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) وقال عز وجل: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)".

"والثاني؛ الأحكام. وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب. وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى، وعادته في خلقه. ولكن قد ذمه الشرع؛ قال صلى الله عليه وسلم: " إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا" . وقال صلى الله عليه وسلم: " أخاف على أمتي بعدي ثلاثا؛ حيف الأئمة، والإيمان بالنجوم، والتكذيب بالقدر". وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر، ثم أمسكوا. وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه":

"أحدها: أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا القي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة، لأنها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب، فيبقى القلب ملتفتا إليها، ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوًا من جهتها، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب" . ثم قال:

"وثانيها: أن أحكام النجوم تخمين محض، ليس يدرك في آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا. فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل، لا من حيث غنه علم. فلقد كان ذلك معجزة لإدريس، عليه السلام، فيما يُحكى. وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور، فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب، ولا يحصل المسبب عقبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الإطلاع على حقائقها. فان اتفق أن قدر الله تعالى، بقية الأسباب، وقعت الإصابة. وإن لم يقدر، أخطأ. ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم، مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال، فيتحرك ظنه بذلك. وربما يحمى النهار بالشمس، ويذهب الغيم، وربما يكون بخلافه. ومجرد الغيم ليس كافيا في مجيء المطر، وبقية الأسباب لا تدرى. وكذلك تخمين الملاح، أن

السفينة تسلم، اعتمادا على ما ألفه من العادة في الرياح، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه، وتارة يخطئ. ولهذه العلة؛ يمنع القول عن النجوم أيضا".

"وثالثها: أنه لا فائدة فيه. فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يعني، وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان، في غير فائدة، وذلك غاية الخسران". هـ المراد من كلام أبي حامد.

وملخصه؛ أن ما يتعلق في هذا العلم، بالحساب ومعرفة الفصول والمنازل، وحلول الأوقات، والاهتداء في ظلمات البر والبحر، ونحو ذلك؛ هو جائز شرعا. بل قد يكون في بعض الظروف واجبا، كمعرفة علم الأوقات والقبلة.

وأما ما يتعلق بعلم الأحكام، وهو الاستطلاع بها على الكائنات قبل كونها، بالاستدلال بطوالع النجوم؛ فهذا مذموم شرعا. واستدل على ذلك بالحديث والأثر. ثم علل ذلك بوجوه ثلاثة كما ترى، وإن كان يؤخذ من فحوى كلامه أنه إذا كان الاستدلال بها على طريق الاستدلال بالعادة التي أجراها الله في سنن الكائنات، وأن ذلك المستدلَّ عليه قد يكون وقد لا يكون، وأنه إن وقع ذلك، فهو بقدرة الله، ولا أثر للنجم في ذلك؛ فهذا جائز. وان اعتقد الثالث؛ فهذا مشرك كافر، كما يستدل بالسحاب على المطر، ونحو ذلك. ولكن ذلك لا يفيد ظنا ولا يقينا.

أما ابن خلدون، فانه أبطل هذا العلم، يعني علم أحكام النجوم، من أصله وأطال الحجج على إبطاله، وأخيرا قال:

فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على أهل جميع العمران، لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول. ثم قال: وليعلم من ذلك أنها، وإن كانت صحيحة في نفسها، فلا يمكن أحد من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها. بل إن نظر فيها ناظر، وظن الإحاطة بها، فهو في غاية القصور في نفس الأمر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها؛ فُقِد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس، وهم الأقل، وأقل من الأقل؛ إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته مستترا عن الناس، وتحت ربقة الجمهور، مع تشعب

الصناعة، وكثرة فروعها، واعتياصها على الفهم. فكيف يحصل منها على طائل" هـ [المقدمة ص477].

وأما قول أبي حامد، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام؛ فقد رده ابن خلدون بقوله:

"وربما ذهب ضعفاء منهم، إلي أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي، وهو رأى فائل، وقد كفونا مئونة إبطاله. ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أبعد الناس عن الصنائع، وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب؛ إلاّ أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة، ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق؟ هـ [المقدمة ص 475].

وبهذا تعلم أيضا بطلان ما قاله أصحاب "رسائل إخوان الصفا"، الملاحدة، إذ في الرسالة الثالثة منها، [ج1 ص93]، ما لفظه:

"ويحكى عن هرمس المثلث بالحكمة، وهو إدريس النبي، عليه السلام، أنه صعد إلى فلك زُحَل، ودار معه ثلاثين سنة، حتى شاهد جميع أحوال الفلك. ثم نزل إلى الأرض، فأخبر الناس بعلم النجوم. قال الله تعالى: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيا)"هـ.

ويشبه هذا، قول شارح "المقنع" :

"وأول من نظر في علم النجوم؛ سيدنا إدريس، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فكان علمه مستقيما إلى زمن نوح، فكتبه في الألواح من طين، وأوقد عليها ودفنها، كي لا يذهب الطوفان بهذا العلم. فوجدت بعده، فكان مستقيما إلى زمن عيسى، فدخل عليه اليهود ليقتلوه. فقال لهم: بماذا استدللتم عليّ. فقالوا له: بعلم النجوم. فقال: اللهم وهّمهم فيه. فاختل علم النجوم من ذلك الوقت، فلا يدركه إلا كامل العقل، ثاقب الذهن ".هـ[كراس2رقم1ط حجرية].

كما يجُر مقال ابن خلدون، ذيله على ما ذكره الفخر الرازي احتمالا، في قوله تعالى: (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) أي نظر سيدنا إبراهيم، عليه السلام، نظرة في علم النجوم، لاستطلاع حاله من مرض أو سقم، فأخذ من الطالع أنه سقيم، أي سيسقم. وقد شنَّع في الرد عليه، في "روح المعاني" ،[ج100/24]، وعدّه من هفوات الفخر، إذ قال:

"وأما ما ذكره عن إبراهيم، عليه السلام، من أنه تمسك بعلم النجوم حين قال:(إِنِّي سَقِيمٌ)؛ فَسقِيمٌ جدًا، وقد سمعت ما قيل في الآية، ولا ينبغي أن يظن بإمام الحنفاء وشيخ الأنبياء، وخليل رب الأرض والسماء، أنه كان يتعاطى علم النجوم، ويأخذ منه أحكام الحوادث. ولو فتح هذا الباب على الأنبياء، عليهم السلام، لاحتمل أن تكون أخبارهم عن المستقبلات، من أوضاع النجوم، لا من الوحي "هـ.

قلت؛ وما أحال عليه في تفسير الآية، وهي قوله تعالى:(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)، قال:

"أي فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها، وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين، في خلق السماوات والأرض، وتفكرهم في ذلك؛ إذ هو اللائق به عليه السلام. لكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث، ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي يكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه "هـ.[روح المعاني24/ 92]، ثم إن الكلام في هذا المبحث، طويل الذيل.

والخلاصة؛ هو أن أهل الهيئة في العصر الحاضر، لا يقولون بعلم الأحكام، كما لا يقول به زعماء الفلاسفة القدماء الإسلاميون، وغيرهم؛ كالفارابي، وابن سينا.

والحكم الشرعي فيه، أنه إن وقع اعتقاد الناظر فيه؛ أن الكواكب هي الفاعلة المؤثرة في حوادث الكون، فهذا كفر وخروج عن ملة الموحدين، وإليه يشير حديث الموطأ إذ قال: "أتدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب ".[شرح الموطأ198/1]. وفي حديث أبي داود: "من اقتبس علما من النجوم، اقتبس شعبة من السحر" . وفي حديث رواه ابن عبد البر، عن العباس بن عبد المطلب، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك، إن لم تضلهم النجوم ". وقال [في حديث آخر]: " أخاف على أمتي بعدي ثلاثا: حيف الأئمة، وإيمان بالنجوم، وتكذيب بالقدر"هـ.[جامع بيان العلم38/2].

وأما إن لم يعتقد الناظر فيه التأثير، وإنما جعله علامة للاطلاع على الأمور الغيبية، مع اعتقاد التخلف وعدم التأثير، كما قدمناه في كلام أبي حامد؛ فقال الجمهور إنه أيضا حرام لا يجوز تعاطيه، اعتمادا على حديث أبي داود وغيره السابق. وقيل مكروه، وقيل جائز، وقيل

فرض، وقيل كفر، أي ولو لم يعتقد التأثير، وهذا كله في علم النجوم الذي يُطَّلع به على الغيب.

أما تعاطي علم النجوم، لمعرفة أوقات العبادة والقبلة، وأوائل الشهور، وساعات الليل والنهار، ونحو ذلك، فهذا قد يكون فرضًا، كما نص عليه فقهاؤنا. بل قالوا: إن كان النظر في هذا العلم باعتبار ما يعرض لهذه الكواكب من المقارنة والمقابلة، والتثليث والتسديس، وكيفية سيرها، ومقدار حركتها، ونحو ذلك مما يبحث عنه في الأزياج، أو كان عبارة عما يعمُّ ذلك، وما يتوصل به إلى معرفة ارتفاع الكواكب وانخفاضها، ومعرفة الماضي من الليل والنهار، ومعرفة الأطوال والأعراض، ونحو ذلك مما يتضمنه علم الأسطرلاب والربع المجيب ونحوهما ؛ فهذا لا بأس به. بل قال أبو محمد ابن حزم، إنه حسن صحيح. وسيأتي نص كلامه.

ولهذا العلم، يشير أبو عمر ابن عبد البر بقوله:

"وأما التنجيم، فثمرته وفائدته عند جميع أهل الأديان، جرية الفلك ومسير الدراري، ومطالع البروج، ومعرفة ساعة الليل والنهار، وقوس الليل من قوس النهار، في كل بلد، وفي كل يوم، وبُعد كل بلد من خط الاستواء ومن المجر الشمالي، والأفق الشرقي والغربي، ومولد الهلال وظهوره، واطلاع الكوكب للأنواء وغيرها، ومشيها واستقامتها، وأخذها في الطول والعرض، وكسوف الشمس والقمر، ووقته ومقداره في كل بلد، ومعنى سني الشمس والقمر، وسني الكواكب".هـ [جامع بيان العلم38/2].

أما تلميذه؛ أبو محمد ابن حزم، فانه فصّل في الموضوع تفصيلا حسنا، فقال:

"أما معرفة قطعها، أي النجوم في أفلاكها، وآناء ذلك، ومطالعها وأبعادها وارتفاعاتها، واختلاف مراكز أفلاكها؛ فعلم حسن صحيح رفيع، يشرف به الناظر فيه على عظيم قدرة الله عز وجل، وعلى يقين تأثره وصنعته، واختراعه تعالى للعالم بما فيه وفيه الذي يضطر كل ذلك إلى الإقرار بالخالق، ولا يستغنى عن ذلك في معرفة القبلة وأوقات الصلاة، وينتج من هذا معرفة رؤية الأهلة لغرض الصوم والفطر، ومعرفة الكسوفين. برهان ذلك قول الله تعالى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) وقال تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وقال

تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) وقال تعالى:(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)" هـ. وهذا نفس ما قلناه. ثم قال:

"وأما القضاء بها، فالقطع به خطأ. لما نذكره إن شاء الله، وأهل القضاء ينقسمون قسمين؛ أحدهما القائلون بأنها والفلك عاقلة مميزة فاعلة مدبرة دون الله تعالى، أو معه، وأنها لم تزل. فهذه الطائفة كفار مشركون، حلال دماؤهم وأموالهم بإجماع الأمة. وهؤلاء عنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: "إن الله تعالى، قال: أصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكواكب ". وفسَّره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه القائل: مطرنا بنوء كذا " الخ. ثم قال:

"ولو أمكن تحقيق تلك التجارب في كل ما ذكرنا، لصدقناها وما يبدو منها، ولم يكن ذلك علم غيب، لأن كل ما قام عليه دليل من خط أوكتف، أو زجر أو تطير، فليس غيبا لو صح وجه كل ذلك. وإنما الغيب وعلمه هو أن يخبر المرء عن الكائنات دون صناعة أصلا من شيء مما ذكرنا، ولا من غيره، فيصيب الجزئي والكلي. وهذا لا يكون إلا لنبي، وهو معجزة حينئذ. وأما الكهانة، فقد بطلت بمجيء النبي، صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من أعلامه وآياته ".[الفِصَل ج5 ص 24-25].

وكل ما قرره، رحمه الله، في هذه المقالة، قد سبق تقريره من كلام الغزالي وغيره.والزيادة في كلامه إنما هي في بيان أن ما كان الاطلاع عليه من الغيب بسبب من الأسباب، ودليل من الأدلة، وعلامة من العلامات؛ فليس من علم الغيب في شيء، وأن علم القضاء بالنجوم، إن تحققت أدلته بالتجارب، مع خلوه من اعتقاد التأثير؛ فهو مقبول. وقد علمت مما سبق أن الجمهور على خلاف هذا، فارجع إليه.

وبوجه خاص، فان هذا البحث قد أراحنا منه أهل العصر من علماء الفلك، إذ لم يبق إليه عندهم التفات، ولا إلى فصوله وحصوله أدنى اعتبار، وألقيت كتبه وراء الظهر .

أما علم الفلك أو علم الهيأة، حسبما سبق تفسيره؛ فهذا هو محط بحثنا:

هل اشتغل الصدر الأول من أهل الإسلام
بهذا العلم؟ وتفصيل القول في ذلك

لم يشتغل الصدر الأول من السلف الصالح، بالخوض في هذا العلم، ولم يحوموا حوله ولا وردوا مورده المشوب بأكدار الشكوك والأوهام، ولم ينقل عنهم إلا التحذير منه، وذم متعاطيه، كما سبق شيء من ذلك.

وما يُنسب للشافعي، من أنه لما سأله الأمير هارون الرشيد، عن علمه بالنجوم، أجابه بقوله: "أعرف الفلك الدائر، والنجم السائر، والقطب الثابت، والماني والناري، وما كانت العرب تسميه الأنواء، ومنازل النيرين، والاستقامة والرجوع، والنحوس والسعود، وهيآتها وطبائعها، وما أستدل به في بري وبحري، وأستدل به في أوقات صلاتي. وأعرف ما مضى من الأوقات في إمساني وإصباحي، وظعني في أسفاري".؛ فهو كذب على هذا الإمام واختلاق، لو كان حيا ويسمع نسبة هذا إليه، لأمر بتعزير قائله.

وإنما الذي يصح أن ينسب للشافعي ـ وهو الإمام الوحيد في المشاركة في سائر الفنون العقلية والنقلية ـ ما كانت تعرفه العرب في علم النجوم، وأقره الإسلام، من علم المنازل والاهتداء بالنجوم في الطرقات، وأوقات الصلوات، وغير ذلك مما قدمنا عن أئمة الإسلام. أما حسنه أو طلبه على هذا المنهج،[فهو] الذي أشار إليه الإمام الشاطبي في "الموافقات"، إذ قال:

"وقد كان للعرب علوم صححت الشريعة منها ما هو صحيح، وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبينت النافع والضار. فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء واختلاف الأزمان، وتعرف منازل سير النيرين، وهو معنى مقرر في القرآن في مواضع كثيرة، كقوله: (وَهُوَ الذِي جَعَلَ لكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظُلُمَاتِ البرِّ وَالبَحْرِ) وقوله: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) وقوله: (وَالقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ) وقوله: (هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالِحسَابَ) إلى غير ذلك من الآيات".

"ومن علومها علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب وهبوب الرياح المثيرة لها. فبين الشارع حقها من باطلها، فقال تعالى: (هُوَ الذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الآية، وقال (وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً) وقال: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)، خرّج الترمذي، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) قال: شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا "، وفي الحديث:" أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي"، الحديث في الأنواء. وفي الموطأ مما انفرد به: " إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت، فتلك عين غديقة ". وقال عمر بن الخطاب، للعباس وهو على المنبر: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال له العباس: بقي كذا وكذا "هـ.[ج47/2 باختصار].

أما البحث فيما زاد على هذا، فلم يكن من شأن الصحابة ولا التابعين، ولا من بعدهم من صالح الأمة، سلفها وخلفها، الهادين المهتدين، المعتصمين بحبل الدين المتين، والآخذين بما أرشدهم إليه سيد الأولين والآخرين، من أن الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع، إذ خير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، لأن سر البعثة، إنما هو إرشاد الخلق إلى ما يقربهم إلى الله، ويبعدهم من غواية الشياطين.

وليس في معرفة دوران الفلك وهيئات النجوم، وتدقيق النظر في أقدارها وأبعادها، والتخرص على ما لا سبيل لنا إلى تحقيقه، ولا مهّد لنا الشرع السلوك في طريقه قربة إلى الله، ولا فائدة محققة راجعة للدين أو الدنيا، إلاّ فيما ظهر منها من الاعتبار، وإسناد العلم فيما غاب عنا إلى الواحد القهار، وإلاّ ما نستفيده من أوقات العبادة ونحوها، على حد ما سبق. ولو كان ذلك من واجبات الدين وقواعده، أو من مؤكدات عقائده، لجاء به القرآن، ولبينه الرسول لنا أوضح بيان. بل لقد علمت أن الرسول جاء بما يضادّ ذلك، وينهى عن سلوك تلك المسالك. وانظر جواب القرآن عمن سأل عن سبب بدوّ الهلال رقيقا ثم زيد في الكبر، كيف صرف الناس عن السؤال عن مثل هذا، وبين لهم أن الواجب عليهم إنما هو السؤال عما يتعلق بأمر دينهم، حيث قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَّ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ).

[اعتناء الدولة العباسية بعلوم الفلسفة
ونبوغ جماعة من أهل الإسلام في ذلك تبعا لملوكهم]

أما فيما بعد الصدر الأول، فأول دولة إسلامية اشتغل ملوكها بهذا العلم، هي دولة بني العباس، وقد صارت بذلك غرضا لسهام العلماء، ومرمى لانتقاد أئمة الفقهاء. وكان أولَ من فتح هذا الباب من ملوكهم؛ أبو جعفر المنصور، فاعتنى بهذه العلوم التي كانت تسمى علوم الفلسفة، فتقدم فيها وخاصة صناعة النجوم.

ثم لما جاء خليفتهم السابع، وهو المأمون، صرف اعتناءه لهذه العلوم، وجلب إليه من بلاد الروم كتبها، من كتب أفلاطون وأرسطاطالس، وأبقراط وجالينوس وغيرهم، واستحضر لذلك مهرة التراجمة، وكلفهم بترجمتها إلى العربية. ثم رغّب الناس في دراستها وتعلمها. فتعلق بذلك أفراد لم يكن لهم في المنهج الديني قدم راسخ ولا اعتبار عند من يعتصم باتباع السلف الصالح، إذ الذي كان يعتمده أئمة الإسلام، وعمد الدين القويم من الجهابذة الأعلام؛ هو الاشتغال بما يرجع لإقامة الشريعة من العلوم، والإعراض عما سواها مما لا فائدة له في الخصوص أو العموم. على أن المأمون نفسه لما دخل بغداد، أعرض عن ذلك كله، وقرّب العلماء، وبالخصوص علماء المعتزلة، لأنه كان يقول بقولهم. واشتغل الناس بعلوم الجدل، وصار كل يؤلف في نصرة مذهبه.

ولهذا قسموا العلوم إلى أقسام؛ محمود، ومذموم، ولا محمود ولا مذموم، كما سبق في كلام الغزالي. وجعل الإمام ابن جزي، هذا العلم مما يضر ولا ينفع، فقال في تقسيمه:

"(الثاني): يضر ولا ينفع، كعلوم الفلسفة، وعلوم النجوم، أعني أحكامها، إلاّ التعديل الذي تخرج به الأوقات والقبلة، فذلك لا بأس به. وأما أحكام النجوم، فمن اعتقد تأثير النجوم فهو كافر، ومن زعم الاطلاع على المغيبات بها، فهو مبتدع. وكذلك كل من يروم الاطلاع على الغيب، على أي وجه كان "هـ.[القوانين ص404].

ولكن رغما عما كان عليه أئمة السلف من مجافاة هذه العلوم، والتحذير منها، وتكفير متعاطيها أو تفسيقه؛ فقد نبغ فيه من أهل الإسلام جماعة، تبعا لملوكهم الذين اعتنوا بذلك، وصرفوا هممهم إلى الاطلاع على تلك العلوم القديمة، كما فعل المأمون، فإنه أعطى جانبا

عظيما في أيام خلافته لهذه العلوم، وخصوصا علم الهيئة؛ فإنه جمع لذلك علماء العصر، وأوقفهم على كتاب المجسطي لبطليموس، وأمرهم بتدقيق النظر فيه، وتحقيق مقاصده، وأن يصنعوا الأدوات والآلات، كما فعل بطليموس ومن قبله، لرصد الكواكب وقياسها، وتعرف أحوالها، ففعلوا ذلك. وتولى الرصد لذلك بمدينة الشماسية من بلاد دمشق، من علماء العصر؛ يحيى بن أبي منصور، كبير المنجمين، وخالد المروزي، والعباس الجوهري، وغيرهم. وألف كل واحد منهم زيجا منسوبا إليه.

ولم يزل الخواص من أهل هذا الفن، المتصلون بالملوك، يصرفون أوقاتهم في البحث والتأليف في هذه العلوم، كالكندي فيلسوف العرب، والسرخسي، ومحمد بن زكرياء الرازي، طبيب الإسلام، وأبي نصر، محمد بن نصر الفارابي، الفيلسوف الشهير. وهؤلاء هم أقطاب هذه العلوم في صدر دولة الإسلام. ثم جاء بعدهم من هم أنزل في الرتبة عنهم؛ كالبغدادي، وبني قوشر، والحراني، والتبريزي، وابن الصباخ، وأبي معشر البلخي، والحسين بن الخطيب، وأبي جعفر، محمد الهمداني، وابن الهيتم المصري، وكجابر بن حيان الصوفي، وغيرهم من المشارقة.

[الاهتمام بهذه العلوم بالأندلس والمغرب]

وأما المغاربة، ففي الأندلس، لما تمكنت دولة بني أمية الجديدة، واستتب أمرها في أثناء المائة الرابعة، وجلس الحكَم المستنصر بالله على كرسي الخلافة، صرف عنايته لهذه العلوم، وحشر إليه علماءها من سائر الأقطار، وجمع في خزانته من كتبها جملة كبيرة من الأسفار، حتى ضاهى بذلك المأمون، من بني العباس، ورغب في هذه العلوم كثير من الناس، رغم مجافاة أهل الأندلس لهذه العلوم، ومحاربة علماء الدين لأهلها، ورمي من اشتغل بها بالزندقة والإلحاد.

ولما مات الحَكم المذكور، وتولى الخلافة ابنه هشام، وهو غلام لم يبلغ الحلم، وتغلب على تدبير الملك الحاجب ابن أبي عامر؛ عمد إلى خزانة الحَكم المذكور، وأبرز ما فيها من الكتب، بمحضر علماء الدين، وأمرهم بإخراج ما فيها من كتب علوم الأوائل؛ من الفلسفة

والمنطق والنجوم ونحوها، وإحراقها، أو دفنها في التراب، ولم يترك في الخزانة إلاّ العلوم الدينية الإسلامية، وإلاّ كتب الطب والحساب. وفعل ابن أبي عامر ذلك تقرباً إلى العوام وأهل الدّين.

ورغم هذا كله، فقد كان بالقطر الأندلسي، من علماء هذا الفن، شرذمة موزعة على الأعصار، كأبي عبيدة بن مسلم، ويحيى بن يحيى المعروف بابن التيمية، ومحمد بن إسماعيل الحكيم، وأبي أيوب، عبد الغافر بن محمد السري، وأبي بكر بن عيسى، وأبي عثمان بن ميمون، ومسلمة بن أحمد، المعروف بالمريبط، وكان هذا بعد الحكم، وكان أعلم من قبله بعلم الهيئة والأفلاك، وأرصاد الكواكب، وألف في ذلك كتبا كثيرة، وخلف تلاميذ بالأندلس كانوا أعلم الناس بهذه الفنون، كابن السمح، وابن الصفار، والكرمال، وابن خلدون، وابن برغوث، وكان من مشاهير تلاميذ ابن الصفار. وابن برغوث هذا، كان له اختصاص بعلم الأفلاك وهيئاتها، وحركات الكواكب وأرصادها .

وهكذا استمر هذا النزر من العلماء، يزاولون هذه العلوم، ولكن في تحفظ واحتياط، وخفاء عن العامة، إلى أن جاء الحفيد ابن رشد، وشيخه ابن طفيل، صاحب رسالة حي بن يقظان. وابن طفيل المذكور، هو الذي اتخذه المنصور الموحدي، ملك المغرب، عمدة في قصره، وداعية إلى تأييد فكره، فكان يستدعي إلى حضرته كل عالم نبيل، وأستاذ بأنواع المعارف كفيل، لأن المنصور كانت له همة عالية في الاطلاع على العلوم الفلسفية، والآراء النظرية، وجمع مؤلفاتها وأعيان روادها وحملتها، حتى ضاهى بذلك المأمون العباسي بالمشرق، والحكم المستنصر الأموي بالأندلس.

وابن طفيل هذا، هو الذي أشار على المنصور، باستدعاء ابن رشد إلى حضرته، وجعله في دائرة علماء مملكته، والاستفادة من علوم فلسفته، مع ما كان من ابن رشد من التستر في تعاطي هذه العلوم، وعدم الاستظهار بها لدى العموم، خوفا على نفسه وسقوط منزلته، بدليل أنه لما حضر بين يدي المنصور، وسأله المنصور سؤالا يتعلق بعلوم الفلسفة التي كان له بها شغف وولوع، إذ قال له: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة؟ قال ابن رشد: "فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل، وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ".

قلت؛ وارتياع ابن رشد في هذا المحفل، من الجواب في مثل هذه المسألة الراجعة لعلم الفلسفة وعلم الهيأة، هو ارتياع في محله، إذ بأدنى شبهة تظهر من صاحب هذا العلم، كان عامة أهل الأندلس يتعلقون بصاحبها، ويسوقونه سوقا عنيفا إلي إذا يته في ذاته وعرضه. فقد قال في " نفح الطيب"، عن ابن سعيد، مؤرخ الأندلس، إن هذه العلوم كان لا يتظاهر بها لدى أهل الأندلس العامة. [قال]:

"فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة، ويشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة إسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه. فان زلّ في شبهة، رجموه بالحجارة أوحرقوه، قبل أن يصل أمره للسلطان. أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة. وكثيرا ما يأمر ملوكها بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت. وبذلك تقرب المنصور ابن أبي عامر لقلوبهم ".هـ [ج202/1].

ومع هذا التحفظ وهذا التستر، لم ينجُ ابن رشد ـ وهو الإمام المرجوع إليه في الفتوى، والعالم المتفنن في كل الفنون ـ من رميه بسهم التضليل، ووسمه بسمة الزندقة والتعطيل، والوشاية به لدى السلطان، حتى حبس وسجن. بل بالغ تقي الدين ابن تيمية، أنه من الباطنية. والباطنية هم ملاحدة كما هو معلوم. ولكن لا يخفى ما في ذلك من المبالغة وإخراج هذا العالم عن الدين، والله أعلم.

وإلى ذلك أشار لسان الدين ابن الخطيب، في وصيته لأولاده، إذ قال:

"وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلاّ تشكيكا، ورأيا ركيكا، ولا يثمر في العاجلة إلاّ اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار. وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفوق من قطع العمر في الجدال. هذا ابن رشد، قاضي المصر ومفتيه، وملتمس الرشد ومواليه؛ عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة ". إلخ [نفح الطيب423/4].

ولم يزل هذا شأن علماء الإسلام، وحملة شريعة سيد الأنام، يوصون بمجافاة هذه العلوم، وجعل الاشتغال بها من الأمر المذموم، كما قال أبو حيان أيضا في وصيته الثمينة: "وأن يترك الخوض في علوم الأوائل، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة"هـ.

فتلخص من هذا المبحث؛ أن الصدر الأول من أئمة أهل الإسلام، لم يشتغلوا بهذا العلم. ومن كان له إلمام أو معرفة به منهم، فإنما كان ذلك فيما يتعلق بأوقات العبادة، أو ما

يضاهيها من المعاملات، أو ما يستدل به على السير في الظلمات، أو ما يظهر في الجو من التغيرات، كما بيناه في شأن الإمام الشافعي، وما قاله هو في ذلك عن نفسه. وهذا القدر لا بأس به، بل أدرجه المتأخرون في العلوم الشرعية، وسموه علم التوقيت، وألفوا فيه، وصار من الأمور الواجبة في الجملة.

أما التغلغل في ذلك، واستغراق الوقت في الاستطلاع على ما يجري في الأفلاك، وقياس أبعاد النجوم ومقاديرها، واقتحام المشاق في الإشراف عليها والنظر إليها، وتتميم ذلك بالتقديرات المستندة إلى التخيلات، والتكاليف لإنشاء الآلات والمرايا المكبرات؛ هو أمر بعيد عن الشريعة الأمية السمحاء، والحنفية الواضحة البيضاء. وهو مقتضى النصوص الواردة عن الشرع، كما سبق الأثر، عن سيدنا عمر:

" تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم انتهوا ". وفي "جامع" السيوطي[1-110] ما يفيد أنه حديث. ونحو هذا ورد عن سيدنا علي إذ قال:

"أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم، إلاّ ما تهتدون به في برّ أو بحر، فإنها تدعو إلى النّجامة. والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار" هـ.

فهذا الحديث أو الأثر، يدل على عموم النهي عن النظر في النجوم، سواء كان النظر فيها بحسب التسيير، أو بحسب التأثير، بدليل الاستثناء الذي هو دليل العموم. قال ابن رجب:

"والمأذون في تعلمه، علم التسيير، لا علم التأثير، فإنه باطل يحرم قليله وكثيره. وفيه ورد الخبر؛ من اقتبس شعبة من النجوم، الخ. وأما علم التسيير، فتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداء، ومعرفة القبلة والطرق، فجائز عند الجمهور بهذا الخبر". قال ابن رجب: "وما زاد عليه، لا حاجة إليه، لشغله عما هو أهم منه " هـ.

وهذا المعنى الذي أشار إليه ابن رجب في نصه، قد أشرنا إليه فيما سبق، وإنما جئنا بنصه لما فيه من التنبيه على عدم الفائدة في التعمق في علم الهيئة الذي أبيح منه قسم التوقيت. ومما يؤيد هذا المعنى، أن التعمق والتكلف في ذلك فيه إضاعة للوقت، وعمارته فيما لا يجدي، بل في الزيادة على المطلوب ما يردي ولا يهدي، فان احتج أصحاب هذا العلم بأن علمهم هذا يؤدي إلى تحقيق ظهور الهلال، أو طلوع الفجر، أو غروب الشمس، أو نحو ذلك، فتحقق به أوقات الصيام والفطر والصلوات المفروضة، فالجواب عن هذا الاحتجاج أننا

نقول إن هذه الأمة أمية، أي لا تكلف في عبادتها بهذه التدقيقات. بل شريعتها واضحة سمحاء، إذ تراعي في الخطاب بتكليفها سواد الناس وعامتهم، فتخاطبهم على قدر ما يفهمون، ويشترك في إدراكه الجمهور الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قال الشيخ أبو إسحاق الشاطبي:

"وعلى هذا، فالتعمق في البحث، وتطلب ما لا يشترك الجمهور في فهمه، خروج عن مقتضى وضع الشريعة الأمية. ثم قال: فمن مراعاة الأمية فيها، أن وقع تكليفهم بالجلائل في الأعمال، والتفريعات في الأمور، بحيث يدركها الجمهور، كما عرف أوقات الصلوات بالأمور المشاهدة لهم، كتعريفها بالظلال، وطلوع الفجر، والشمس وغروبها، وغروب الشفق، وكذا في الصيام في قوله تعالى (حَتَىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيطُ الأبْيضُ مِنَ الْخَيطِ الأسْوَدِ)، ولما كان فيهم من حمل العبارة على حقيقتها؛ نزل(مِنَ الْفَجْرِ). وفي الحديث:" إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم". وقال:" نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب. الشهر هكذا وهكذا". وقال: "لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم، فأكملوا العدة ثلاثين ". ولم يطالبنا بحساب مسير الشمس مع القمر في المنازل، لأن ذلك لم يكن من معهود العرب ولا من علومها، ولدقة الأمر فيه، وصعوبة الطريق إليه ". إلىأن قال: " فلا يصح الخروج عما حد في الشريعة، ولا تطلب ما وراء هذه الغاية، فإنها مظنة الضلال، ومزلة الأقدام "هـ [الموافقات59/2].

ثم بعد هذه النقول، وبسط ما اندمج فيها من المباحث والفصول، نزيد هنا بيانا وتلخيصا في الموضوع، فنقول؛ أولا إن خلاصة كلامنا يرجع إلى مقصدين:

المقصد الأول: النظر في.الكواكب والنجوم من حيث سيرها وحركاتها وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وما يتبعه من هذا الفن، كما سبق، وسيأتي زيادة بيانه في كلام ابن خلدون.

المقصد الثاني: الاستدلال بها على حدوث الكائنات قبل كونها.

فالأول كما سبق يسمى؛ علم الهيأة أو هيأة الأفلاك. والثاني يسمى؛ علم أحكام النجوم .

أما علم الهيئة؛ فإنه، وإن لم يكن للسلف الصالح اشتغال به، ولا التفات لهم إليه، فقد أعطاه المتأخرون من أهل الإسلام جانبا مهما من الاعتناء به. ولكن الجمهور على جواز

الاشتغال بما يرجع لأمور العبادة، كأوقات الصلوات والقبلة ونحو ذلك، وما يرجع إلى الاهتداء ونحوه، كما سلف. وأكثر هؤلاء يعتبرون أن هذا القدر جائز، أو يقولون لا بأس به. وصرح الإمام اليوسي، بوجوبه على الكفاية.

أما ما زاد على ذلك؛ فمنهم من منع الخوض فيه، وقوفا مع الحديث السابق، كما صرح به ابن رجب، فيما سبق عنه. ومنهم من استحسن النظر في ذلك، كالإمام ابن حزم، إذ سبق عنه أنه قال:

"إنه علم صحيح يشرف به الناظر فيه على عظيم قدرة الله، عز وجل ".إلخ [الفِصَل ج5 ص24].

وهذا المنحى، هو الذي نحى إليه أبو الوليد ابن رشد الحفيد، في أول كتابه "فصل المقال"، بل بالغ في ذلك، وصرح بالوجوب، إذ قال:

"إن كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها. وإنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم، كانت المعرفة بالصانع أتم. وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك؛ فبيِّن أن ما يدل عليه هذا الإسم، إما واجب بالشرع، وإما مندوب إليه. فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به؛ فذلك بيّن في غير ما آية من كتاب الله، تبارك وتعالى، مثل قوله: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) وهذا نصٌّ على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معا، ومثل قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيءٍ) وهذا نصٌّ بالحث على النظر في جميع الموجودات. واعلم أن ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه؛ إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) الآية، وقال تعالى: (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) وقال: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة ".

ثم جاء بمقدمة يبرهن فيها على جواز الخوض في علوم الأوائل من الفلاسفة، الذي نهى عنه أكابر العلماء، إلى أن قال:

" فبيَّن أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله، بما قاله من تقدمنا في ذلك. وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا، أو غير مشارك في الملة ". ثم قال:

"وأعني بغير المشارك، من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام. وإذا كان الأمر هكذا، وكان كل ما يُحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية، قد فحص عنه القدماء أتمّ فحص، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم، فننظر فيما قالوه من ذلك. فإن كان كله صوابا قبلناه منهم. وإن كان فيه ما ليس بصواب، نبهنا عليه. فإذا فرغنا من هذا الجنس من النظر، وحصلت عندنا الآلات التي بها نقدر على الاعتبار في الموجودات، ودلالة الصنعة فيها، فإن من لا يعرف الصنعة، لا يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع، لا يعرف الصانع، فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية؛ وبيَّن أيضا أن هذا الغرض إنما يتم لنا في الموجودات، بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم، على مثال ما عرض في علوم التعاليم. فإنه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة، وكذلك صناعة علم الهيئة، ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الأجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض؛ لما أمكنه ذلك، مثل أن يعرف قدر الشمس من الأرض، وغير ذلك من مقادير الكواكب، ولو كان أذكى الناس طبعا، إلاّ بوحي أوشيء يشبه الوحي. بل لو قيل له إن الشمس أعظم من الأرض بنحو مائة وخمسين ضعفا أوستين، لعد هذا القول جنونا من قائله. وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيأة، فياما لا يشك فيه من هو من أصحاب ذلك العلم "هـ.[فلسفة ابن رشد ـ فصل المقال ـ ص4 -5].

وإلى هذا أيضا، ذهب الإمام الرازي، فإنه ذكر في تفسيره شيئا كثيرا من مباحث هذا العلم وقواعده، وأطنب في مواضع منه بجلب مسائله، والنقل عن أرباب الفن وذويه، وإيراد الإشكالات والأبحاث، مما يعلم ذلك من مراجعة الكتاب. وأشار في بعض الآيات إلى أن هذا العلم مما يتأكد أو يستحسن؛ لفهم آيات من كتاب الله تعالى. وإن كان ذلك متعقَّباً عليه، إذ قال في التمهيد لتفسير قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) الخ. ما لفظه:

"رُوي أن عمر ابن الخيام، كان يقرأ كتاب المجسطي، على عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يوما: ما الذي تقرؤنه؟ فقال: أفسر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنظُرُوا

إلى السَّمَاءِ فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)، فأنا أفسر كيفية بنيانها ". قال الفخر: "ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى، كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته "هـ.[تفسير الفخر ج2 ص56].

قلت؛ والمجسطي، هو كتاب لبطليموس، أحد الفلاسفة، ألفه في هيأة الفلك، كما تقدم ذكره مراراً في هذا التقييد.

واشتغال بعض الأفراد من أهل الملة [بعلم الهيئة]، بعد السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن قفا نحوهم، ونهج نهجهم، واقتدى بهديهم؛ دعا الحال إلى ذكر هذا العلم في جملة العلوم الإسلامية، نظرا لما فيه من بعض فوائد تعود إلى الدِّين، حسبما سلف، وتصدى بعض من أهل الإسلام للجمع والتأليف فيه.

ولكن منهم من أطلق العنان في ذلك، واتبع طريق الفلاسفة، ولم يراع أصول الديانة، كالفارابي، وابن سينا، وغيرهم من علماء الشرق والغرب، حتى وقع القول فيهم، وأخرجوا - بسبب اتباعهم لتعاليم الفلاسفة - من الملة.

ومنهم من راعى الأصول، وجمع بين المعقول والمنقول. وربما كان من هذا القسم؛ أبو الوليد بن رشد الحفيد، وشيخه ابن طفيل، حسبما يُعلم من مراجعة كلامه.

ولهذا ذكر هذا العلم ابن خلدون، في العلوم العقلية فقال:

"علم الهيأة هو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة، والمتحركة والمتحيرة، ويستدل بكيفية تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك، لزمت عنها هذه الحركة المحسوسة بطرق هندسية، كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس، بوجود حركة الإقبال والإدبار". ثم قال:

"وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيرا، ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين، وكانت تسمى عندهم ذات الحلق، وصناعة عملها، والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك، منقول بأيدي الناس".

"وأما في الإسلام، فلم تقع به عناية إلا في القليل. وكان في أيام المأمون شيء منه؛ وضع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق، وشرع في ذلك فلم يتم. ولما مات، ذهب رسمه، وأغفل واعتُمد من بعده على الأرصاد القديمة، وليست بمغنية لاختلاف الحركات

باتصال الأحقاب، وأن مطابقة حركة الآلة في الرصد، بحركة الأفلاك والكواكب، إنما هو بالتقريب، ولا يعطي التحقيق. فإذا طال الزمان، ظهر تفاوت ذلك بالتقريب. وهذه الهيأة صناعة شريفة، وليست على ما يُفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات، وترتيب الأفلاك، والكواكب الحقيقية. بل إنما تعطي أن هذه الصورة والهيآت للأفلاك لزمت عن هذه الحركات، وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازمين لمختلفين. وإن قلنا إن الحركات لازمة، فهو استدلال على وجود الملزوم، ولا يعطي الحقيقة بوجه، على أنه علم جليل، وهو أحد أركان التعاليم. ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطي، منسوب لبطليموس، وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس، على ما حققه شراح الكتاب. وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام، كما فعله ابن سينا، وأدرجه في تعاليم الشفا، ولخصه ابن رشد أيضا، من حكماء الأندلس، وابن السمح، وابن الصلت، في كتاب الاقتصار. ولابن الفرغاني هيأة ملخصة؛ قربها وحذف براهينها الهندسية "هـ[المقدمة 426-427].

وهذا ما يتعلق بعلم الهيئة، زيادة على ما تقدم، وهو الذي يسميه بعضهم بعلم التسيير.

وأما علم أحكام النجوم، وهي النجامة والاستدلال بطوالعها على الحوادث، فقد قدمنا حكمه أيضا، وهو أن النظر فيه إما كفر، أو حرام عند الجمهور. ولا بأس بزيادة تفصيل، وبيان في هذا التحصيل، ونقل كلام المتقدمين والمتأخرين في ذلك، وإن كان لا يخلو عن إطناب وتطويل، فنقول :

إن علماء الفلك في هذا العصر الحاضر، الذين يزعمون أنهم تقدموا في ذلك تقدما لم يُعهد في الأزمان الغابرة، وكادوا أن يدعوا أنهم ملكوا الفضاء، واستطلعوا بآلاتهم الكبيرة على ما يجري من الكواكب في السماء، وأنهم قاسوها بالذراع والباع، وتحققوا ما في أجرامها من الدقة والاتساع؛ لا يقولون بعلم الأحكام، ولا لهم به أدنى إلمام، أو أقل اهتمام، وإن أقلامهم جفت في الموضوع، وصحافتهم طويت فلا ينظرون من هذه الحيثية في ذلك السقف المرفوع.

وأما علماء الإسلام، فقد علمت جملة مما قالوه في ذلك. فمنهم من أطلق في التحريم، وحذر على العموم من تعاطي هذا العلم الذميم. ومنهم من نهج نهج التفصيل، ولم يعم القول في التضليل. وقد سمعت مما سبق أن جمهور الأمة على تحريمه، والتنفير من رعي حريمه.

وهذا الإمام ابن خلدون، على اغتباطه بالعلوم، ومشاركته في المعقول فيها والمنقول، يقول بعد كلام في إبطاله، وتوهين نتيجة أعماله:

"فقد بَان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضارّ في العمران الإنساني، بما تبعث في عقائد العوام من الفساد، إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقًا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها. وليس كذلك؛ فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها". ثم قال:

"فينبغي أن تحذر هذه الصناعة على جميع أهل العمران، لما ينشأ عنها من المضارّ في الدين والدول"هـ [المقدمة477].

الأفلاك عند قدماء الفلاسفة، وهل هي السماوات؟ وما قاله أهل الإسلام وأهل العصر في هذه السيارات

قد سلف لك بيان ما كان عليه سلف هذه الأمة من التباعد عن هذه المباحث، وعدم الالتفات اليها بحال، إذ كان حالهم ومقالهم لا يعدو الكتاب والسنة، ولا يجاوز ما رسم لهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفصّله لهم وبينه. وقد علمتَ ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وعن هُداة أصحابه من التحذير في النظر في ذلك، سوى ما أسلفناه، وبكلام العلماء الراسخين شرحناه، وأظن أن فيه الكفاية، إذ لا أحسب أنك تجده مجموعاً في كتاب على النهج الذي فصلناه. ثم نتكلم الآن على هذه الأفلاك فنقول:

الفلك في لغة العرب مدار النجوم، وهو موافق لما ورد في الآثار. فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله تعالى: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) دوران يسبحون يجرون. وعنه أيضا في:(فَلَكٍ) قال: فلكة كفلكة المغزل يسبحون، قال: يدورون في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل. وعنه أيضا في قوله (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) قال: هو فلك السماء . وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حسان بن عطية، قال: الشمس والقمر والنجوم مسخرة في فلك بين السماء والأرض. وعن ابن أبي زيد في قوله

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ): قال: الفلك الذي بين السماء والأرض، من مجاري النجوم والشمس والقمر، وفي قوله(يَسْبَحُونَ) قال يجرون هـ .

فالفلك هو مدار النجوم لغة وشرعا، كما سمعت. ولكن لا يفيد كونه في دائرة مخصوصة. أما تحديد هذا الفلك ووصفه بأنه ثخين أو شفاف، أو أن لكل سيار من السيارات فلكا، وأن عدد هذه الأفلاك تسعة، وأن بعضها فوق بعض، وأن أقربها إلينا فلك القمر؛ فهذا أمر لم يخض فيه السلف الصالح، ولم يصحَّ عنهم في تفصيله من الآثار شيء يُعتَمد عليه.

أما حصر الأفلاك في السبعة، ووصفها وما فيها من الكواكب، فإن هذا كله مأخوذ عن قدماء فلاسفة اليونان، ومن حذا حذوهم، على أن الفلاسفة أنفسهم لم يتفقوا على ذلك، بل ترددوا في حصر الأفلاك في السبعة. بل انتقده عليهم من فلاسفة الإسلام ابن سينا، وقرّر ذلك الفخر الرازي في تفسيره بأوضح عبارة، وأتم تقرير؛ مفاده أن الكون غير محصور فيما حصره فيه فلاسفة اليونان ومن تبعهم. وهذا النظر هو الذي يلاقي ما عليه أهل العلم الحديث اليوم، كما سياتي. ثم إن من مارس هذا العلم من أهل الإسلام بعد الصدر الأول، جاروا في ذلك هؤلاء الفلاسفة في أن الأفلاك تسعة: سبعة للسيارة، وهي: القمر، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشتري، ثم زحل. وهذه هي أفلاك السبعة الدراري، ثم الفلك الثامن، هو فلك النجوم الثوابت. ثم التاسع، وهو فلك الأفلاك، وهو الأطلس الذي يدير الجميع، وكانت الأرض في نظرهم هي مركز الكون، وأن الكون ينحصر في هذه الأفلاك التسعة.

ولما استقرت هذه النظرية في العالم إذ ذاك، وتلقاها من تلقاها من أهل الإسلام، إما على سبيل الاعتقاد، وإما على سبيل الانتقاد، وهو حال علماء الدين، لأنه يباح للعالم الماهر الاطلاع على كتب الباطل، سواء كان أصحابها من المشارك في الدين أو المخالف، حتى إنهم أدخلوا هذه المباحث في علم أصول الدين، لكي ينقضوا ما غزل الفلاسفة من تلك الأساطير، ويقروا ما لا يناقض عقائد الدين من التقارير، كما فعل الإمام الرازي في محصله، والعضد في مواقفه، والآمدي في أبكار أفكاره، فانهم نقلوا مقالات هؤلاء الفلاسفة في هذا الموضوع، مع التبري بنسبة ذلك إلى قائله.

ولما كانت هذه النظرية في تلك العصور هي السائدة بين أهل الهيئة، حتى وقع الوثوق بها، وعم الاطمئنان إليها في جل الطبقات ؛ رءا بعض من يريد التوفيق بين تلك الفلسفة وما ورد في نصوص الشريعة، أن يجعل السماوات السبع، هي الأفلاك السبعة، وجعل الثامن هو الكرسي، والتاسع هو العرش. وعلى هذا جرى العضد في "المواقف" إذ قال ممزوجا بشرحه:

"إن الحكماء زعموا أن الأفلاك الكلية الثابتة بالرصد تسعة، تشتمل هذه التسعة على أربعة وعشرين فلكا، أي هي مع ما في ضمنها من الأفلاك الجزئية ". ثم قال:

"أما التسعة الكلية، فهي فلك الأفلاك. سمي به لاشتماله على جميع ما عداه من الأفلاك، وهو المسمى أيضا عندهم بالفلك الأطلس، لأنه غير مكوكب على رأيهم، والمسمى بالعرش المجيد في لسان الشرع، وتحته فلك الثوابت، وهو الكرسي، ثم فلك زحل، ثم فلك المشتري، ثم فلك المريخ، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزهرة، ثم فلك عطارد، ثم فلك القمر، وهو السماء الدنيا، لأنه أقرب إلينا من سائر الأفلاك "هـ.[7-78].

ثم كرّ على هذا الحصر بالاعتراض والنقض، وأنه لا دليل قاطع عندهم على الحصر في التسعة. وجوّز أن يكون العدد أقّل أو أكثر. وقد سبق لك بحث الإمام الفخر في ذلك أيضا، مؤيدا له بكلام الحكيم ابن سينا.

فتبين من هذا أن هذا الترتيب وهذا العدد، الذي أحوج أهل الإسلام إلى تطبيق ذلك على السماوات العُلى، والكرسي والعرش، وإزالة الخلاف بينهم وبين الفلاسفة؛ هو في نفسه معلّ، ودليله عندهم ضعيف ومختلّ، بل أصبح في هذا العصر الجديد، الذي يزعم أهل هذه الصناعة أنهم شاهدوا بآلاتهم الخاصة، ما تحقق لديهم بها أن هذه النظرية في الأفلاك باطلة، وعن دلائل الصحة عاطلة، وأنه لا أفلاك، لا سبعة، ولا تسعة، وقالوا إن الأرض تدور حول نفسها، وليس هناك فلك أطلس، ولا غيره؛ وإنما هذه الكواكب دائرات في الفضاء. بل إنهم أسقطوا وزادوا بحسب ما زعموه من الاكتشاف، وجعلوا الأرض من جملة السيارات، وقالوا إن القمر تابع لها، وسيار لها، ولم يعدوه في جملة السيارات المستقلة، واكتشفوا سياراً سموه أرانوس، وآخر سموه نبتون. وفي هذه المدة الأخيرة اكتشفوا آخر سموه بلوطو.

فصارت السيارات عندهم هكذا : عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - أورانوس - نبتون - بلوطو .

وكل هذه السيارات تدور حول الشمس. وبهذا صدقت نظرية الفخر الرازي، وصاحب "المواقف". وهذه النظرية لا تخالف نصوص الشريعة، إذ قد علمت أنه لا نص في الشريعة على هذه الأفلاك، بهذه الكيفية المقررة عند أولئك الفلاسفة. وقد سمعت ما ورد عن ابن عباس وغيره من أن معنى الفلك هو مدار النجوم، وأن النجوم والكواكب تدور في أفلاكها ومداراتها بين السماء والأرض. وما حاوله بعض من يجاري الفلاسفة في أنظارهم، أن يجعل السماوات العُلى داخلة في هذا التقسيم، فقد أخطأ الصراط المستقيم، وزاد في الخطإ، إذ تسور على ما لم يأته دليل عليه من نصّ القرآن، أو حديث صحيح، أو قول إمام يُعتمد عليه، وجعل العرش المجيد هو التاسع، والكرسي الذي وسع السماوات والأرض هو الثامن، وكل ذلك مردود. فقد قال في" روح المعاني":

"والمشهور أن الأفلاك الكلية تسعة، سبع للسبع السيارة، وواحد للثوابت، وآخر لتحريك الجميع الحركة اليومية. والحق أنه لا قاطع على نفي ما عدا ذلك. [قال]: ويجوز أيضا أن يكون فوق التاسع من الأفلاك؛ ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى.[قال]: والسلف الصالح، لم يصح عنهم تفصيل الكلام في ذلك لما أنه قليل الجدوى في نظرهم، وإنما يقفون عند قوله: (ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ) "هـ [باختصارج17/38-41]

وقال في موضع آخر:

"وكون السماء هي الفلك، ليس معروفا عند السلف. وإنما هو قول قاله من أراد أن يجمع بين الفلسفة والشريعة ". قال: "ومن يروم تطبيق ما عليه الشريعة مع الفلسفة، فقد رام ما لا يتم له "هـ.[بتصرف،ج29 ص8].

وقال الورزيزي، شارح "المقنع" :

"اختلف في هذه الأفلاك، فقيل: هي السماوات السبع، والثامن الكرسي، والتاسع العرش. وعلى هذا القول، ففي جرم كل فلك خمسمائة عام، وبين الفلك والفلك خمسمائة عام. وقيل السماوات السبع فوق الأفلاك التسعة، فهي غيرها ومباينة لها. قال في"سلك الإفادة، في أوقات العبادة": هذا القول هو الصحيح، لوجوه:

أحدها أن الأفلاك أجسام لطيفة، يخرقها النور، والسماوات أجسام كثيفة.

الثاني أن الأفلاك ملتصقة بعضها ببعض، كقشرات البصل، والسماوات متباعدة فيما بينها.

الثالث أن الأفلاك تتحرك، والسماوات لا تتحرك"هـ.[كراس14 ط حجرية].

وفي "روح المعاني":

"وذهبت طائفة من أهل الكلام، إلى أنه، أي العرش، مستدير من جميع الجوانب، محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدد الجهات. وربما سموه الفلك الأطلس، والفلك التاسع. وتعقبه بعض شراح عقيدة الطحاوي، بأنه ليس بصحيح، لما ثبت في الشرع من أن له قوائم تحمله الملائكة، عليهم السلام. وأيضا أخرجا في الصحيحين عن جابر أنه قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: " اهتز عرش الرحمان لموت سعد بن معاذ ". والفلك التاسع عندهم متحرك دائما بحركة متشابهة. ومن تأول ذلك على أن المراد باهتزازه، استبشار حملة العرش وفرحهم؛ فلا بد له من دليل، على أن سياق الحديث ولفظه، كما نقل عن أبي الحسن الطبري وغيره؛ بعيد عن ذلك الاحتمال. وأيضا جاء في صحيح مسلم، من حديث جويرية بنت الحارث، ما يدل على أن له زنة هي أثقل الأوزان، والفلك عندهم لا ثقيل ولا خفيف، وأيضا العرب لا تفهم منه الفلك، والقرآن إنما نزل بما يفهمون ". قال: "ثم إن القوم إلى الآن، بل إلى أن ينفخ في الصور؛ لا دليل لهم على حصر الأفلاك في تسعة، ولا على أن التاسع أطلس لا كوكب فيه" هـ.[16-140]

وفيه أيضا عن الإمام الراغب:

"أن العرش مما لا يعلمه البشر إلاّ بالإسم، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة. فإنه لو كان كذلك، لكان حاملا له، تعالى عن ذلك، وليس كما قال قوم، إنه الفلك الأعلى، والكرسي فلك الكواكب"هـ.[8-117]

وقد أشبع القول في هذا المقام؛ أبو العباس ابن تيمية، وأطال في الاحتجاج على إبطال ما تخيله أهل الهيئة الأقدمون من اليونانيين وغيرهم، في الأفلاك، وتصدى لتخطئة ما توهمه بعض أهل الإسلام، من تطبيق ما أتت به الشريعة على ما تخيله اليونان ومن تبعهم، وجعلوا السماوات السبع هي الأفلاك السبعة، وثامنها الكرسي، وهو فلك الثوابت، وتاسعها

العرش العظيم، وهو فلك الأطلس؛ وأيد كل ذلك بالدلائل الشرعية، والبراهين العقلية، وأفاض القول في ذلك المجال، حتى لم يبق للمخالف في ذلك متسعا للمراء والجدال، وخص لذلك رسالة

عنونها؛ [بالعرشية]. وهذه بعض جمل منها. قال في صدرها:

"إنه لقائل أن يقول؛ لم يثبت بدليل يعتمد عليه، أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل، لا بدليل شرعي ولا بدليل عقلي، وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيرها من أجزاء الفلسفة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع ـ و هو الأطلس ـ محيط بها، مستدير كاستدارتها، وهو الذي يحركها الحركة المشرقية، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة. ثم سمعوا في أخبار الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السماوات السبع، فقالوا بطريق الظن، إن العرش هو الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقا، وإما أنه ليس وراءه مخلوق". ثم قال:

"ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة، ويكون كاذبا فيما يدعيه. وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم، أوموافقة لهم على طريقتهم الفاسدة، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم". ثم قال:

"والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع، قد يقال إنه ليس لهم عليه دليل، لا عقلي ولا شرعي. أما العقلي، فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك". وذكر ما استدلوا به، بما لا يفيد حصر الأفلاك في التسعة. ورد الزعم المذكور وقال:

"وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر، فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع؛ رجماً بالغيب، وقولاً بلا علم". ثم قال:

"هذا كله على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة، على المشهور عند أهل الهيئة، إذ في ذلك من النزاع والاضطراب، وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه". قال: وأما العرش، فالأخبار تدل

على مباينته لغيره من المخلوقات"هـ[م الرسائل الكبرى1-257]. ثم صار يستدل على ذلك بالآيات، والأحاديث الصحيحة، وأطال.

وهذا كله إنما أحوجنا إليه، تلك النظرية التي تخيلها الفلاسفة اليونانيون.

أما في عصرنا الحاضر، فقد قدمنا لك أن علماء الهيئة اليوم أبطلوا تلك النظرية، وحكموا عليها بالخطإ، ولم يبق لهم إليها أدنى التفات، ولا أقل اعتبار، لما تحقق لديهم بالآلات الحديثة المقربة للبعد، من أن هذا الفضاء الواسع الذي عجزوا عن الإحاطة بحدوده، وصرحوا بعجزهم عن الوقوف على طرق ممدوده؛ هو مدار تلك الكواكب، ومجرى هذه النجوم، التي لا يحصيها إلاّ خالقها، جلّ شأنه، وأن هذا الكون لا ينحصر فيما حصره فيه اليونانيون ومن تبعهم. وهو ما يحوم حوله كلام أبي العباس ابن تيمية، رحمه الله، وهو الذي تساعده الآثار عن السلف، كما أسلفنا .

هل الكواكب أرض؟ وهل هي مأهولة بالخلق؟
وهل في الشرع ما يمنع اعتقاد ذلك؟

قد بينا لك في الترجمة آنفاً، ما كان عليه سلف الأمة من تجافي البحث فيما لا يغني، ومن الإعراض عن تكلف الخوض فيما يُبعد من الحق ولا يدني، وأن كل علم لا ينبني عليه عمل، فهو بالإهمال حقيق، وبترك إضاعة الوقت فيه خليق. والأدلة الشرعية على ذلك كثيرة.

وقد تصدى الإمام أبو إسحاق الشاطبي، في كتاب "الموافقات" لهذا الموضوع، وجاء في هذا المبحث بما فيه الكفاية والمقنع، وبسط في ذلك من الحجج ما لا يمكن بحال أن ينتقد أو يدفع، إذ قال في صدر كتابه، في المقدمة الخامسة:

"كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل، عمل القلب، وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعاً. والدليل على ذلك استقراء الشريعة. فإنا رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملا مكلفا به، ففي القرآن: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ) فوقع الجواب بما يتعلق به العمل، إعراضاً عما قصده السائل من السؤال عن الهلال، لِمَ يبدو في أول الشهر رقيقاً كالخيط ثم

يمتلئ، حتى يصير بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى؟. ثم قال: (وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأتوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) بناء على تأويل من تأوّل أن الآية كلها نزلت في هذا المعنى. فكان من جملة الجواب أن هذا السؤال في التمثيل، إتيان للبيوت من ظهورها، والبر إنما هو التقوى، لا العلم بهذه الأمور التي لا تفيد نفعاً في التكليف ولا تجر إليه. وقال تعالى بعد سؤالهم عن الساعة: (أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) أي إن السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني، إذ يكفي من علمها أنه لا بد منها. ولذلك لما سئل ،عليه الصلاة والسلام، عن الساعة، قال للسائل: "ما أعددت لها ؟" إعراضاً عن صريح سؤاله، إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ اَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)".

ثم ذكر أن ابن الكواء، سأل سيدنا علي، كرم الله وجهه، فقال له: أفرأيت السواد الذي في القمر؟ فقال سيدنا علي: أعمى سأل عن عمياء. ثم أجابه. وقد قال مالك بن أنس: يكره الكلام فيما ليس تحته عمل. ويحكى كراهته عمن تقدم. ثم قال -أي الإمام الشاطبي-:

"وبيان عدم الاستحسان فيه من أوجه: منها أنها شغل عما يعني من أمر التكليف الذي طوقه المكلف بما لا يعني، إذ لا ينبني على ذلك فائدة، لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الآخرة، فإنه إنما يُسأل عما أمُر به، أو نُهي عنه، وأما في الدنيا، فإن عمله بما علم من ذلك، لا يزيده في تدبير رزقه ولا ينقصه. وأما اللذة الحاصلة عنه في الحال، فلا تفي مشقة اكتسابها، وتعب طلبها، بلذة حصولها. وإن فُرض أن فيه فائدة في الدنيا، فمن شرط كونها فائدة، شهادة الشرع لها بذلك. وكم من لذة وفائدة يعدها الإنسان كذلك، وليست في أحكام الشرع إلاّ على الضد". ثم قال:

"ومنها أن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها. فما خرج عن ذلك، قد يظن أنه على خلاف ذلك، وهو مشاهد في التجربة العادية، فان عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية، تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم". قال:

"ومنها أن تتبع النظر في كل شيء، وتطلب علمه، من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم، ولم يكونوا كذلك إلاّ بتعلقهم بما يخالف السنة. فاتباعهم في نحلة هذا شأنها، خطأ عظيم، وانحراف عن الجادة ". ثم قال:

"فإن قيل: العلم محبوب على الجملة، ومطلوب على الإطلاق. وقد جاء الطلب فيه على صيغ العموم والإطلاق". قال: "وأيضاً فقد قال العلماء إن تعلم كل علم فرض كفاية، كالسحر والطلسمات وغيرهما من العلوم البعيدة الغرض عن العمل. فما ظنك بما قرب منه، كالحساب والهندسة وشبه ذلك. وأيضا فعلم التفسير في جملة العلوم المطلوبة، وقد لا ينبني عليها عمل. وتأمل حكاية الفخر الرازي؛ أن بعض العلماء مرّ بيهودي، وبين يديه مسلم يقرأ عليه علم هيئة العالم، فسأل اليهودي عما يقرأ عليه، فقال له: أنا أفسر له آية من كتاب الله، فسأل ما هي؟ وهو متعجب، فقال: قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىَ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، قال اليهودي: فأنا أبين له كيفية بنائها وتزيينها. فاستحسن ذلك العالم منه ".

"وأيضا فإن قوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) يشمل كل علم ظهر في الوجود، من معقول أو منقول، مكتسب أو موهوب، وأشباهها من الآيات. ويزعم الفلاسفة أن حقيقة الفلسفة، إنما هي النظر في الموجودات على الإطلاق، من حيث تدل على صانعها".

ثم صار يجيب عن هذه الإيرادات:

فعن الأول: إن عموم طلب العلم، مخصوص ومقيد بما تقدم. والذي يوضحه أمران؛ أحدهما أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين، لم يخوضوا في هذه الأشياء التي ليس تحتها عمل، مع أنهم كانوا أعلم بمعنى العلم المطلوب. بل قد عدّ عمر ذلك في نحو: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) من التكلف الذي نُهي عنه، وتأديبه صبيغاً ظاهر فيما نحن فيه، مع أنه لم ينكر عليه. ولم يفعلوا ذلك إلاّ لأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يخض في شيء من ذلك. ولو كان لنقِل، لكنه لم ينقل، فدلّ على عدمه.

والثاني: ما ثبت في كتاب المقاصد أن هذه الشريعة أمية، لأمة أمية، وقد قال عليه السلام: "نحن أمة أمية، لا نحسب ولا نكتب. الشهر هكذا وهكذا وهكذا". ثم قال بعد كلام طويل:

"فأما تفسير قوله (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) الآية، بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل غير سائغ، ولأن ذلك مما لا تعرفه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها". ثم قال:

"وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة، لا يؤدي فائدة عمل، ولا هو مما تعرفه العرب. فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها، الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن وأحاديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم"هـ.[الموافقات1-20 /24]

وإذا تبين لك أن أهل الصدر الأول من حملة الدين، وحماة الشريعة، لم يكونوا يلتفتون إلى البحث في هذه المنازع الغامضة، التي لم يأتهم عليها نص من صاحب الشرع، ولا ورد بها أمر من ربهم بالخوض في خضم بحرها العميق؛ كان المتعين على المؤمن الضنين بأوقاته، المتمسك بقواعد شريعته وديانته، أن يترك الخوض في ذلك مع الخائضين، وأن يشتغل بعبادة ربه حتى يأتيه اليقين. ولهذا كان العلماء من أهل الإسلام، يعدون النظر في كون الكواكب هل هي كأرضنا معمورة بالسكان أم لا؛ من تلبيس الشياطين، ومن شأن المارقين من الدين الملحدين. قال الإمام ابن الجوزي، في ذكر تلبيسات إبليس على الخلق، قال:

"حكى النهاوندي أن أرسطاطاليس وأصحابه، زعموا أن الأرض كوكب في جوف هذا الفلك، وأن في كل كوكب عوالم، كما في هذه الأرض، وأنهاراً وأشجاراً"هـ.[تلبيس إبليس ص45]

اضطراب أهل العصر ومن قبلهم
في موضوع سكنى الكواكب

ولأهل الهيئة في هذا الموضوع، في هذا العصر وما قبله، تقريرات مضطربة، وآراء متناقضة ومتضاربة، تدل على الحيرة والعجز عن درك الحقيقة. فتارة يقولون إن القمر معمور بالقطان، وإنهم شاهدوا ذلك بآلاتهم المقربة لذلك المكان. وهؤلاء زعموا وما حققوا، وتوهموا وما جزموا. وإنما هي ظنون، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا. وتارة يقولون إنه غير مسكون، وبرهنوا بأدلتهم التي تقبل النفي والإثبات، على أنه لا يمكن أن يكون في جرم

القمر حيوان أو نبات. ولم يزالوا إلى الآن ما بين مثبت وناف، وبين مصحح ومبطل، وبين مجوز ومحيل.

وهذا الخوض ليس خاصاً عندهم في القمر. بل كانوا قبل ذلك في غيره من الكواكب مختلفين، ومما كانوا يخوضون في إمكان وجود الخلق فيه قبل هذا التاريخ بما يقرب من قرن؛ كوكب عطارد، إذ فيهم من كان يجزم بوجود السكان فيه، وساقه ظنه الذي أرداه، حتى أقدم على وضع صورة من صور سكانه، وهي صورة مشوهة رسمها لهم وهمهم الباطل، وحدسهم الكاذب. وإليك ما كتبوه في هذا الكوكب منذ نحو ستين سنة. ففي تقويم "المؤيد" عن سنة 1905 ميلادية [ص48] بعد كلام في هذا الكوكب، ما لفظه:

"آراء العلماء في نتائج قرب عطارد من الشمس، يؤخذ من التمثيل السابق، ومما أوردناه قبله، أن عطارد أقرب الكواكب السيارة إلى الشمس، وقد استنتج بعض الفلكيين والفلاسفة من هذا الاقتراب، استحالة ملاءمة جوه للحياة العضوية، فقالوا إن النباتات إذا نمت فيه احترقت، والثمار إذا أينعت جفت، والحيوانات إذا درجت لم يعد لها قِبل على الحياة، لشدة تأثير الحرارة فيها. وحيث كان هذا الاستنتاج فاسداً، فالمقدمات التي قام عليها فاسدة أيضاً، لأن الذين ينادون به، إنما يطبقونه على الكائنات الأرضية، على فرض انتقالها إلى عطارد، حيث تجد فيه وسطاً مخالفاً لوسطها هنا، بل قاضياً على حياتها العضوية، وقد نسوا أن المخلوقات العطاردية، إنما خلقت لنظام عضوي يلائم درجة الحرارة في كوكبها، بحيث إذا فرض انتقالها إلى الأرض، أو إلى كوكب آخر أبعد منه، لما قدرت أن تعيش. ثم إذا قلنا فيما تقدم، أن حرارة الشمس وضوءها في عطارد، أشدُّ منهما في الأرض سبع مرات، فليس مؤدى هذا أنهما يؤثران فيه بهذا التقدير العددي، إذ السحب المتلبدة في جوه تلطف هذه الشدة ". ثم قال، بعد أن جعل عنوان المقالة:

"(رصد الشمس من عطارد): ولكن افتراض وجود السكان في عطارد، يستوجب حتماً البحث في قوة ذكائهم، وهل هم حقيقة أهل قدرة على الاشتغال بالعلوم والفنون، وسائر ما يشتغل به العقل الإنساني في العالم الأرضي؟ وللجواب نقول؛ إن القصد من هذا السؤال، لم يكن معرفة ما إذا كان كوكب عطارد قد خلق ليسكن بأناس مثلنا، وإنما معرفة ما إذا كانت الأحوال الطبيعية للعالم العطاردي تحول دون نمو الخواص العقلية لسكانه. وحيث كان

السؤال لا يتعدى هذا الحد، فنقول إن الذين فرضوا ضعف نظر هؤلاء السكان، اعتبروهم ضعاف العقل أيضا، مستندين على أن حرارة الشمس سلبتهم مزايا التعقل والتصور، كما سلبتها من سكان إفريقيا الوسطى. وناقض أهلَ هذا المذهب، آخرون، قالوا: إن كثرة الدنو من الشمس تزيد الإدراك قوة، والعقلَ سعة. فإذا كان عطارد مسكونا، فيكون أهله أطول منا باعا في العلوم والفنون والصنائع. وكلا القولين في نقطتي التطرف، لأنهما بُنيا على اعتبار سكنى عطارد بقوم يشبهون سكان الأرض في مزاجهم، مع أن الحكم على سكان هذا الكوكب ينبغي أن يبنى على خواصه الذاتية ". ثم قال بعد، تحت عنوان: (الحركة في الكون) ما لفظه:

"إذا سرح الإنسان طرفه في نجوم السماء، وقد هدأت الطبيعة بعد نهار كله حركة وضوضاء، فإنه لا يشعر بحركتها حول محور العالم شعوراً يدركه الحس. ولو كان القمر في ليلة تمامة، لما أحس بحركته، بل كان يبدو له كأنه نائم في مهده الجوي، كما تبدو النجوم سواء بسواء. ولكن، بينما الجاهل بأسرار الفلك يحكم بأن هذه الأجرام مصابيح أدلي بها من نقط ثابتة من السماء، أو كرات اللؤلؤ تخللت غلالتها الزرقاء؛ يرى العالم الفلكي أنها أجرام سماوية ملقاة في الفضاء، ومنها ما يسير بسرعة إذا قارنتها بسرعة القطارات السريعة تذكرت السلحفاة. وهذه الأرض التي نعيش على سطحها ليست إلاّ جرما من تلك الأجرام، ومن أقلها سرعة. ومع ذلك فهي تقطع في الساعة الواحدة 28500 فرسخا، أعني 30550 مترا في الثانية الواحدة، وهي دائبة على السير ليل نهار، بقدرة الواحد القهار".

ثم ذكر معلومات أخرى عن حركة بقية الكواكب، ثم قال:

"وعلى هذا المثال تسبح في أقيانوس السماء هذه الكواكب السيارة، وما يتبعها من النجيمات، بسرعة لا يمكن مقارنتها بشيء من المحسوسات أمامنا، فكيف إذاً بما يتلوها من النجوم التي سميناها بالثوابت، وما هي إلاّ جوار تسبح في الأفلاك، بسرعة يكل عن تصورها الإدراك". هـ [ص49 - 50]

ومن هذه الكلمات التي نشرت في هذا "التقويم"، منذ أكثر من نصف قرن، تعلم مبدأ علم هؤلاء الفلكيين، أساسه كله على الخيالات التي يتخيلونها، وعلى الأوهام التي يستنتجونها في تقديراتهم وقياساتهم التي تبنى على مقدمات، لا تقترن بالظن فضلاً عن اليقين. فبينما

تراهم يمهدون الطريق ويلفقون الشواهد على الإمكان، تراهم قبل تحققهم بالإمكان يجزمون بالوقوع، كما في قضية سكان عطارد التي سمعت في هذا "التقويم" ما سبق.

نعم؛ يعجبني من كلمات هذا "التقويم" قوله في الكواكب والأرض: "وهي دائبة على السير ليل نهار، بقدرة الواحد القهار". وقوله بعد ذلك في سرعة هذه الكواكب السيارة وما يتبعها من النجوم: "وما هي إلاّ جوار تسبح في الأفلاك، بسرعة يكِلُّ عن تصورها الإدراك".

وهذا هو ما نأخذ به ونعتقده، دعني من تلك القياسات التي يفصلها أهلها، ويذكرون عددها، ويزعمون أنهم أحاطوا بمقدار سيرها إحاطة تدقيق، وأحصوا المسافة التي تقطعها إحصاء تحقيق. وتلك الأعداد التي يذكرونها، يعجز الذهن عن تصورها فيما هو مرئي حاضر، فما بالك بما هو غائب والبصر عن مشاهدته قاصر، ولله غيب السماوات والأرض.

ولهذا، إذا سمع المؤمن بهذه التقديرات العظيمة، والأعداد العالية الجسيمة، يرجع الأمر إلى الله، ولا ينكر شيئاً من ذلك ولا يستعظمه بالنسبة إلى القدرة الإلهية. نعم؛ لا يجزم بشيء، بل يرد أمره ويتلو: ﴿قُلْ لاَّ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾، وهذا عندنا هو نفس الإدراك.

اشتغال أهل العصر بالكواكب
وبالخصوص القمر

وإذا تقرر لديك ما سبق، وما مهدنا به هذا المبحث، من نقل كلام أئمة الإسلام في إلغائهم الاشتغال بهذه الأمور، نذكر لك ما اشتغل به أهل العصر في شأن الكواكب وسكناها، والصعود إليها، وهل يمكن أن يعيش الحيوان على ظهرها، وقد جعلوا في مقدمة ذلك هذا القمر المنير.

واعلم أن هذه الفكرة كانت بين هؤلاء الفلكيين من ذي قبل، إذ جزموا بأن القمر هو كالأرض، لا فرق بينهما، وأنهم تحققوا بأن فيه جبالا ووهاداً، وجزموا تارة بأن فيه بحاراً وأنهاراً، وتارة نفوا ذلك. وتحققهم هذا دعاهم إلى درس خريطة القمر، وقاسوا جباله، وجعلوا لكل جبل شامخ إسماً خاصاً به، وذكروا عدد تلك الجبال، التي ما أظن أنهم أحصوها في الأرض كذلك.

وكل ذلك كما علمت، محض خيال مبني على ما يتراءى لهم بتلك النظارات التي لم يصلوا بها إلى التحقيق، بدليل التردد والرجوع عما جزموا به آنفا، إلى إبطاله ورفضه. ولقد وقفت في هذه الساعة التي أكتب فيها هذه السطور، على كلام نقلته جريدة "العلم" المغربية، [مفاده أن عالما روسيا] يرسم خريطة تفصيلية للقمر، وسيبين عليها المناطق المختلفة من مرتفعات وأودية وبحار، وعمُر كل منها، تبعا لتكوينها في العصور الجيولوجية المختلفة. ومن المعروف أن البحار والخلجان على القمر مجرد أسماء، فليس هناك ماء، ولكن الفلكيين السابقين رأوا على صفحات القمر لمعاناً فظنوا أنه ماء. هـ.

ما يتراءى في جسم القمر من الجبال والأشجار، وكلام علماء الإسلام في ذلك قديماً

قلت: أما فكرة الأشجار والجبال على ظهر القمر، فهي قديمة، حتى إن علماء الإسلام نقلوا ذلك في مؤلفاتهم. والذي كان أوهمهم ذلك، هو ذلك المحو الذي فيه، وأنظارهم فيه مختلفة، وما يذكره علماؤنا في ذلك إنما يستندون فيه إلى مقالات الفلاسفة، وإليهم ينسبون ذلك. قال الإمام الفخر الرازي، في تفسيره :

"وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه ـ أي عن المحو الذي في القمر ـ أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء، مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك، فلما كانت تلك الأجرام أقل ضوءا من جرم القمر، شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر، كالكلف في وجه الإنسان".

ثم صار يرد هذا القول. هذا ما قاله في التفسير. وذكر في "المسائل المشرقية" في ذلك أقوالاً، كما نقل ذلك عنه صاحب "روح المعاني"، إذ قال:

"وللفلاسفة في هذا المحو المرئي في وجه القمر، كلام طويل لا بأس بأن نحيط به فنقول: ذكر الإمام في "المباحث المشرقية"، أن امتناع بعض المواضع في وجه القمر عن قبول الضوء التام، إما أن يكون بسبب خارج عن جرم القمر، أو غير خارج عنه. فإن كان بسبب خارج، فإما أن يكون لمثل ما يعرض للمرايا من وقوع أشباح الأشياء فيها، فإذا رئيت

تلك الأشياء لم تُرَ براقة، فكذلك القمر. لما تصورت فيه أشباح الجبال والبحار، وجب أن لا تُرى تلك المواضع في غاية الاستنارة. وإما أن يكون ذلك بسبب ساتر، والأول باطل".

"أما أولا: فلأن الأشباح لا تتحفظ هيآتها مع حركة المرآة. وبتقدير سكونها، لا تستقر تلك الأشباح فيها عند اختلاف مقامات الناظرين. والآثار التي في وجه القمر ليست كذلك".

"وأما ثانيا: فلأن القمر ينعكس الضوء عنه إلى البصر. وما كان كذلك لم يصلح للتخيل".

"وأما ثالثا: فلأنه كان يجب أن تكون تلك الآثار كالكرات، لأن الجبال في الأرض كتضريس أو خشونة في سطح كرة، وليس لها من المقدار قدر ما يؤثر في كرة الأرض، فكيف لأشباحها المرئية في المرآة".

"وأما إن كان بسبب ساتر، فذلك الساتر إما أن يكون عنصريا أو سماويا. والأول باطل. أما أولا؛ فلأنه كان يجب أن تكون المواضع المستنيرة من جرم القمر مختلفة باختلاف مقامات الناظرين. وأما ثانيا؛ فلأن ذلك الساتر لا يكون هواء صرفا، ولا نارا صرفة، لأنهما شفافان فلا يحجبان. بل لا بد وأن يكون مركبا، إما بخارا وإما دخانا. وذلك لا يكون مستمرا. وأما أن يكون الساتر سماويا، فهو الحق. وذلك إنما يكون لقيام أجسام سماوية قريبة المكان جدا من القمر، وتكون من الصغر بحيث لا يرى كل واحد منها، بل جملتها على نحو مخصوص من الشكل. وتكون إما عديمة الضوء، أو لها ضوء أضعف من ضوء القمر، فتُرى في حالة إضاءته مظلمة. وأما إن كان ذلك بسبب عائد إلى ذات القمر، فلا يخلو؛ إما أن يكون جوهر ذلك الموضع مساويا لجوهر المواضع المستنيرة من القمر في الماهية، أو لا تكون تلك المواضع مساوية الماهية لجرم القمر، فحينئذ يمتنع اختصاصها بتلك الآثار، إلا لسبب خارجي. لكنه قد ظهر لنا أن الأجرام السماوية لا تتأثر بشيء عنصري، وبذلك أبطل قول من قال، إن ذلك المحو بسبب استحقاق عرض القمر عن مُماسَّة النار. أما أولا؛ فلأن ذلك يوجب أن يتأدى ذلك في الأزمان الطويلة إلى العدم والفساد بالكلية، والأرصاد المتوالية مكذبة لذلك، وأيضا القمر غير مماس للنار، لأنه مفرق في فلك تدويره الذي في حامله الذي بينه وبين النار أمد بعيد، بدليل أن النار لو كانت ملاصقة لحامله، لتحركت بحركته إلى المشرق، وليس كذلك، لأن حركات الشهب في الأكثر لا تكون إلا إلى جهة المغرب، وتلك الحركة تابعة لحركة

النار، والحركة المستديرة ليست للنار بذاتها، فإنها مستقيمة الحركة. فذلك لها بالعرض تبعا لحركة الكل، فبطل ما قالوه". انتهى كلام الفخر. وقد سبق كلامه في تفسيره.

ونقل الآمدي في"أبكاره"، حسب ما في "روح المعاني"، عن الفلاسفة أقوالا أخر وردّها، منها:

فمنهم من قال إنه خيال لا حقيقة له، ورده بأنه لو كان كذلك، لاختلف الناظرون فيه.

ومنهم من قال إنه السواد الكائن في القمر في الجانب الذي لا يلي الشمس. ورده بأنه لو كان كذلك لما رُئي متفرقا.

ومنهم من قال إنه وجه القمر، فإنه مصور بصورة وجه الإنسان. ورد هذا الوجه أيضا.

وقد أحصى في "المواقف" آراء المتقدمين من الفلاسفة، فأوصلها إلى سبعة. منها ما تقدم، ومنها غيره، ورد كل ذلك. وخلاصة كلامه مع شرح السيد الشريف:

"في محو القمر المشاهد في صفحة القمر آراء؛ قيل إنه خيال لا حقيقة له، وقيل إنه شبح ما ينطبع من السفليات من الجبال والبحار وغيرها، وقيل هو السواد الكائن في الوجه الآخر، وقيل هو تسخين النار للقمر، وقيل هو جزء منه لا يقبل النور، وقيل هو وجه القمر، لأنه مصور بصورة الإنسان، وقيل هو أجسام سماوية مختلفة معه في تدويره، غير قابلة للإنارة بالتساوي، حافظة لوضعها معه دائما ". قال:

"وهذا أقرب ما قيل لكن لا يصلح للتعويل".هـ باختصار وحذف الردود.[7-135]

[فكرة الصعود إلى القمر قديمة]

وقد سبق لك ما لأهل العصر في شأن سطح القمر، وأنهم يزعمون الإحاطة بما فيه من سهول وجبال وبحور وأودية وبراكين، وأنهم يدرسون جغرافيته كما يدرسون جغرافية الأرض، ولم تكفهم هذه الدعاوى، بل استكبروا في أنفسهم، وحاولوا الوصول بأنفسهم لظهره، واستطلاع خبايا سره. وقد اقتحموا هذا القمر وجربوه بالإنسان في القرن الذي قبل هذا، كما ذكره العلامة الألوسي في "روح المعاني"، وهو المتوفى سنة 1270 إذ قال:

"وهم منذ غرَّهم القمر، تشبثوا بحباله في عمل الحيل للعروج إليه. فصنعوا سفنا رنبقية، فعرجوا فيها، فقبل أن يصلوا إلى كرة البخار، انتفخت أجسامهم وضلت، كما ضلت من قبل أفهامهم، فانقلبوا صاغرين، وهبطوا خائبين".هـ

ولم يزالوا [إلى] الآن مصرين على ما حاولوا، وصاروا يعدون الآلات، ويخترعون لذلك الصواريخ والمركبات. ففي كتاب "فتوحات العلم الحديث"، لمؤلفه فؤاد صرُّوف، المطبوع سنة 1934، أي منذ ستة وعشرين سنة، تحت ترجمة:

"السفن السهمية ورحلة وهمية إلى المريخ: إن أسفار المستنبطين حافلة بذكر المستحيلات التي تحققت؛ فالآلات البخارية، والسفينة المبنية بالحديد، والطيارة، والغراموفون، والمصباح الكهربائي، جميع هذه جاء عليها عهد حسب المفكرون تحقيقها من وراء العقل الإنساني والإبداع البشري . و(الاسترونتكس) لفظ جديد يعني؛ ملاحة الفضاء، يشير إلى علم جديد لا يزال بين العلوم التي لم تثبت بالدليل والامتحان. ولكن ما تنطوي عليه هذه اللفظة من الأعمال العظيمة، يستثير الخيال، فيجعل أعجب فعال الطيارين المعاصرين لعب أطفال إزاءه. ولذلك لن ينفك هذا العلم ميداناً لإبداع المهندس، وتحقيق الطبيعي، وخيال المتخيل".

"تصور أيها القارئ؛ أننا سنترك الأرض في آلة مسدودة سداً محكماً، وأننا سنخترق الفضاء سائرين من كوكب إلى كوكب، بسرعة لم يُتَح مثلها لإنسان من قبل، وأننا سوف نرى في أثناء رحلتنا هذه ما على سطح القمر من المشاهد، وخصوصاً ما على سطحه المحجوب عن الأرض، لأنه لا يخفى عليك أن القمر يدور حول الأرض وهو أبداً مُشيح عنها بأحد وجهيه. وإننا سنزور بأنفسنا سطح المريخ، فنبحث عن حقيقة الأقنية التي تصورها "لول"، من صنع ناس عاقلين لأغراض الري. وإنا كذلك سوف نخترق الحجب المسدولة على وجه الزهرة، لنرى ما وراءها من مشاهد (لأن جو الزهرة متشبع بالبخار الماني، فالغيوم فيه كثيرة تحجب عن وجهها)".

"أيُّ خيال يستطيع أن يبدع لنا رحلة أمتع للعقل، وأشد إذكاء للخيال؟. ولكن ما هي الحوائل التي تحول دون رحلتنا إلى المريخ وغيره من السيارات البعيدة ؟ الحائل الأول هو

جاذبية الأرض كما تبدو لنا في ثقل الأشياء على سطحها. فلكي نفلت من جو الأرض إلى رحاب الفضاء، يجب أن نقوى على ثقلنا، وثقل الآلة التي تنقلنا".

ثم ذكر ما قاله الفرنسي الروائي "فرن" في كتابه الذي موضوعه " من الأرض إلى القمر"، جعل فيه مطية الراحلين؛ قنبلة مدفع تنطلق من مدفع ضخم مدفون في الأرض، فوهته متجهة إلى الفضاء. وهذا خيال روائي. ولكن قال هذا المؤلف:

"وفي الرواية مسحة من الحقيقة العلمية. ولكن لما أقبل العلماء على درس هذا الموضوع، عرفوا أنه رغم ما يبدو في رواية "فرن" من إمكان التحقيق العلمي، لا يستطيع البارود، كائنة قوة فعله ما كانت، أن يطلق هذه القنبلة بسرعة كافية للانفلات من فعل جاذبية الأرض. بل هم يشكون كل الشك في انطلاق قنبلة كهذه من المدفع. والواقع أن المدافع المعروفة، وأنواع البارود المتداولة، لا تكفي قط لإطلاق كرة، دع عنك قنبلة نصفها بيت لإيواء المسافرين، تخرج من جو الأرض، وتصل إلى القمر". ثم قال: "فعلينا أن نلتفت إلى وسائل أخرى غير قنابل المدافع".هـ[ص238]

ثم انتقل إلى فكرة الصاروخ والسفن السهمية، وما ابتنيت عليه، وما يعترضها من الحواجز والمصاعب، ثم قال:

"فمتى تغلب العلماء على المصاعب التي أشرنا إليها - وهم مقتنعون بإمكان التغلب عليها - صار في الإمكان الرحلة إلى القمر في الوقت الذي يستغرقه السفر من القاهرة إلى حيفا. والمهندسون المتوفرون على هذا البحث، يقولون بإمكان بناء سفينة سهمية يتباين وزنها من 300 طن، إلى ألف طن؛ يكون الجانب الخاص منها بالمادة الدافعة في أجزاءٍ، إذا فرغ أحدها، انفصل عن جسم الطيارة من تلقاء نفسه، ليخفّ بانفصاله وزنها، وتزيد سرعتها". ثم بين ما تحتاج إليه هذه السفينة. ثم قال:

"أما وقد بنيت السفينة وجهزت بكل ما يلزم لها من وسائل الملاحة والراحة، فلا تظننّ أن في الإمكان امتطاءها وتسديدها إلى المريخ مثلاً، والسير بها على هذا الهدف على أهون سبيل، فالسيارات سائرة في أفلاكها بسرعة عظيمة، والمريخ في أقرب قربه إلينا يصير على نحو30 مليون ميل منا. فإذا سرنا بسرعة متوسطها عشرة أميال في الثانية، استغرقت رحلتنا إلى المريخ أكثر من شهر. وفي أثناء هذا الشهر، يكون المريخ قد قطع جانباً من

فلكه. فسفر السفينة وتسديدها ووصولها إليه، يجب أن يكون خاضعاً لحسابات الفلكيين الرياضيين الدقيقة، فنجري حيننذ على المبدإ الذي يجري عليه الصياد وهو يحاول أن يصيب عصفوراً طائراً؛ فإنه يسدد رصاصته إلى نقطة أمام العصفور، حتى إذا وصلت إليه، كان العصفور قد وصل إليها أيضاً، فتصيبه في المقتل". وصار يفصل هذه النظرية، ثم قال:

"إن الصدمة التي يُصاب بها جسم الراكب في أول الرحلة، وهي صدمة ناشئة عن سرعة الطيارة البدائية وإسراعها، من أكبر العقبات التي يحاول الباحثون تخطيها. فالسفينة تنتقل من حالة مستقرة، إلى سرعة سبعة أميال في الثانية، في نحو ثمان دقائق. فإذا فرضنا أن إسراعها كان 25 متراً في الثانية الأولى، وخمسين في الثانية، و75 في الثالثة، وهكذا ظهر أثر هذا الإسراع في زيادة ضغط الجسم على ظهر المقعد الذي يستند إليه، فإذا زاد هذا الإسراع إلى درجة كبيرة، شعر المسافر كأن جباراً من جبابرة الحيوانات المنقرضة يضغط عليه حتى يكاد يسطحه. فإذا كان في جيب المسافر أنصاف ريالات، دفنتها شدة الضغط في الجلد. وإذا حاول أن يتنفس، شعر بكابوس يكاد يخنقه. وإذا حاول أن يرفع ذراعه، بلغ جهده في محاولة رفعها حتى يتصبب عرقاً. حتى أشد علماء "الملاحة الكونية" تفاؤلا وحمية، يسلمون بأن هذا الإسراع العظيم يعرض الجسم لأخطار فسيولوجية عظيمة. "فأوبرث" يظن أن الأعضاء الداخلية قد تصاب بما يحول دون قيامها ببعض وظائفها، وأن الأفعال العصبية نفسها قد تتعطل. يقابل ذلك أن مدى مرونة الجسم لم يُعرف بعد؛ فنحن لا ندري القوى العظيمة التي يستطيع أن يتحملها. فالطيارون الذين يحلقون في الجو، وينقلبون بطياراتهم كل منقلب، يتعرضون لقوى تستطيع لشدتها أن تنتزع أذرعهم وسيقانهم من مفاصلها، ولكنها لا تفعل".

"وعليه، يرى طائفة من علماء "الملاحة الكونية" المتريثين، أن يجربوا التجارب بالقردة أولاً، توطئة لتجربتها بالناس. وغرضهم أن يقيسوا مدى القوى التي يمكن تعرض الجسم لها من غير أن يصاب بأذى".هـ[ص240] .

ثم صار يبين ما يعرض لهذا السير في الفضاء، من عقبات وحواجز، وما هو في طوق البشر متعذر أو متعسر.

وقد مضى على هذه التقديرات والتخيلات، ما يقرب من نصف قرن. وهاهم في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، يخوضون في ذلك المرمى كالذي خاض من تقدم، ويدعي المتطرف منهم أنه انتصر على هذه الفكرة، وأن القمر وغيره من الكواكب صاروا منها قاب قوسين أو أدنى، وأن الوصول إليها قريب، وأن الإنسان سيستغلها ويعتمرها كما يعتمر هذه الأرض الذلول، وهم يعملون أنواع التجارب التي زعموا أنها نجحت، كوصول القذيفة التي رماها الروسيون فوصلت إلى القمر .

أما المتريثون المتوسطون، فإنهم يرون أن وصول الإنسان إلى القمر أو غيره، دونه خرط القتاد، والخروج بالإنسان عن حده المعتاد، وأن ما يقوله هؤلاء المتطرفون هو من قبيل المحال. فقد قرأت في مجلة "الأخبار" الأمريكية، مجلد8، عدد33، تحت ترجمة: (المشكلات التي تواجه رواد الفضاء) ما لفظه:

"إذا سارت الأمور على ما يتوقعه الخبراء، فالمنظور أن يتمكن العلماء من إطلاق قمر صناعي يحمل إنسانا ويدور به حول الأرض، خلال خمسة أعوام. فأي من البشر سيكون رجل الفضاء هذا؟ هل يحتاج إلى عظام من الفولاذ وعضلات قوية، ورئتين كرئتي نافخ الزجاج، وقلب قوي كبير الاحتمال، ليقاوم شدة اندفاع الصاروخ؟ إن الفكرة الشائعة عن رجل الفضاء، هي مزيج من الخيال المستمد من الكتب المصورة والحقائق" هـ. ثم قال في هذه المجلة:

"وأول مخاطر السفر إلي الفضاء، هي مشكلة الانطلاق. وسببها قوى الجاذبية المتعودة. والجاذبية المجردة هي قوى الجاذبية التي نعرفها على الأرض، وتكون مساوية لوزن الإنسان. وتقاوم سرعة الصاروخ الهائلة قوة الاستمرار لجسم إنسان الفضاء. ولهذه الظاهرة ذات المفعول، كما لو زيدت قوة الجاذبية. فلو أخذنا راكب السيارة مثلاً، لوجدنا أنه يشعر بزيادة طفيفة في ضغط الجاذبية، مما يشده إلى ظهر المقعد عندما تبدأ السيارة في الانطلاق. أما بالنسبة لإنسان الفضاء، فإن سرعة الصاروخ ستخلق ضغوطاً توازي سبعة أو ثمانية أمثال الجاذبية على جسمه. فلو كان وزن الإنسان 150 باوندا على الأرض، فان وزنه يصبح نصف طن خلال فترة الانطلاق القصيرة. وهو لذلك لن يتمكن من تحريك ذراعيه الثقيلتين. بل وقد يعجز عن الرؤية أو التفكير بصورة طبيعية "هـ.

ثم صار يبين هذا الكاتب، العقبات الصعبة أو المستحيل اقتحامها، التي تواجه الإنسان الذي يحاول السياحة في هذا الفضاء الواسع .

هذا ما يقوله المتريثون أو المتوقفون في الإمكان، أما المسارعون إلى الجزم بالإمكان، أو قل الذين يرونه قريباً، أو قد كان؛ فكلامهم فيه نوع تضارب وتناقض. وبالإطلاع على بعض جمل من كلامهم في الموضوع، يتضح لك ما قلناه، ومن هذا القسم بعض حكماء مصر المولعون بهذا المبحث الذي تنشر أفكاره وتقريراته مجلة "المصور"، فقد نقل في عددها 1285 المؤرخ ب 29 ربيع الأول عام 1379[2 اكتوبر1959] بقلم الدكتور عبد المحسن صالح، المدرس بكلية العلوم بجامعة القاهرة، تحت ترجمة:

(الخطوة الثانية: أنت على القمر: وصل أول صاروخ إلى القمر، ولكن هذا شيء بسيط. فمتى يصل الإنسان إلى القمر؟، وإذا كان الصاروخ "لونيك" الثاني، قد وصل في خمسين ساعة، فمتى تصبح الرحلة ست ساعات فقط؟.أسئلة كثيرة حيرت العلماء طويلاً، وهذه هي الإجابة عليها. وهذه الأسئلة هي:

1) لماذا اختار العلماء القمر، دون سواه من الكواكب، للوصول إليه أولا ؟

2) ماذا ينتظر الإنسان قبل الوصول إلى القمر ؟

3) نجح العلماء منذ سنوات في بناء الصواريخ، فما الذي أخر تنفيذ فكرة الوصول إلى القمر حتى الآن ؟ .

4) ما هي هذه السرعة الكونية ؟

5) هل يمكن أن نصل إلى القمر في أقل من خمسين ساعة؟

6) لماذا ارتطم الصاروخ بسطح القمر ؟

7) ما هو أهم ما ينبغي مراعاته في السفر إلى الكواكب ؟

8) كيف تُقاس المسافات الطويلة التي تقطعها الصواريخ في الفضاء مستقبلا ؟

9) ما هي العقبات التي تعترض إرسال إنسان إلى القمر ؟)

فهذه أسئلة تسعة، كلها أجاب عنها هذا الدكتور، ولا حاجة لنا في موضوعنا إلى نقلها كلها، وأما الذي يليق بذكره، فهو الجواب التاسع الذي يناقض قوله: "أنت على القمر" إذ قال:

(ما هي العقبات التي تعترض إرسال إنسان إلى القمر؟

أولا: المحافظة على سلامة هذا المسافر، فهو الذي سيتوقف عليه نجاح التجربة وفشلها.

العقبة الثانية: أن تجتمع لدى العلماء كل المعلومات الضرورية عما يحيط بالأرض في الطبقات العليا من الجو، وأهمها الأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية. أما الأشعة الأولى، فقد توصل العلماء إلى حل لها بعملية طلاء خاصة في السفينة من الخارج. أما الأشعة الثانية، فهي أشعة قوية تنفذ في الأجسام. ولهذا يقوم العلماء في الوقت الحاضر بإجراء أبحاث كثيرة، منها إطلاق الحيوانات والأنسجة الحية داخل صواريخ إلى ارتفاع معين لدراسة تأثيرها على الأحياء .

العقبة الثالثة: إن جو القمر يختلف عن جو الأرض، ويعتقد بعض العلماء أن كتلة هواء القمر، على كل سنتمتر مربع من سطحه، يساوي 0005 ر0 من كتلته على نفس المساحة من الأرض، وأن كثافته تساوي كثافة الهواء على بعد 60 كيلومترا عن سطح الأرض). ثم قال:

(ورابع العقبات: يتمثل في تحسين الأجهزة الحالية التي تجعل الهبوط على القمر أمرا ميسورا، دون أن تتعرض السفينة للارتطام بسطحه، كما حدث مع الصاروخ الأخير.) ثم قال: (وقد تبدو هذه الأفكار بسيطة، ولكنها تحتاج إلى إجراء التجارب وتمرين الرجال، وتجميع الحقائق من كل ما يحيط بنا في هذه الأكوان.)

وأصرح من هذا في بيان استحالة وصول الإنسان إلى القمر، من هؤلاء المسارعين، ما في نفس المجلة المشار إليها سابقاً، في عددها 1827 بتاريخ 14 ربيع الثاني من العام السابق، بحروف بارزة داخل ترجمة:

(الحياة ممكنة على القمر بلا أكسجين)، ما لفظه:

(ولكن إذا صحت معلوماتنا، فإن وجه القمر هو في الواقع كرة صخرية غارقة في ماء النار، وفي أعماق الماء الملتهب، يعيش سكان القمر، يأكلون الكبريت، ويسبحون في النار).

ثم أطال هذا الكاتب فيما يعرض من الحياة على ظهر القمر. وأهم ما قاله في ذلك، هو انتقاله إلى أنه يمكن أن يكون سكان القمر خلقاً يعيشون بما هو قاتل لنا، وينتفعون بما هو ضرر علينا. ثم اضطر إلى الخضوع لحكمة الباري جل شأنه، إذ قال:

(والخالق الذي أوجدنا على الأرض، أوجد معنا كائنات تعيش على أرضنا، ولا يهمها الأكسجين في قليل ولا كثير. ثم قال: فهل تصدق عائداً من القمر أو المريخ؛ يقول لك إنه شاهد مخلوقات أيا كان شكلها وحجمها، تلقي بأنفسها بين أكوام من الكبريت الموجود هناك، أو تتعاطاه كما نتعاطى نحن الطعام، ثم بقدرة قادر، تطرح فضلات هذا الطعام الكبريتي على هيئة حامض الكبريتيك الحارق "ماء النار". وعند ما تلقيه على الصخور أو المعادن تذيبها، وتحولها إلى أملاح، فتسرع إليها كائنات أخرى لتعيش عليها؟ . إنني أصدق إذا كذَّب الآخرون، ففي أرضنا أحياء بكتيرية تقوم بمثل هذا العمل، وتهاجم الكبريت المركب في الماء، أو بين حبيبات التراب، فتحوله إلى ماء النار. ومن هذه العملية تحصل على الطاقة اللازمة لحياتها). ثم قال:

(وإذا قيل لك إن الحياة مستحيلة على القمر، للتقلبات الشديدة في الحرارة بين ليل ونهار، فلا تصدقهم، لأن الحقائق تنفي هذا الزعم. لنتوجه الآن إلى بعض الينابيع الحارة الموجودة في أرضنا. لا أنت ولا أنا نستطيع أن نلقي بأنفسنا في هذا الماء الذي يشوي الوجوه والأبدان، وتقرب درجة الحرارة فيه أحياناً حد الغليان، في مثل هذه المياه النارية، تسبح وتعيش كائنات أخرى، وتزدهر وتطيب لها الحياة". ثم قال:

"إن الحياة إذا وجدت، تشكلت وتباينت بين المخلوقات. فمنها ما يحتمل درجات الحرارة تحت الصفر، فإذا رفعت به درجة الحرارة تريد بها تدفئته مات. ومنها ما ينشط وينمو ويتكاثر عند درجة حرارة مرتفعة لا يتحملها غيره ، فإذا ألقيته في مياهنا مات. هذه حياة، وتلك حياة، وما الحياة إلا ملاءمة للظروف التي تحيط بها. وفي الحقيقة؛ إننا لم نوت من العلم إلا قليلا، وما زال الطريق أمامنا طويلا". ثم قال هذا الكاتب:

"وأعود إلى القمر فأقول؛ إنه بالرغم من حرارته المرتفعة، وبرودته القارسة، فقد تكون فيه حياة وأحياء". هـ

ولم يزل هذا الكاتب، يسطر في كتابه الاحتمالات الوهمية، والتقديرات المتناقضة. فتارة يستند فيها إلى الإمكان، وطوراً يجعل ذلك كأنه قد تحقق وكان، وحيناً يعترف بالقدرة الإلهية، وفي نفس ذلك يرجع القهقرى، فيعتمد على الخيالات الطبيعية.

أما المسلم الموحد، فإنه لا يستبعد وجود أحياء فوق القمر، بل وفوق سائر الكواكب، الله أعلم بهم، ولكن حقيقة الإنسان لا تنقلب إلى حقيقة أخرى، كما سيأتي لنا الكلام في هذا الموضوع.

وقد بالغت هذه الطائفة التي تقول: "أنت على القمر"، حتى صارت تعد الفوائد والمصالح التي يتصل بها الإنسان عند حلوله بأرض القمر، بعد إنشاء محطاتهم المتوفرة على إمكان سكنى البشر على ظهر هذا الكوكب، فقالت مجلة "المصور" في عددها 1823، تاريخ 15 ربيع الأول عام 1379، بقلم محمد اللقاني، وصدر المقالة بقوله:

"سيأتي يوم قريب لن نجد فيه كفايتنا من البترول أو الفحم أو الوقود. وحتى الوقود الذري، لا بد أن ينفذ يوما، خاصة وأن عدد سكان الأرض يزيد بشكل يدعو إلى القلق؛ فالوقود الموجود على الكرة الأرضية بشتى أنواعه سوف يعجز عن سد حاجة البشر، ومصادر الغذاء قد تعجز هي الأخرى في سد أفواه الملايين الفاغرة، فمعدل الزيادة في تعداد البشر لا يتناسب بتاتا مع معدل الزيادة في الرقعة المنزرعة على وجه الأرض، أو مع الزيادة في استغلال الثروة الحيوانية والإنتاجية، وقد يهددنا ذلك بالمجاعة يوما ما. والسفر للخارج، خارج الكرة الأرضية، أو الكواكب الأخرى، سيفتح لنا دون شك مجالات أخرى جديدة لاستغلال مساحات هائلة للزراعة؛ أنواع جديدة من الغذاء الذي قد يفوق في قيمته الغذائية ما نعرفه على الأرض، حقول جديدة من الوقود تعوض النقص الذي نعانيه على الكرة الأرضية. سوف يكتشف الإنسان عناصر جديدة سيكون لها شأن كبير في ميدان الطاقة والوقود". ثم قال:

"وقد نستطيع أن نتحكم في مسارات الكواكب الأخرى، وخلق أجواء صالحة للحياة حولها عن طريق استخدام هذه الطاقة". ثم قال:

"ومن يدري، فربما تكون غريزة البقاء هي التي دفعت بالإنسان إلى الهرب إلى كوكب آخر، قبل أن تفنى البشرية في حرب ذرية على الكرة الأرضية. لا شك أن سفر الإنسان إلى الكواكب، يحافظ على بقاء الجنس البشري في هذا الكون". ثم بعد ذلك قال:

"سيكون القمر والكواكب الجديدة، قواعد للسلام، وتوقف تيار التسلح الجنوني وتيار الحرب المدمرة، ولن تكون قواعد للجنود المسلحة كما يظن ساسة الأرض". وقال قبل هذا بإثره:

"إنني أستطيع أن أتوقع مع شيء كبير من الثقة، أن السفر إلى الكواكب سوف يضع نهاية لتحكم تجار الحروب ومجانين الدمار. فمن المؤكد أن الذين سيسافرون إلى الكواكب في المراحل الأولى، سيكونون من العلماء والخبراء والباحثين، وستكون الاكتشافات الجديدة في هذه الكواكب وبدء الحياة عليها، تحت سيطرتهم وتوجيههم، والعلماء بطبيعتهم يكرهون الحرب، ويكرهون الدمار، لسبب بسيط، وهو أن الحرب تخرب اكتشافاتهم وأبحاثهم التي هي بمثابة أولادهم وفلذات أكبادهم، ومن منا يقتل ابنه؟ ". إنتهى ما كتبه اللقاني في "المصور".

ومن المضحكات التي كتبت في هذه المجلة، بقلم عبد المحسن صالح، المدرس بكلية العلوم بجامعة القاهرة، تحت ترجمة؛ "السم في السماء":

"وقد يجوب الإنسان أقطار السماوات، وينزل إلى كواكبها، وقد تقوم العداوات بينه وبين سكانها، وقد يدس الإنسان السم لبعض المخلوقات هناك يريد الخلاص من مشاكستها، وينتظر ليرى بعينيه هلاكها، وهناك يشتد عجبه وحيرته. فبدلا من الموت والفناء، تظهر القوة والنشاط على تلك الأحياء. وقد يعود الإنسان إلى الأرض ليحكي لنا عن هذه المخلوقات العجيبة التي دس لها السم فظهرت عليها النَّضارة والفتوة. لو حدث هذا في الكواكب الأخرى، لكنت أول مصدق به، ففي أرضنا أحياء؛ السم يحييها، مع أنه يقتلنا)هـ.[عدد1827 بتاريخ16-10-59]

ثم صار هذا الكاتب ينتقل من الوقوع إلى الإمكان، ومن الإمكان إلى الوقوع، ومن الاستحالة إلى الوقوع، ومن الوقوع إلى الاستحالة، مما يدل على الاضطراب وعدم الجزم بشيء.

إنما هي احتمالات عقلية، وأضغاث حلمية، وملك الله عظيم، والإحاطة به ليست في طوق البشر، وهذه الأكوان إنما هي عبرة لمن اعتبر، وهي للمؤمن زيادة في يقينه، وإيمان بعقيدة دينه. ومن هذه الأوهام ما في مجلة "العربي" الكويتية عدد 13، تحت ترجمة: أجور السفر إلى القمر:

(بعد أن حط الصاروخ الروسي، رحاله على القمر بأيام قليلة، تلقى مكتب الأسفار "توماس كوك" في باريس، عددا من الاستفسارات عن إمكانية قيام رحلات في المستقبل إلى القمر والرجوع منه، فأجاب؛ بأن ذلك ممكن، وهو مستعد لحجز أماكن للراغبين في السفر، على أن يدفع الواحد مائة جنيه. وقد تم فعلا حجز مكان في مكتب "توماس كوك" بباريس، وثلاثة أماكن في مكتبه بلندن، ومكانين في مكتبه ببروكسيل. ان وكالة "كوك" لا تحجز أماكن للذهاب فقط، بل للذهاب والإياب، وسعر التذكرة 11500 جنيه. وقد قدر السعر على أساس الأجور الحالية للسفر في الدرجة الأولى في الطائرات العادية)هـ.

لقد استكبر هؤلاء القوم في أنفسهم، وعتوا عتوا كبيرا، بل فقدوا عقولهم، واعتلت أفكارهم، واغترت أنظارهم بما عثروا عليه من بعض الخواص الأرضية التي لم تكن مجهولة كلها عند الأقدمين. بل البعض منهم كان يعثر على بعضها، ولكن لم يكونوا يعطون لها أهمية كبرى، فتبقى مبادئها في يد بعض الناس الذي كان ربما يدعيها سحرًا.

هذه المخترعات التي تظهر
على يد هؤلاء، إنما هي استخدام لبعض الخواص الكونية

ونحن لا ننكر ما ظهر على أيديهم في هذه العصور المتأخرة، من العجائب التي ترجع مبادئها إلى ما أودع الله من الخواص في هذا الكون. ولقد كان وقع شيء من ذلك في يد المتقدمين واستخدموه. لكن في دوائر محدودة؛ كمنار الإسكندرية، فإنها كانت بأعلاها مرآة ترى منها قسطنطينة. وحكى المسعودي، أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعد من بنيان العالم العجيب، بناها بعض ملوك اليونان، يقال إنه الإسكندر، لما كان بينهم

وبين الروم من الحروب، فجعلوا هذه المنارة مرقبا، وجعلوا فيها مرآة من الأحجار المشففة يشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها. وعبارة صاحب "المعجم":

"وعلى رأس المنارة مرآة ينظر فيها الناظر، فيرى المراكب إذا خرجت من إفرنجة، أو القسطنطينية، أو من سائر البلاد الأخرى، لغزو الإسكندرية"هـ.[معجم البلدان1-240]

وكنت وقفت على أن عمود السواري، كان فيه آلة شبه كهربائية، وأنها إذا وجهت سمت المراكب القاصدة للإسكندرية؛ أحرقتها.

وهذه مبادئ لهذه المخترعات الحديثة، لكنها لم تحظ في تلك العصور الغابرة بالتتبع وتكرر التجربة لها، واستطلاع خواصها، وإضافة خواص أخرى إليها، وكان من يظن مثل هذا ينسب إلى الجن.

ثم وقفت على هذه القضية، في "حسن المحاضرة " للسيوطي، عن كتاب "إيقاظ المتغفل":

"من العجائب؛ منارة الإسكندرية التي بناها ذو القرنين. كان طولها أكثر من ثلاثمائة ذراع، مبنية بالحجر المنحوت، مربعة الأسفل، وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالآجر، وفوق المنارة المثمنة منارة مدوَّرة، وكانت كلها مبنية بالصخر المنحوت على أكثر من مائتي ذراع، وكان عليها مرآة من الحديد الصيني، عرضها سبعة أذرع، كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم. فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من الإسكندرية، فإذا قربوا منها، ومالت الشمس للغروب، أداروا المرآة مقابلة للشمس، فاستقبلوا بها السفن، حتى يقع شعاع الشمس على السفن، فتحرق السفن في البحر عن آخرها، ويهلك كل من فيها"هـ[حسن المحاضرة1-44].

وقد ذكروا فيما ذكروا من علوم الأقدمين؛ المرايا المحرقة، ففي "قانون" أبي الحسن اليوسي، في مبحث العلوم الرياضية:

"الثالث: علم المرايا المحرقة، وهو ما يعرف به أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة ومواقعها، وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها، ومنفعته عظيمة في محاصرة المدن والقلاع "هـ. [ص23].

السباحة في الفضاء

والمحاولات القديمـــــة في ذلك

وأما سباحة الفضاء؛ فقد كان الأقدمون حاولوا شيئا من ذلك، ولكن وقفوا عن تتبعه والإمعان في إتقان آلاته . ففي "معجم" ياقوت، في ترجمة (الري) ما لفظه:

"ووجدت في بعض تواريخ الفرس، أن كيكاوس كان قد عمل عجلة وركّب عليها آلات ليصعد إلى السماء، فسخر الله الريح حتى علت به إلى السحاب، ثم ألقته فوقع في بحر جرجان "هـ. [4-355]

قلت؛ وقد سبق ياقوت، بذكر هذه القضية؛ الإمام ابن جرير الطبري، في تاريخه، إذ قال:

"وكان كيكاوس مظفرا؛ لا يناوئه أحد من الملوك إلاّ ظفر عليه وقهره. ولم يزل ذلك أمره حتى حدثته نفسه - لما كان أوتي من العز والملك، وأنه لا يتناول شيئا إلا وصل إليه - بالصعود إلى السماء. فحُدثت عن هشام بن محمد، أنه شخص من خرا سان حتى نزل بابل. وقال ما بقي شيء من الأرض إلاّ وقد ملكته، ولا بد من أن أعرف أمر السماء والكواكب وما فوقها. وإن الله أعطاه قوة ارتفع بها ومن معه في الهواء، حتى انتهوا إلى السحاب. ثم إن الله سلبهم تلك القوة، فسقطوا، فهلكوا، وأفلت بنفسه"هـ.[1-264]

وذكر في ترجمة "جم شيد"، أحد ملوك الفرس، الذي معناه شعاع القمر، أن هذا الملك أمر فصنعت له عجلة من زجاج، فصعد فيها الشياطين وركبها، وأقبل عليها في الهواء من بلده من دنياوند إلى بابل في يوم واحد.[1-88]

و"جم شيد" هذا، كان في زمن نوح عليه السلام، قبل كيكاوس بكثير، وكلاهما كانا قبل مولد السيد عيسى المسيح، بكثير، وقبل بعثة سيدنا محمد، عليهما السلام، بأكثر.

كما أنه قد جُرب الطيران في الهواء بعد البعثة، بالأندلس، ففي "نفح الطيب"، للإمام المقري، في الكلام على الحكيم ابن فرناس:

"أنه احتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين، وطار في الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه، فتأذى في مؤخره، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه، ولم يعمل له ذنبا "هـ. [ج231/2].

وحيث إن الناس كانوا في هذه الأعصار، لا يلقون إلى هذه الأمور التي يحيلونها أويستبعدونها، أي نظر واعتبار، وصارت بعد ذلك تعد من نوادر الأخبار، التي تُجعل من الحكايات المسلية في الأسمار، حتى إن قضية طيران ملك الفرس عده ابن الأثير، في "كامله"، من الخرافات، إذ قال في طيران "جم شيد":

"كنا عازمين على تركه لما فيه من الأشياء التي تمجها الأسماع، وتأباها العقول والطباع، فإنها من خرافات الفرس".[1-29]. وقال في طيران كيكاوس: "وهذا جميعه من أكاذيب الفرس الباردة "هـ. [1-105]

[نجاح الطيران اليوم، سببه المثابرة على التجربة،
وإلهام الله لهذا الخلق الجديد]

ولكن تتبع خواص الأشياء، والمثابرة على التجربة، قد صيرت الطيران اليوم مما تعتاده العقول والطباع، ولا يمكن في وقوعه ولا اطراده أي إنكار أو دفاع. وكل ذلك راجع إلى خواص أرضية أودعها الله في هذا الكون، وصناعات إلهامية ألهمها الله هذا الخلق الجديد، كما ألهم الله النحل، وهو حيوان غير عاقل، باتخاذ بيوت لها منظمة بهندسة رقيقة يعجز عن تنظيمها كثير من العقلاء ، وكما ألهم العنكبوت بنسج ثياب حريرية، واتخاذ أضلاع لها محكمة متزنة لا تصدر إلا من صانع عاقل حكيم. وكل ذلك بخلق العزيز العليم، إذ هو سبحانه الخالق للخلق وأعمالهم، والملهم لتدبيرهم في أقوالهم وأفعالهم .

أسرار هذا الكون
لا يحيط بها سابق ولا لاحق

ونحن نعتقد أن أسرار هذا الكون لا يمكن الإحاطة بها، ولا حصر دائرتها الواسعة في حد محدود، ولا في أمد، أوفي جيل معدود، إذ لا يحيط البشر بشيء من علمه إلا بما شاء. فإن علموا شيئا غابت عنهم معظم الأشياء. ولا زال الخلق يطلعون كلما امتد الزمان وطال الأمد، على أسرار هذا الكون العجيبة ، ولكن لا يحصلون إلا على شيء يسير مما غاب عنهم من

الأسرار، (وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً). قال أبو إسحاق الشاطبي في "الموافقات"، فيما يشبه الموضوع:

"فكيف، وفي عالم الشهادة من العجائب والغرائب، القريبة المأخذ، السهلة الملتمس، ما يفنى الدهر، وهي باقية لم يبلغ منها في الاطلاع والمعرفة على عشر المعشار. ولو نظر العاقل في أقل الآيات، وأذل المخلوقات، وما أودع بارئها فيها من الحكم والعجائب، لقضى العجب، وانتهى إلى العجز في إدراكه"هـ. [2-284] . وقال الإمام القرافي:

"ولاشك أن الله أودع في أجزاء هذا العالم أسرارا وخواص عظيمة وكثيرة، حتى لا يكاد يعرف شيء عن خاصية. فمنها ما هو معلوم على الإطلاق، كإرواء الماء، وإحراق النار. ومنها ما هو مجهول على الإطلاق. ومنها ما يعلمه الأفراد من الناس، كالحجر المكرم، وما يصنع منه الكيمياء ونحو ذلك"هـ. [الفروق4-154].

وعليه، فمن جدَّ واجتهد، أصاب من خواص الأشياء ما قدر له ووجد. وهؤلاء القوم يتتبعون خواص الأجزاء الأرضية بكل دقة وتحقيق، ولا يملّون، وإن أخفقوا في كثير من تجريباتهم، لأن فكرتهم مصروفة كلها إلى الدنيا وزخرفها، وهمتهم مغتبطة بعرضها الفاني وزهرتها.

هذا كله في عالم الشهادة، وأما عالم الغيب؛ فلا سبيل لمخلوق التسور على علمه، ولا الاطلاع على أسراره، إذ هو جلّ جلاله المنفرد بعلمه، إلاّ من اجتباه من المصطفين الأخيار، (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)، ومع هذا، فالعقول قاصرة عن الإحاطة بدقائق هذا الكون وحقائقه. قال في "الموافق":

"إن العقول عاجزة عن إدراك نظام الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر".هـ [7-257].

فعليك أيها المؤمن المتديِّن؛ أن تتمسك باعتقادك، وأن تعتصم بالحبل الذي اعتصم به من قبل خيار آبائك وأجدادك، وأن لا تقتل الوقت الثمين فيما يحول بين قلبك وبين يقينه، ولا فيما يخدش في عقيدة دينه، ولا تلتفت إلى السفاسف والترهات، التي هي تخمينات وتلبيسات، وان شئت قلت هي ألعاب ملهيات، واستنباطات مرديات، ولسكان هذه البسيطة مهلكات .

أما اعتقاد ما يقوله الآن أهل الرصد من أهل الهيئة، في وجود حيوانات على ظهر الكواكب ـ كما أشرنا إليه ـ فهذا لا يقدح في عقيدة الإسلام، وهي هذه الترجمة :

هل في الكون عوالم أخرى غير عالمنا؟

وهل الاعتقاد بوجودها ينافي عقيدة الإســـلام؟

وهل كان السلف يعرفون ذلك؟

لا يخفى أن عقيدة المتكلمين من أهل الإسلام؛ أن دائرة الكون لا يحيط بها بشر، ولا تنفذ إلى منتهى حدودها بصيرة أو بصر، إذ دائرة العقل على اتساعها، إذا حاولت استقصاء تعليل نشأة الأكوان، رجعت القهقرى، وعادت إلى توان. قال الإمام العضد في "المواقف"، ممزوجا بكلام شارحه السيد الشريف، عند الكلام على تعليلات الحكماء في نشأة الأرض، وتكون جبالها وتلالها وأحجارها، ما لفظه:

"ولا يخفى أن اختصاص بعض من أجزاء الأرض بالصلابة، وبعض آخر منها بالرخاوة، مع استواء النسبة، أي نسبة تلك الأجزاء كلها إلى الفلكيات التي زعموا أنها المعدات لها قطعا، أي جزما، لا يشوبه شبهة، للمجاورة والملاصقة الحاصلة بين الأجزاء الصلبة والرخوة، يستدعي سببا مخصصا. وعنده، أي عند هذا الاستدعاء، يقف العقل ويحيله، أي يحيل ذلك الاختصاص على سبب من خارج، هو الفاعل المختار. فليت شعري لم لا نفعل ذلك أولا حذفا للمئونة؟ ". [7-155]

رجوع الماديين قهراً إلى قدرة الله

وما قاله هذان الإمامان؛ كثيرا ما نشاهده ونسمعه من هؤلاء الطبيعيين والماديين، من أهل عصرنا، حيث يعللون حوادث هذا الكون بأسباب وعلل. ثم إن وقعت مجاراتهم في ذلك، وحلّت بهم ملمات مؤلمات، وجاءهم ما لا قبل لهم به مما تقف عقولهم عن تعليله، وتكلّ أفكارهم عن الإحاطة بما هم بقبيله؛ قالوا إن هناك يدا سماوية.

ولقد أخبرني صديقنا المرحوم سيدي علي الخطيب، أيام كانت الحرب متأججة [بشمال المغرب] بين أهل الجبل وإسبانيا، وكانت إسبانيا أعدت لذلك العَدد والعُدد، وآلات الحرب المدمرة، مما لم يكن أرقى منه في ذلك التاريخ، وأهل الجبل ليس لهم عُدد ولا عَدد، بل هم شرذمة قليلة، بطونهم جائعة، وأجسامهم عارية، وعدتهم الحربية واهية، مع وقوفهم في وجه عدوّهم وقوف الأبطال، بحيث كانوا يهجمون عليه المرة بعد المرة، ويحمّلونه خسائر في الأرواح والمواد الحربية، ويقتحمون عليه مراكزه الحصينة، ولا يبالون بقنابل الطيارات، ولا بنيران المدافع؛ أنه لقيته في تلك الأيام، طبيبة إنجليزية، وصارت تستوصف هذه الحالة وتستعظمها، وأخيراً قالت له:

إن إسبانيا في هذه الحرب قد استكملت عدتها وعتادها الحربي، بحيث لم تدع شيئا من طراز الآلات الحربية الحديثة إلاّ واستعملته في هذه المحاربة. ثم ذيلت كلامها بقولها: إنها تعتقد أن أهل الجبل معهم يد سماوية.

فهذا رجوع من هذه الإنجليزية، إلى الحق وإلى طريق مستقيم قهرا. وكل ذلك لما شاهدته من خرق ما هو معتاد لديها ولأمثالها.

زلزلـــــة أكـــــادير

ومن هذا، ما وقع في هذه الأيام من النكبة التي حلت بمدينة أكادير، حيث أصيبت بزلزلة قلبت المدينة بكاملها في ظرف بضعة ثوان. وهو القاهر سبحانه فوق عباده؛ فسمعنا عن بعض النصارى المتوغلين في ضلال إسناد الحوادث إلى الطبيعة، وإنكار الفاعل المختار؛ أنهم صرحوا بأن هذا الفعل هو بقدرة الله تعالى، ورفض هذا البعض التعليلات التي يستند إليها حتى من يدعي الإسلام.(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأرض طَوْعًا وَكَرْهًا).

وحيث جرى ذكر هذه القضية في وقتها، فمن المتعين الذي يقتضيه شرط كتابنا، أن نلم بتفصيلها، وما قاله الفلاسفة في الزلازل، وما هو اعتقاد أهل الله فيها، وأهل العلم الذين شرح الله صدورهم بمحض الإيمان، ونور ظاهرهم وباطنهم بلوامع العرفان .

وقعت بهذا المغرب، الذي انصبت عليه المصائب في هذا العصر صبّا، وملأت قلوب أهله فزعا ورعبا، وذلك فيما نراه ويراه عامة الناس، من عموم المنكر في حاضريهم وباديهم

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم)، في ليلة الثلاثاء، الثالث من شهر رمضان المعظم عام تسعة وسبعين وثلاثمائة ألف(1379) وقع زلزال عظيم بمدينة أكادير، بالمغرب الأقصى، بحيث جعل تلك المدينة الجديدة الجميلة، أنقاضا وأكواما من الحجارة، بحيث أضحى عاليها سافلها، كما وقع لقوم لوط، ولقي حتفه من جراء ذلك آلاف من الناس.

وقد وصف هذه الفاجعة أحد من شاهدها بقوله:

"عشنا بالأمس، لحظات من لحظات القيامة، لقد خيل لنا أن الساعة قد قامت من شدة الهول الذي حل بما كان يسمى بمدينة أكادير، وأصبح اليوم عبارة عن أكوام من الأطلال والأنقاض. لم نشعر إلا والمدينة بأسرها تخرّ علينا بما فيها من بنايات وعمارات ومنازل. وانطفاء الضوء، وجف الماء، وانقطعت المواصلات، وخرجت مهرولا إلى الشارع، وكانت العاصفة على أشدها، وتناهت إلى سمعي صرخات تعلو وتعظم وتُسمع من بعيد. الناس يستغيثون من كل جانب، ولا ندري ما حل بهم. وقد استولى الفزع والرعب على المدينة بأسرها، لم أدر ما أفعل. الظلام في كل مكان. ومرت الساعة بطيئة وأنين الجرحى يتعالى، والعويل والبكاء، حتى أشرق الضياء، فلم أعد أعرف مدينتي. لقد عفا أثرها، ولم تعد سوى حجارة وغبار وأكوام من الأطلال، وشرفات متهدمة، تذكر بهذه المعالم الجميلة التي كانت جنة للناظرين". انتهى ما وصف به هذا المشاهد هذه الكارثة، ونقلت ذلك عنه جريدة"العلم" [المغربية].

هذا وإن ضياع الأموال، وهلاك الأنفس، لم يقع إحصاؤه لحد تاريخنا. هذا بعد الحادثة بعشرة أيام. وقد قيل انه ربما يصل الموتى إلى عشرين ألفا. وقد أثبت أهل المعرفة بأن كثيرا من المصابين تحت الهدم، لازالوا أحياء. ومن العجب أنه بلغنا في هذا اليوم، أنهم أخرجوا رجلا وابنه من الأنقاض حيين سالمين. وقد استفسر الرجل عما كانت عليه حالتهما في هذه المدة التي قضياها تحت الأنقاض، وهي ثمانية أيام، فأجاب بأنه كان يقول "سبحان الله وبحمده".وإذا صحت الرواية [ ] في ذلك لها أحاديث.

أما جريدة "العلم" [المذكورة] ، فإنها ذكرت قضية الرجل وابنه، ولم تذكر ما كان يقوله الرجل، ولفظها في عدد يوم الأربعاء 11 رمضان 1379:

"تمكنت فرقة الإنقاذ يوم أمس من إخراج رجل وابنه من تحت الأنقاض، من بعد أن مكثا تحت التراب ثمانية أيام، ونقلا إلى المستشفى في حالة صحية لا بأس بها".

[ما قيل في أسباب هذه الزلازل]

أما سبب هذه الزلازل الأرضية، فأهل الفلسفة عللوا ذلك بعلل، منها أنها مادة بخارية تنضغط في الأرض وتقوى، فتزلزل المكان بحركتها. قال صاحب "المواقف"، مع شارحه، نقلا عن أهل الفلسفة، بعد أن ذكر أن البخار المحقن في الأرض، يخرج القليل من مسامّها، وينقلب الكثير بمعونة البرد الذي في باطن الأرض ماء، ويشقها، فيخرج منها ومنه العيون السيالة، إذا كان البخار كثيرا . ثم نقل عن الفخر الرازي أنه قال:

"ومياه العيون الراكدة تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض. ولكن لم تبلغ من كثرة مددها وقوتها أن يطرد تاليها سابقها ". قال: "ومياه القنى والآبار متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن تشق الأرض. فإذا أزيل ثقل الأرض عن وجهها، صادفت منفذا تندفع إليه بأدنى حركة ". ثم قال:

"وأيضا نقول: فالبخار والدخان اللذان في الأرض، قد يكثران ويزيدان الخروج منها بقوة، ومسامها متكاثفة، فيزلزلانها بحركتيهما. ومنه تتكون الزلازل. وإذا كانا قليلين، أوكان مسامّها مفتوحة، لم يكن زلزلة. ولذلك قلّت الزلازل في الأراضي الرخوة. وإذا كثرت الآبار والقنى في أرض صلبة قلّت زلزلتها. وقد يخرج البخار والدخان الممتزجان امتزاجا مقربا إلى الدُّهنية، وقد صارا نارا لشدة الحركة المقتضية للاشتعال والانقلاب إلى النارية. وربما قويت المادة على شق الأرض، فتحدث أصوات هائلة. ثم إن وقع هذا الشق في بلدة، جعل عاليها سافلها. وربما كان في موضع الانشقاق وهدات، فيسقط ما فوق الأرض في تلك الوهدات. قليلا ما تتزلزل الأرض بسقوط تلك الجبال عليها بتواتر المطر وشدته. وأيضا نقول: فيحدث في الأرض قوة كبريتية، وفي الهواء رطوبة يختلط بخار الكبريت بأجزاء الهواء الرطب فيفيد مزاجا، فيصير دهنا، أي في طبيعة الدهن، وربما يشتعل بأنوار الكواكب

وبغيرها، فيرى بالليل في ذلك الموضع شعل مضيئة غير محترقة احتراقا يعتدّ به، وذلك للطفها".

هذا ما نقله صاحب "المواقف"، وشارحه في سبب الزلزلة.[ج7-217] ثم تبرأ من ذلك قائل:ا إن كل ما ذكرناه هو من آراء الفلاسفة الذين لا يقولون بالفاعل المختار.

وقد لخص ما في "المواقف" صاحب "روح المعاني" بقوله:

"وعند الفلاسفة أن البخار إذا احتبس في الأرض، وغلظ بحيث لا ينفذ في مجاريها لشدة استحصانها وتكاثفها، اجتمع طالبا للخروج ولم يمكنه؛ فزلزلت الأرض. وربما اشتدت الزلزلة فخسفت الأرض، فيخرج نارا لشدة الحركة الموجبة لاشتعال البخار والدهان، لا سيما إذا امتزجا امتزاجا مقربا إلى الدهنية. وربما قويت المادة على شق الأرض فتحدث أصواتا هائلة، وربما حدثت الزلزلة من تساقط عوالي وهدات في باطن الأرض، فيمتزج بها الهواء المحتقن، فتتزلزل به الأرض. وقليلا ما تتزلزل بسقوط قلل الجبال عليها لبعض الأسباب. ومما يستأنس به للقول بأن سببها احتباس البخار الغليظ، وطلبه للخروج، وعدم تيسره له؛ كثرة الزلازل في الأرض الصلبة، وشذوذها بالنسبة إلى الأرض الرخوة "هـ. [17-101]

وهذه النظرية القديمة للفلاسفة، لا تبعد عما عليه نظريتهم في العصور الأخيرة ، ففي "دائرة المعارف" لوجدي:

"الزلزلة هي من آثار التفاعلات الأرضية الحاصلة في بطن الأرض. وسببها هو بسبب تكون البراكين. وذلك أن مياه البحر تتسرب من خلال طبقات الأرض حتى تصل إلى عمق تكون فيه درجة الحرارة شديدة (انظر جيولوجيا وبركان) فيتبخر هذا الماء، فيطلب مخلصا، ولا يزال يتراكم بعضه على بعض، حتى يهدم ما يصادفه أمامه من الحواجز، فترتج له القشرة الأرضية ارتجاجا مخيفا، وهو ما يسمى الزلزلة. وأحيانا تنخسف قطعة كبيرة من الأرض، وتغور في باطن الأرض ببيوتها ومدائنها، كما حصل في اليابان آخر سنة 1923، إذ انخسفت مدن برمتها دفعة واحدة. وهي تكثر في بعض البلاد، وتكاد لا تذكر في البعض الآخر"هـ.[4-590]

ثم إن هذه النظرية قد وقع التخلي عنها، وعن نظريات أخرى في العصر الحاضر. واعترف أهل هذه الأبحاث بالعجز عن معرفة سبب الزلازل، ووقوف عقل الإنسان عن حقيقة

نشأتها. ولهذا كل ما تعلل به هي تعليلات حدسيات، واستدلالات وهمية خياليات. وقد أشارت بعض الجرائد الفرنسية عقب كارثة أكادير إلى ما قلناه، إذ فيها:

"إن علم الزلازل علم حديث، وحداثته لا تسمح باستنتاج ملاحظات مفيدة. وكل ما يمكن قوله، إن للزلازل وتكون الجبال سبب مشترك، لكن ما هو السبب؟ لقد اختلفت الآراء حول ذلك، وحار ذهن الإنسان في أسباب منشإ الزلازل منذ أقدم العصور. ومن بين النظريات التي ظهرت من قبل، وقع التخلي عن الكثير منها، كما أن نظريات أخرى حديثة تقول إن سبب الزلازل يرجع إلى اختلاف درجة الحرارة في المناطق العميقة في جوف الأرض. ولكنه لا يمكن إثبات صحتها بكيفية علمية "هـ.

هذا ما يقوله أهل هذا العصر، الذي يزعم أهله أنهم سيطأون ظهر القمر بأقدامهم، ويستخرجون ما فيه من الذخائر التي تمدهم في تصرفاتهم وأعمالهم، بل يدعون أنهم سيحتلون غيره من الكواكب. وأنت تراهم عجزوا عن معرفة شيء يسير قريب منهم يتكرر مرارا، مما هو على ظهر الأرض التي يدعون أنهم أحاطوا بما فيها، وضاقت عنهم بما رَحُبت، فحاولوا سكنى الكواكب.

فليتمسك المؤمن باعتقاده، وليرجع إلى ما قاله قادة أهل ملته، وليجعل هذه الزلازل من الآيات التي يرسلها الباري في خلقه، ليردهم بها إلى القيام بواجبه وحقه. وإن صح عنده في ذلك شيء عن الرسول، فليعتصم به. وإن لم يصح شيء، وصح في ذلك تعليل، فهو من الأسباب التي هي من فعل الفاعل المختار، الذي بيده الخلق والأمر، إذ كل ما في هذه الأراضي وما فوقها من السماوات، وما بينهما من المخلوقات، كله تحت أمره، وفي قبضة قهره، لا يخرج عن ذلك جليل أو حقير، ولا ينفك عن ملكه كبير أو صغير. لا اله إلاّ هو، العليم الخبير .

أما الاطلاع على الحقائق، وكيفية تعلق الأسباب بمسبباتها، وارتباط بعضها ببعض، وكيف تكونت، ومما تكونت، وهل هذا من هذا، وهذا من هذا، وهل هذا النشء من هذا، أويتوقف على هذا، فهذا مما لم يجعل الله للعقول إلى إدراكه سبيلا، بل قصرها على مقام القصور، وإرجاع العلم إليه، وان الكل من عنده، وإليه تُرجع الأمور.

ويعجبني في هذا المبحث؛ قول محيي الدين ابن عربي، في فتوحاته:

"ولما خلق الله الأشياء، وذكر أن له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين، وضع الأسباب، وجعلها له كالحجاب، فهي توصل إليه تعالى كل من علمها حجابا. وهي تصد عنه كل من اتخذها أربابا؛ فذكرت الأسباب في أنبائها أن الله من ورائها ". ثم قال بعد ذلك:

"فخلق الأرواح والأفلاك، ورفع السماوات قبة فوق قبة، على عمد الإنسان، وأدار الأفلاك، ودحا الأرض ليميز بين الرفع والخفض، وعين الدنيا طريقا للآخرة، وأرسل بذلك رسله تترى، لما خلق في العقول من العجز والقصور عن معرفة ما خلق الله من أجرام العالم وأرواحه، ولطائفه وكثائفه، فإن الوضع والترتيب ليس العلم به من حظ الفكر، بل هو موقوف على خبر الفاعل لها، والمنشئ لصورها. ومتعلق علم العقل من طريق الفكر، إمكان ذلك خاصة، لا ترتيبه، فان الترتيب لا يعرف إلا بالشهود في الأشخاص، حتى يقول هذا فوق هذا، وهذا تحت هذا، وهذا قبل هذا، وهذا بعد هذا. والعقل يحكم بالإمكان في ذلك كله ".هـ[الفتوحات المكية 3-416].

ما قاله أئمة الإسلام في هذا الموضوع

ولنرجع إلى ما قاله أئمة الإسلام، الذين تطمئن قلوبهم برؤية انفراد الحق سبحانه بالخلق والأمر، وأنه سبحانه خلق الأسباب ومسبباتها، وترتيبها في هيآتها وأوقاتها.

فهذه الزلازل، كسائر الأمور التي تحدث في هذا العالم، سواء منه السفلي أو العلوي؛ من سحاب ومطر، وثلج ورعد وبرق، وصواعق وعواصف، وخسف وغرق، وغير ذلك. وما ذكر لها أهل الفلسفة من أسباب وعلل، فهي في نظر أهل التحقيق لا يبعد قبولها، مع اعتقاد ما سلف من أن الكل منه سبحانه، لأنه سبحانه أجرى عادته في خلقه بنصب الأسباب في الكثير من أفعاله. وقد قررنا ذلك فيما سبق بأوضح تقرير وأوسع تحرير، ونقلنا في ذلك كلام العارف الحاتمي، من أهل الله.

وهذا، حيث لم يأت من الشارع نصّ في ذلك، وإلاّ فهو المقدم. وقد ورد في هذه الزلازل ما يفيد أنها من تجليات الحق سبحانه لهذه الأرض ببعض صفاته القهرية تخويفا ليتعلقوا به ويرجعوا عما هم عليه من المخالفات وينتبهوا من سكرة الغفلات.

فقد روى ابن أبي الدنيا، حسبما في "الدر المنثور"، عن جبير ابن نفير، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لتستصعبن الأرض بأهلها، حتى لا يكون على ظهرها أهل بيت مدر ولا وبر. وليبتلين آخر هذه الأمة بالرجف، فإن تابوا، تاب الله عليهم، وإن عادوا، عاد الله عليهم بالرجف والقذف، والمسخ والصواعق"هـ[6-57].

وروى الطبراني، في كتاب السنة؛ (باب ما جاء في تجلي الله للأرض)، ثم ساق بسنده إلى ابن عباس أنه قال: "إذا أراد الله أن يخوف عباده، أبدى من بعضه للأرض، فعند ذلك زلزلت. وإذا أراد الله أن يدمدم على قوم، تجلى لها ".

ثم ساق عن الديلمي، في "مسند الفردوس"، بسنده إلى ابن عباس مرفوعا : " إذا أراد الله أن يخوف خلقه أظهر للأرض منه شيئا فارتدعت، وإذا أراد الله أن يهلك خلقه، تبدى لها"هـ

وهذا يفيد أن هذا التجلي، تجلي غضب وانتقام، لأجل ما أحدثه الخلق في الدين من العصيان والمخالفات. وفي صحيح البخاري: "لا تقوم الساعة، حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل". وأخرج ابن أبي الدنيا؛ أن الأرض زلزلت في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فوضع يده عليها ثم قال: "اسكني، فإنه لم يأن لك بعد"، ثم التفت إلى أصحابه فقال:" إن الله مستعتبكم، فأعتبوه" .

ثم زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب، فقال: أيها الناس، ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه. والذي نفسي بيده، لئن عادت، لا أساكنكم فيها أبدا.

قال الإمام السيوطي، في كتابه الخاص بالكلام على الزلزلة، بعد نقله الآثار في ذلك، ما لفظه:

"وبهذه الآثار عرف فساد قول الحكماء، ووجه فساده أنه قول لا دليل عليه، بل ورد الدليل بخلافه" هـ.

وقد كانت وقعت زلزلة عظيمة بفاس، أثناء سنة 1075، أي في القرن الحادي عشر من الهجرة، والإمام سيدي عبد القادر الفاسي، في مجلسه العلمي الحفيل، حتى ارتاع لها كل من في المجلس من اهتزاز الأرض بهم، وسماع صوت أخشاب السقف، فخرج الناس من

المسجد، وقام تلاميذ الشيخ خوفا على أنفسهم، كما قام الشيخ. فسئل الشيخ إذ ذاك عن سبب الزلزلة، وهل ما يقوله العامة من أن الثور الذي عليه الدنيا أو الحوت يتحرك؟

فأجاب: بأن ذلك باطل لا أصل له، وتلا قوله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا).

كما سئل عن ذلك العارف سيدي عبد العزيز الدباغ، من قبل تلميذه المخلص العلامة سيدي أحمد ابن مبارك اللمطي. قال سيدي أحمد المذكور: وقد كنت عرفت ما قاله السلف الصالح فيها وما قاله الفلاسفة أيضا فيها، وأحببت أن أسمع جوابه، رضي الله عنه، فأجاب، رضي الله عنه:

"سبب زلزلة الأرض؛ تجلي الحق سبحانه لها ". ثم قال عنه: "ثم هذا التجلي كان كثيرا في أول خلق الأرض، وقبل خلق الجبال فيها، فكانت تضطرب وتميل، ثم حجبها جل وعلا، وخلق الجبال فيها فسكنت. وفي آخر الزمان يكثر هذا التجلي أيضا، فلا تزال الأرض تكثر فيها الزلازل والرجفات حتى يبيد من عليها"هـ. [الإبريز1-156]. ثم ساق سيدي أحمد بن المبارك، كلام السيوطي، الذي قدمنا بعضه، شاهدا لكلام الشيخ .

هذا ما تطمئن إليه قلوب الموحدين، وتعتقده أفئدة المؤمنين الموقنين، الذين لا يلتفتون إلى تعليلات الماديين الملحدين، الذين مداركهم تنحصر في الحسيات، وعلومهم لا تتعدى المقدمات الحدسيات. ولقد طما في هذه العصور تيار هؤلاء الضالين المضلين .

جرى لي إثر واقعة أكادير، مع بعض من ينتمي للثقافة العصرية، مذاكرة في هذا الحادث الخطير، الذي ارتاع منه كل كبير وصغير، حتى جرى ذكر ما كان يلهج به عموم أهل المغرب، وبعض خصوصهم، من أن تلك المصيبة نزلت بما كسبت أيدي الناس من الآثام، وما تواطأوا عليه من ارتكاب المخالفة والإجرام؛ فأنكر ذلك، وقال لي: لو كان ذلك حقاً لكانت المدينة "الفلانية" أولى بذلك .

ولكن فات هذا المثقف، أن الله سبحانه يذكّر قوما بإصابة آخرين، ويؤاخذ قرية بإجرام أكابرها المفسدين، ليرجع إليه من سبقت له الحسنى من الناس العابدين الحامدين. وقد قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وانظر إلى قوله تعالى:(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) يقول الله تعالى، على أحد التأويلات:

وإذا أردنا إهلاك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها، لم نعاجلها بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم، بل أمرنا مترفيها، أي رؤساءها وأكابرها وأهل النعيم منهم، بالرجوع عن تلك المعاصي. وإنما خص المترفين بذلك الأمر، لأن المترف هو المنعَّم. ومن كثرت نعم الله عليه، كان قيامه بالشكر أوجب. فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى - مع انه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال - فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم، وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق. فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا هـ.

وما يدري هذا القائل أن هذه الإصابة الخاصة بأهل أكادير، هي إنذار وموعظة ليتعظ المتّعظ، ويتوب التائب من الناجين. فان استكبروا في أنفسهم، وأصروا على معاصيهم، ورموا بهذه المواعظ وراء ظهورهم؛ أتاهم ما لا قبل لهم به من ربهم، وأرسل عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ودمرهم تدميرا.

اللهم يا حليم يا كريم، اهدنا الصراط المستقيم، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، فإلى باب كرمك يلجأ العاصي، وبسعة رحمتك وعموم عفوك يتمسك المقصر الجاني، (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

الرجوع لموضوع؛ هل في الكون عوالم أخرى، وهل في السماوات دوابّ غير الملائكة؟

ولنرجع إلى مباحث الترجمة فنقول: إن اعتقاد أن في أجرام الكواكب ونحوها سكانا من أحياء مثلنا، أو حيوانات مباينة لنا، أو هناك فيما غاب عنا عوالم أخرى لا عدد لها، مما لم يطلعنا الله عليها ؛ هو أمر جائز، والقدرة الإلهية صالحة له، إذ هو من الممكنات التي يجوِّز العقل وجودها وعدمها، بل ورد في الشرع ما يشير إليه، كقوله تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ).

وكنت سُئلت عن هذه المسألة قديمًا، إذ سألني عنها أحد أفاضل أصدقائنا الذين لهم معرفة ودراية بالعلوم الإسلامية والعصرية، وكان عنوان السؤال؛ هل في السماوات دوابّ غير

الملائكة؟ وقال لي هذا السائل: مما يدل على أن في السماوات دواب غير الملائكة، قوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) الخ. وكنت أجبته بما لفظه:

هذا يحتمل، وليس نصا، إذ الدابة في لغة العرب تطلق على ما يدب، أي يمشي، والملائكة ممن يمشي. قلت: وذكر الفخر في الآية وجوها فقال:

"فان قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟ قلنا فيه وجوه:

الأول: أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة، وإن كان فاعله واحدا منهم، ومنه قوله تعالى:(يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ).

الثاني: إن الدبيب هو الحركة والملائكة لهم حركة.

الثالث: لا يبعد أن يقال، إنه تعالى خلق في السماوات أنواعا من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض". هـ.

وفي "تفسير روح المعاني" إجازة أن يكون في السماوات دواباً وحيوانات غير الملائكة. واحتج على ذلك بما ثبت من صحيح الأخبار، ما يدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها، وكذلك ما يدل على وجود ملائكة كالأوعال. [قال]: بل لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى، وأحوال مختلفة، لا نعلمها ولم يذكر في الأخبار شيء منها، فقد قال تعالى: (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ). قال:

وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جرم القمر، لكنهم لم يحققوا أمرها، لنقص ما في الآلات على ما يدَّعون. ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر. ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به.هـ[ج25 ص36].

وقول "روح المعاني" عن أهل الأرصاد، إنهم تتراءى لهم مخلوقات الخ. هذا في عصر هذا المؤلف. أما فيما بعده إلى عصرنا هذا، فقد غلب على ظنهم أن القمر غير مسكون، وبرهنوا على أنه لا يمكن أن يكون فيه نبات أو حيوان، كما قاله طنطاوي. أما الآن فهم كما سبق مترددون في الإمكان وعدمه، وهو، وإن زعموا أنهم استوفوا الآلات، فالقدرة الإلهية تعجزهم وتلبسهم حالة القصور، فلا يزالون في حيرة إلى أن ينفخ في الصور .

وخلاصة القول هنا إن لنا مقامين:

مقام؛ إمكان وجود عالم آخر، كعالمنا، أو عوالم كثيرة مماثلة لنا، أو مخالفة.

ومقام؛ وجود ذلك بالفعل.

أما إمكان ذلك وجوازه، فهذه هي عقيدة أهل الإسلام، لأن ذلك من قبيل الممكن. وكل ممكن؛ فالقدرة الإلهية صالحة لإيجاده وإعدامه.

تجويز المتكلمين من أهل الإسلام
وجود عوالم مماثلة لنا

ففي "المواقف"، للإمام العضد، ممزوجا بشرحها للسيد الشريف الجرجاني، ما لفظه:

"جوَّز المتكلمون وجود عالم آخر مماثل لهذا العالم، لأن الأمور المتماثلة تتشارك في الأحكام، وإليه الإشارة في الكلام المجيد:(أَوَلَيْسَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم). وقال الحكماء: لا عالم غير هذا العالم". وذكر استدلالهم بثلاثة أوجه، وردها. ثم أفاض في الرد قائلا:

"ولا استبعاد في ذلك، فإنهم قالوا: تدوير المريخ أعظم من مثل الشمس بما فيها من الأفلاك الثلاثة، والعناصر الأربعة ثلاث مرات. وإذا جاز ذلك، فلم لا يجوز فيما هو أعظم منه. ومن أين لكم أنه ليس في جوف تدوير المريخ، عناصر ومركبات مماثلة لما عندنا في الحقيقة أو مخالفة له فيها"هـ.[7-244]

قلت: أما فلاسفة العصر وحكماؤه؛ فقد رجعوا إلى عقيدة الإسلام، في إمكان أو وجود عوالم أخرى بشموسها وأقمارها، كما سبق شيء من ذلك .

وقال الإمام الفخر، في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ) الآية من سورة الأعراف: دلَّت هذه الآية على أنه سبحانه قادر على خلق عوالم سوى هذا العالم كيف شاء وأراد. ثم قال: فلو أراد خلق ألف عالم بما فيه من العرش والكرسي، والشمس والقمر والنجوم في أقل من لحظة، لقدر عليه، لأن هذه الماهيات ممكنة، والحق قادر على كل الممكنات، ولذا قال المعري:

يا أيها الناس كم لله من فلك تجري النجوم به والشمس والقمر

قلت: بل في كلام المعري هذا، الخروج من الإمكان إلى الوجود بالفعل، كما هو قول فلاسفة

العصر، معتمدين في ذلك بزعمهم على ما يشاهدونه بآلاتهم المقربة للبعد. وملك الله واسع. فإن صحت مشاهدتهم؛ فهي من الآيات التي يريها الله لخلقه في هذه الآفاق، لتتجلى لهم الحقائق، ويتبين لهم أنه الحق الذي أبدع الكون، وخلق الخلائق. وأما الوجود في الخارج، والوقوع، ففي كلام الشيخ الطيب ابن كيران، أنه لم يقع شيء من ذلك لعدم تعلق المشيئة بـه. قلت: ولو قال لعدم إطلاعنا عليه؛ لكان أحسن، والله أعلم.

ونحن نقول إننا لا نجزم إلا بما ورد عن الرسول عليه السلام، وصحت لنا به الرواية عنه، أو كان من قبيل المحسوسات التي تشاهدها العيان. وقد ورد في وجود عوالم أخرى آثار وأخبار صحح الأئمة بعضها. فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم، وصححه البيهقي في الشعب، وفي الأسماء والصفات، عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) قال: سبع أرضين، في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: إسناده صحيح، ولكنه شاذ، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، من طريق أبي رزين، قال: سألت ابن عباس هل تحت الأرض خلق؟ قال نعم؛ ألم تر إلى قوله (خَلَقَ سَبْعَ سمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ).

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله (خَلَقَ سَبْعَ سمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) قال في كل سماء وفي كل أرض؛ خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه .

ومن تفسير الحافظ ابن كثير، من رواية ابن أبي الدنيا، عن عثمان بن دهرس، مرسلا، قال بلغه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، انتهى إلى أصحابه، وهم سكوت لا يتكلمون، فقال: "ما لكم لا تتكلمون ؟" فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. قال: " فكذلك فافعلوا. تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا فيه، فان بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها، أو قال: بياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوما، بها خلق من خلق الله تعالى،لم يعصوا الله طرفة عين قط". قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: "ما يدرون خَلق الشيطان أم لم يخلق".

قالوا: أومن ولد آدم؟ قال: "لا يدرون خُلق آدم أم لم يخلق". قال ابن كثير، إثره: وهو منكر جداً هـ[4-385]

قلت؛ أما أثر ابن عباس، السابق عن أبي الضحى، فقد علمت أنه رواه جماعة من الحفاظ وصححه الحاكم، وكذا البيهقي، وقد نقله الحافظ ابن كثير، وأقر ما قال فيه البيهقي من صحة الإسناد، وجاء أبو حيان النحوي، وجزم بوضعه.

ولكن الإمام أبا حيان، يصحُّ حكمه في باب المبتدإ والخبر، والظاهر والمضمر، والمنصوب والمرفوع، لا في المرسل والمرفوع، والصحيح من الحديث والموضوع. والله أعلم.

وقد أجاب في "روح المعاني" على ما يرد في هذا الأثر، إثر مقالة أبي حيان:

"وأقول لا مانع عقلا ولا شرعا من صحته. والمراد أن في كل أرض خلقا يرجعون إلى أصل واحد، رجوع بني آدم في أرضنا، إلى آدم عليه السلام، وفيهم أفراد ممتازون على سائرهم، كنوح وإبراهيم وغيرهما فينا "هـ.[ج28 ص125]

ومن هذا يؤخذ أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان عالما بهذه العوالم الغائبة عنا، وأنه صلى الله عليه وسلم، أخبر بها بعض الخواص من أصحابه، لأن هذه العلوم لا يتعلق بها تكليف، فهو صلى الله عليه وسلم، مخير في إبلاغها، لما تقرر أنه، صلى الله عليه وسلم، بالنسبة لوجوب التبليغ للأمة وعدمه، على ثلاثة أقسام:

قسم يجب عليه تبليغه، وهو ما له تعلق بالتكليف.

وقسم يجب عليه حفظه وعدم إفشائه.

وقسم يخير فيه. وهذا القسم هو الذي كان يخص به بعض أصحابه، كحذيفة، وابن عباس وغيرهما، لأنه صلى الله عليه وسلم، يخاطب الناس على قدر ما تتحمله مداركهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " أمرنا، معاشر الأنبياء، أن نكلم الناس على قدر عقولهم" .

ولهذا كان بعض الصحابة لهم إطلاع على علوم ومعارف خُصُّوا بها، ولم يُفشوا أسرارها. وقد ورد في ذلك التصريح منهم، كما قال سيدنا علي، كرم الله وجهه، وأشار إلى صدره: إن هاهنا لعلوما جمة، لو أجد لها حملة. وانظر هنا ما أفشاه ابن عباس، في قضية وجود عوالم أخرى غير عالمنا. ولكنه كان يخبر بالشيء اليسير منه، ويترك ما يخاف أن

يفتتن بسماعه العموم، ولا تبلغه عقولهم. فقد ورد من رواية عبد بن حميد، وابن المنذر، من طريق سعيد ابن جبير، عن ابن عباس أنه قال له رجل: (اللهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) الآية. فقال ابن عباس للرجل: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر. وفي رواية ابن جرير، وابن الضريس، وعبد بن حميد، من طريق مجاهد عن ابن عباس، في الآية أيضا؛ "لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم "هـ.

والخلاصة هنا، أن من حصر الكون في هذا العالم، فقد حكم بفكره الضيق على ما لم يحط به علما، وقبض عقله في سجن حسه المحدود ولم يخرج إلى فضاء القدرة الباهرة، وتحمل ظلما، قال تعالى (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، قال صاحب "روح المعاني" إثر الآية:

"ويجوز أن يكون إخبارا منه تعالى، بأن لِلَّه سبحانه، ما لا علم لنا به من الخلائق، فـ:(ما لا تعلمون) على ظاهره ". ثم ساق عن ابن عباس، ما يدل لذلك. ثم قال:

"والذي أظنه أنه ليس أحد من الكفار، فضلا عن المؤمنين، يشك في أن لِلَّه خلقا لا نعلمهم، لنحتاج إلى إيراد الشواهد على ذلك"هـ.

[رجوع لموضوع الاختراعات العجيبة التي وصل إليها البشر في عصرنا]

هذا ولا يشغلن بالك أيها المؤمن، ما تراه من هذه المخترعات الغريبة، والصناعات التي هي في بابها عجيبة، التي وصل إليها البشر في هذا العصر؛ فإن ذلك، كما أشرنا إليه سابقا، ليس في الحقيقة من خلق المخلوق، ولا من إبداعه، وإنما هو من خلق الله الملهم لاختراعه، والمهيء لأسبابه، والمعين على اكتسابه، لأنه سبحانه الخالق للعباد، ولما يصدر عنهم من الأعمال والأفعال، وهو الذي خلق لنا ما في الأرض جميعا؛ إذ لولا إمداده جل وعلا بالقوى والقدرة، لما تحرك ساكن، ولا سار على الأرض سائر. فكل مخلوق، وإن تطاول واستكبر في الأرض، وظن أنه دان له ما فيها في الطول والعرض، فهو بسطوة القهار مردود إلى الفاقة والاضطرار، معدوم القدرة على الحركة والسكون، وإنما تصرفه بتصريف الواحد المختار. فقل لمن افتتن بهذه الظواهر، وغرته مبادئ هذه النوادر؛ مَن خلق مواد الكهرباء ، ومَن

خلق مواد الطائرات ، ومن خلق مواد البرق والتلغراف ، ومن خلق مواد الآلة المسمعة، ومن خلق مادة البخار لتسيير القطار في البر، والسفن في البحر، ومن خلق هذه الطاقة الذرية التي هي منذرة بالفناء والبوار، ومن أقدر هؤلاء العاملين على أعمالهم، وأمدهم بالقوة على ذلك في جوارحهم وأفكارهم ؟ فإن أنصف ورجع إلى الحق، قال: الله خالق كل شيء، كما قال المشركون السابقون (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ).

وهذه العجائب التي تراها، إنما هي خواصّ أودعها الله في هذه الأجزاء الأرضية، علِمها من ألهمه الله خواصها، وجدّ في استكشافها، وجهلها من لها عنها وأهمل النظر فيها. ولقد استتر هذا على عامة الناس، فنظروا إلى الأسباب، فحجبتهم عن خالقها ومسببها، وأوقعتهم في مهاوي الردى، وصدتهم عن سبيل الهدى، حتى صار عند غلاتهم إرجاع الحوادث إلى مبدعها، وإسناد الحركات والسكنات إلى باريها ومظهرها؛ من الغرائب التي يستهزئون بها، ويسخرون منها.

وقد بلغنا في هذه الأيام، أن أحد كبراء أصحاب الجرائد الكبرى بمصر، ألقى بها على عالم من علماء الإسلام، أسئلة منها قوله:

من خلق القمر الصناعي الرومي، الذي شاع أمره في هذا العصر؟

فأجابه العالم المذكور: بأن الله خلقه .

فسخر السائل من ذلك، وعدّ هذا الجواب من المضحكات. وصارت الجرائد تنقل ذلك استهتاراً وسخرية واستقصاراً لعقلية المجيب. ولم يدر الجهول أن هذه هي عقيدة أهل السنة، لقوله تعالى (واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ).

على أن هذه الغرائب التي ظهرت في هذا العصر وتتابعت، هي عند المؤمن المطلع، من الأدلة القوية التي تزيده إيمانا وتصديقا بما جاءت به الآي القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تصرح أو تلوح، بأن هذه العجائب وهذه الحوادث، لا بد من ظهورها. وظهورها من الأمارات التي تؤذن بقرب انقراض هذا العالم وقيام الساعة، قال تعالى: (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي، وحسنه، وغيرهما؛ عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي صلى

الله عليه وسلم، [أنه قال] في هذه الآية: " أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد ". فأخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، أن ما تضمنته هذه الآية، لم يقع، ولكنه سيقع فيما بعد.

وأنت إذا ما تأملت حوادث هذا العصر، وجدت أن ما في الآية واقع. فقد بعث العذاب من الفوق بقنابل الطائرات، ومن تحت الأرجل بغوص تلك القنابل في الأرض وإصابة الأرجل. وهذه المعدات المدمرة من الطاقة الذرية التي تقلب المدن، وتشق الأرض شقا، وتنسفها نسفا، فتذرها قاعا صفصفا، هي من ذلك.

وقد تفرقت الأمم فرقا، وتقطعت بينهم أسباب الوفاق والوئام، فلا ترى في أمة الدعوة، ولا أمة الاستجابة: اجتماع ولا اتفاق. بل كل يوم يزداد بينهم التقاطع والانشقاق، فطورا من جهة التنافس الذري، وتارة من التخالف الحزبي. فهذه أمة الإسلام، التي يأمرها كتابها العزيز بالتآلف، والتوافق والتعاون على الحق والتكاتف، وأن يجعلوا الإسلام لهم أبا، وأنهم له أبناء ، وان يكون المسلم للمسلم كالبنيان يشدّ بعضه بعضا، وأن كل مسلم، وإن كان في أقصى الصين، أو في تخوم الهند، هو أخو المسلم في المغرب، وأن الوطن لهم هو الدين، قال تعالى:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)؛ قد دبّ فيها داء التدابر والتقاطع، وتفاقم الأمر بنشأة هذه الأحزاب، التي هي منافية تمام المنافاة لأصول الإسلام، فصار كل حزب عدوا للحزب الآخر، يودّ له كل ما يودّ العدو لعدوّه ، ويتوجه إليه بكل ما يمكن القضاء به عليه. وهذا والله منافٍ لمحض الإيمان، وقد قال عليه السلام: "والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه". وقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

وأما التقاتل وشدة البأس، فإنه، وإن لاحت منه لوائح، وصدرت في هذا الشأن فضائح، فالذي يستعد له البشر يزيد شدة على شدة، ويُعرِّض الخلق للفناء. وقد ورد ذلك صريحا في الأحاديث الآتية. وفي هذه اللحظة، قرأت عن بعض المجلات الأمريكية، ان كلا من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، يعملان حاليا لصنع السلاح الأكثر تدميرا، وهو قنبلة "النيترون"، ويتعلق الأمر بتقوية القنبلة الهيدروجينية الموجودة حاليا، وذلك حتى تقضي على أكبر عدد من الأرواح البشرية، دون أن تحدث خسائر مادية فادحة. وتقول المجلة إنه من الممكن مقارنتها فيما كان يسميه الأسطوريون؛ شعاع الموت.

وكل هذا؛ تهيئة لأسباب البوار، واقتراب الوعد الحق، وجعل الأرض حصيدا كأن لم تكن بالأمس، كما يشير إليه قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ) فالآية تنطبق انطباقًا واضحًا على زماننا هذا، وتفصح تمام الإفصاح بدعوى أهله أنهم أحاطوا بالدنيا وما فيها، وأنهم قدروا على تصريفها واستخدام ما في ظاهرها وباطنها. ولهذا استقصروا ما يحويه عالمها السفلي، وضاقت عليهم هذه الأرض بما رحبت، فصاروا يعدون المعدات لاحتلال العالم العلوي، زعما منهم أنهم سيجدون فيه متسعا رحبا، ومناخا مثريا خصبا . ولكن القدرة الإلهية كل يوم ترجعهم إلى ورا، وتجهل عالمهم، حتى يصبح كأنه ما اطلع على أسرار هذا الكون وما درى.

حوادث هذا العصر تنذر حتى من لا يؤمن بالبعث؛ بقرب فناء الدنيا

وانظر إلى هذه الحوادث الأخيرة، التي أقر علماؤها بأنها حوادث إن دلت على شيء، فإنما تدل على قرب انقراض الدنيا، وكان الثابت في الأذهان أن هذه العلامات إنما يؤمن بها أهل الإسلام، وأما غيرهم فإنهم غافلون عنها، أو منكرون لها. ولكن توالي الحوادث الكونية، والتصرفات القاهرة الإلهية، من اتصال الزلازل، وترادف الفيضانات والطوفانات، واضطراب الأفئدة والقلوب، مما يظهره من الآيات علام الغيوب؛ أجبرت الكثير ممن ينكر البعث والنشور، إلى الاعتراف بقرب الفناء والدثور. إذ قد صرح أحد الوزراء بأمريكا الجنوبية، إثر الحوادث الخطيرة الأخيرة، استنادا إلى بعض تنبؤات بعض العلماء: "إننا نعتقد بداية نهاية العالم قد حلّت".

وحيث إن كل مؤمن موقن بأن الدنيا لا بد من انقراضها، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وكأن الأرض قد مُدَّت وألقت ما فيها وتخلّت، وأن السماء قد انفطرت، والكواكب قد انتثرت، والشمس كُورت، والبحار فُجِّرت، والجبال سُيرت، والعشار عُطّلت، والوحوش حُشرت،

وزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت أحمالها وأثقالها، وأن الوعد الحق قد اقترب، وأن الدنيا قد تغير حالها واضطرب، كما أخبر به القرآن الكريم، وجاءت به السنة الصحيحة عن سيد المرسلين، إذ يكرر الاعتراف به ما تكررت الصلوات، فهو لا ينتظر إلا الوقوع، لاعتقاده أن من يماري في الساعة لفي ضلال بعيد، ولكن عليه أن يسمع ما يتلى عليه مما ورد الخبر به في هذه العلامات التي جلها قد ظهر للعيان، وجرى بين أيدينا، وما بعد العيان من بيان.

ففي صحيح البخاري وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون على خمسين امرأة قيم واحد ".

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أعرابيا سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: متى الساعة؟ فقال: " إذا ضُيعت الأمانة، فانتظر الساعة ". قال: يا رسول الله، وكيف إضاعتها ؟ قال:" إذا أسند الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة ".

وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة قال: أتى رجل فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل". قال: فلو علمتنا أشرا طها. قال: " تقارب الأسواق". قلت: وما تقارب الأسواق؟ قال: " أن يشكو الناس بعضهم إلى بعض قلة إصابتهم، ويكثر ولد البغي، وتفشو الغيبة، ويعظم رب المال، وترتفع أصوات الفساق في المساجد، ويظهر أهل المنكر، ويظهر البناء "هـ. قلت: وفي رواية أخرى لابن مردويه، عن ابن عباس في تفسير" تقارب الأسواق" بقوله: "كسادها وقلة أرباحها".

وأخرج ابن مردويه، والديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "من أشراط الساعة سوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وأن يعطل السيف في الجهاد، وأن تنتحل الدنيا بالدين".

وأخرج أحمد، والترمذي، عن أنس: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كالضربة بالنار".

وأخرج مسلم، والحاكم، وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا"هـ. وانظر الآن ما في أرض

العرب من شط العرب والحجاز وغيرها؛ من الرفاهية والحضارة، ومن الأبنية المزخرفة، والمروج والرياض المرونقة .

وأخرج الحاكم وصححه، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش. والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش، وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وحتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن". الخ.

وفي حديث طويل عند صاحب "الحلية"، عن حذيفة، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة: إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء، واستعلوا البناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحكم ضعفا، والكذب صدقا، والحرير لباسا، وظهر الجور". ثم قال: "وكان الأمراء والوزراء كذبة، والأمناء خونة، والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة ". وفيه: "ويقل الأمن، وحُلِّيَت المصاحف، وصُورت المساجد، وطُولت المنائر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود ". وفيه: "وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال". وفيه: "وكان زعيم القوم أرذلهم، وعقّ الرجل أباه، وجفا أمه، وبرّ صديقه،وأطاع امرأته، وعلت أصوات الفسقة في المساجد، واتخذت القينات والمعازف، وشربت الخمور في الطرق، واتخذ الظلم فخرا، وبيع الحكم، وكثرت الشُّرَط، واتخذ القرآن مزامير، وجلود السباع خفافا، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء".الخ[بنقل السيوطي في الدرالمنثور 6-52]

وفي حديث طويل رواه ابن مردويه، عن ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "أيها الناس ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ ". فقام إليه سلمان، فقال: أخبرنا. فداك أبي وأمي يا رسول الله. قال: "إن من أشراط الساعة إضاعة الصلاة، والميل مع الهوى، وتعظيم رب المال". وفيه: "ويخطب على المنابر الصبيان، وتكون المخاطبة للنساء". وفيه: "وتشارك المرأة زوجها في التجارة، وتتقارب الأسواق". قال: وما تقاربها؟ قال: "كسادها وقلة أرباحها". إلخ ما مرّ. فقد خطب الصبيان، وصارت المرأة تخاطب في الخطب والمحاضرات، بل تقدم في الخطاب على الرجل.

وأخرج الحاكم وصححه، عن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد لله فيه حاجة، وحتى تؤخذ المرأة نهارا جهارا تنكح وسط الطريق لا ينكر ذلك أحد، فيكون أمثلهم الذي يقول لو نحيتها عن الطريق قليلا. فذاك فيهم، مثل أبي بكر وعمر فيكم "هـ. قلت: وقد ظهرت مبادئ ذلك في كل أقطار الإسلام، وربما وقع ذلك في الطرق العامة، كما أخبرني بذلك بعض من شاهد ذلك .

وأخرج الحاكم، وصححه، عن ابن عمر مرفوعا: " يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر، حتى يأتوا أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات" إلخ. وهذه المياثر، والله أعلم، يمكن حملها على هذه السيارات، والواقع اليوم أن الرجل يركب فيها ومعه زوجته كاسية عارية.

رجوع لموضوع محاولة الإنسان
الاستقرار على ظهر القمر

وفي هذا الموضوع الذي فصلنا فيه عن تلك المباحث التي حققنا فيها الحق بالدليل، وأبطلنا الباطل بالتوجيه والتعليل، ولوكره من تعلق بخيال الأضاليل، نعلن أنه قد مر على تلك التقارير التي تقول: "أنت على ظهر القمر"، ما يزيد على أربع سنوات، وما وصل إنسان إلى تلك الآية الليلية، ولا قاربها ولا يقاربها، ولا يحيط بها.

كان هؤلاء القوم طبلوا وزمروا، وأعلنوا وأعلموا، وأخذت جرائدهم ومجلاتهم تذكر تلك التقارير على أنها من قبيل الواقع أو المتوقع، إذ جعلوا الوصول إلى ظهر القمر قريبا، وفي متناولهم سهلا، وأنه منهم كقاب قوسين أو أدنى. وجزم من جزم بأن السفر إليه، وحمل الركاب إليه، لا يتعدى بعد ذلك التاريخ إلا شهورا قليلة. بل أداهم جزمهم بالوصول إلى فتح مكاتب تقوم بإعطاء أوراق السفر إليه، وحددوا في ذلك أجرة الكراء ذهابا وإيابا، وصار أهل الهندسة يخططون المنازل التي تناسب سكناه ، وأصبحوا يتنازعون في الدولة التي يكون لها الامتياز باستعمار هذه الأرض الجديدة، ولا يزال يحدوهم الخيال، وتحثهم الآمال، وتستخف بهم الأوهام، وتقدمهم على الباطل أضغاث الأحلام [وهو سبحانه] يملي لهم ليزدادوا انغماسا

في الضلالة والآثام، وشيطان عقولهم يعدهم ويمنيهم في محاولتهم قلب الحقائق، إلى أن آل جزمهم للتردد، وإقدامهم في معنى الإحجام، حيث تردهم القدرة القاهرة إلى ورا، والساري منهم لا يحمد في صبحه السرى، وصار سعيهم شتى؛ فمنهم من رءا أن سكنى القمر غير ممكن، لشدة البرد وكثرة الثلوج التي على ظهره ـ وقد قدمنا بعض ذلك ـ ومنهم من لازال يقوده الطمع، مع اعترافه أن هناك صعوبات ومشاكل في الوصول إليه، لم يتمكنوا من حلها.

ففي مجلة الأخبار الأمريكية، التي تصدر بطنجة مجلد12عدد12، من تصريح الدكتور فيميس فان اليو، أحد كبار العلماء الأمريكانيين، أمام أحد لجان مجلس النواب بقوله:

"بالرغم من المشكلات الفنية الصعبة التي لم يمكن التوصل إلى حلها بعد، فليس هناك من عقبات حقيقية تحول دون تمكن الولايات المتحدة من إرسال إنسان إلى القمر واسترساله بنجاح "هـ.

وفي هذه المجلة، مجلد12، عدد13، وهو العدد الذي بعد العدد السابق، تحت عنوان: "رحلات الإنسان في الفضاء الشاسع" . وعرض ما جرى في 61 و1962 إلى 63، في رحلات الإنسان في الفضاء من رجال أمريكا، وقال أثناء ذلك:

"لقد وضعت الولايات المتحدة خطة لتحقيق إرسال لفيف من ملاحي الفضاء العلماء إلى القمر، والهبوط على سطحه قبل نهاية هذا العقد، ويتطلب هذا المشروع حل مشكلات كثيرة تفوق المسائل المتعلقة بالرحلات المدارية حول الأرض، إذ لا تزال هناك أسرار فضائية قد تجعل السفر إلى القمر مقترنا بعدة أخطار. ولن تدخر الولايات المتحدة جهدا في سبيل حل هذه المشكلات، ومعرفة هذه الأسرار، حتى إذا أقدم ملاحو الفضاء الأمريكيون على السفر، يمكنهم أن يتوقعوا العودة إلى الأرض بسلام "هـ.

ومنهم من صرف النظر إلى زيارة المريخ، والزهرة. ولكن يقولون إنهم لم يحصلوا إلى الآن على المعلومات التي تعرفهم بهوائهما وتربتهما وغير ذلك. وقالوا:

"لم توضع بعد خطة لإرسال إنسان إلى المريخ، أو الزهرة، غير أن بعض العلماء الأمريكيين ينبئون بهبوط الإنسان على سطح كوكبي المريخ والزهرة في نهاية هذا القرن "هـ.

ولكن بعد هذا حقق علماء هذا الفن، أن استقرار الإنسان على المريخ غير ممكن، لفقد الماء فيه وشدة الحرارة. وبالجملة فهم إلى الآن في ريبهم يترددون، وفي ضلال تخمينهم وحدسهم يعمهون، وفي إضاعة الأموال العظيمة والأعمال المتعبة يصبحون ويمسون، حتى إن أكابر رؤسائهم الذين كانت لهم اليد الطولى في هذا الموضوع، رجعوا إلى أنفسهم وصاروا يضللون هذه الأفكار، وينكرون هذه الأعمال التي لا تجدي إلا إضاعة النفوس والأموال، وقتل الأوقات فيما لا طائل تحته بحال، وقد جزم بذلك في هذه الأيام الأخيرة رئيس الجمهورية الأمريكية السابق "أيزنهاور" . فقد نقل في جريدة "العلم" المغربية: "قال الرئيس السابق أيزنهاور: إن من يصرف 40 مليون دولار عن سباق الوصول إلى القمر، يعد مخبولا بلا شك. وقد صفق زعماء الجمهوريين الذين استمعوا إلى خطاب أيزنهاور، عندما وصف برنامج كنيدي لغزو الفضاء بأنه يدل على الجنون"هـ.

[التذكير بقصة فرعون حين أمر ببناء صرح]

وربما يذكرنا هذا الكد المضني، والسعي الذي لا يغني، ما كان من خور فرعون وغباوته أو تفاهته، وحمقه أو تحامقه، إذ أمر وزيره هامان، ببناء صرح، أي ببناء عال يبلغ به إلى عنان السماء، ليطلع به على الأسرار الغيبية، وهو بذلك يحاول ما لا سبيل إلى الوصول إليه. فإن كان يعتقد إدراك المقصد بهذا البناء ، فقد خرج عن عقله، وعد من جملة المجانين، إذ لا يتصور عاقل فيما مضى وما سيأتي، أن يبني بناء يصل إلى السماء. بل قال الحافظ ابن كثير، إنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدا، أعني السماء الدنيا، فكيف بما بعدها من السماوات العلى، وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .هـ

ولكن الظاهر أن فرعون كان يعتقد أن وصوله إلى أسباب السماء غير ممكن، كما كان الكثير من قومه الذين لا ينخدعون بهذه التمويهات الكاذبة، يعلمون أنه مبطل في عمله، غير مدرك لأمله، كما يعرف أهل العقل والدين من سائر الأمم، أن هذه المحاولات التي يطمح أهلها بها للوصول إلى ملكوت السماوات وتسخيرها، ليس مقدورا عليه للبشر في الأفق من الكواكب والسيارات. ولكن أمة أضلها الله، كيف ترشدها.

وعليه، ففرعون ما أراد بهذا إلا تضليل عقول أهل البله والمغفلين، بإظهاره لهم استخفافه بأمر سيدنا موسى، الذي جاء يدعو الخلق إلى الله الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هو يوهمهم أن لا إله إلا هو، وأن إله موسى غير موجود. وقد انخدع بالفعل من لا نصيب له في العقل والنباهة، ولاسيما ودعوى فرعون كانت تروج في إقليم مصر، الذي قال فيه أبو حيان: إنه إقليم يقتضي لأهله تصديقهم بالمستحيلات، وتأثرهم للموهمات والخيالات، لأنه قال(أنا ربكُم الأعلى) فقبلوا منه ذلك.

ومن العجب أن هذه التمويهات العصرية، كان من المسارعين إلى قبولها والتنويه بذكرها، أهل مصر في مجلاتهم وجرائدهم، كما قدمنا عنهم جملة من ذلك .

أما فرعون، فقد قال تعالى في سفاهة رأيه وضلال عمله: (وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ) أي في خسران وبطلان، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه.

وكذلك يقال في حق هؤلاء، إن كدّهم وتعبهم إنما هو خسران في المال، وتقضية للوقت فيما لا يجدي، بل يردي ولا يهدي، والمشاهدة تظهر لك الحقيقة وتبدي.

أما من استبعد هذه المحاولة من فرعون، أن تكون حقيقة، فقال إن فرعون لم يأمر ببناء صرح للوصول إلى السماء، وإنما قصد به بناء مرصد لمراقبة الحوادث التي تؤخذ من سير النجوم، إذ القوم كانوا أهل عناية بهذا الفن. وعليه، فهذا البناء عادي لا قصور به في عقل فرعون، ولا في عقل قومه. ولكن هذا يخالف ظاهر الآية، ولهذا رده المحققون، والله أعلم.

[الوصول إلى الكواكب الآن، حتى وإن تمّ
فإنه لا يعدُّ من الخوارق]

فإن قيل: إن محاولة التمكن من الوصول إلى الكواكب اليوم، هي مبنية على أساس علمي، وفكرة مؤيدة بالتجربة، التي هي الطيران في الفضاء، الذي كان يُعد في الماضي مما لا يُطاق، ولا يقدر البشر على معاناته؛ فإنا نقول: وإن سلمنا أنه من الأمور العجيبة التي جرت على يد البشر في هذه العصور، واطردت حتى صارت من الأمور العادية، لكنها لا

يمكن بها الوصول إلى ما أملوا، كما أنها من حيث اتخاذ الأسباب، واستحضار الآلات وتركيبها، مع إضافة بعض الخواص الأرضية التي أبدعها الباري وأودعها في بعض المعادن والأحجار، لا تعدُّ من اختراع بني آدم ولا من الخوارق، لأن من شرط الخوارق أن تكون مجردة عن التسبب والتصنيع، كتسخير الريح لسيدنا سليمان تجري بأمره حيث شاء، وكإسراء سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم معراجه إلى السماوات العلى .

أما هذا الطيران فإنما هو باتخاذ آلات، واستنباط من خواص أرضية، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، فلهذا إذا قيل: من خلق هذه الطائرات وهذه الصواريخ؟ يكون الجواب الصحيح أن الله خلقها. لأن الله خلق الصانع وصنعته، قال تعالى: (واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وقد سبق لنا ذلك.

وعليه، فهذه الأمور العجيبة التي تشاهد الآن، صادرة من صناعة أيدي البشر، لا تخرج عن المعتاد، ولا تسمى معجزة، لاسيما وقد أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، أننا سنرى أمورا عجيبة في آخر الزمان نستغربها. ونقول إن النبي، صلى الله عليه وسلم، ما أخبر بها، كما سلف الحديث بتمامه. وقد ذكر المتقدمون من خواص المعادن والجواهر أشياء كثيرة سحرية وغير سحرية، ومع هذا لا تسمى معجزة، ولا أمرا يخرج به البشر عن حقيقته وطوره. ومن هذا المعنى ما قاله الحافظ أبو محمد ابن حزم، فيما يظن أنه من الاطلاع على الغيب:

"ولو أمكن تحقيق تلك التجارب في كل ما ذكرنا، لصدقناها وما يبدو منها؛ ولم يكن ذلك علم غيب، لأن كل ما قام عليه دليل من خط أو كتف أو زجر أو تطير، فليس غيبا، لوصح وجه كل ذلك. وإنما الغيب وعلمه هو أن يخبر المرء عن الكائنات دون إصناعه أصلا من شيء مما ذكرنا، ولا من غيره، فيصيب الجزئي والكلي. وهذا لا يكون إلا لنبي، وهو معجزة" هـ.[الفِصَل 5-25].

وبوجه خاص؛ فان من شرح الله صدره للإيمان، ونوَّر بصيرته بنور الإيقان، ونظر إلى آثار قدرة الواحد القهار، واستنار عقله بآية الليل، واستضاء قلبه بآية النهار؛ ظهرت له

هذه الصواريخ كدوامات الصبيان، التي يلعبون بها، إذ يرسلونها في الجو فتغيب عن الأبصار، إذ المآل واحد عند الاعتبار، والله غالب على أمره.

وهُنا تم الجزء الثاني، من هذه الفهرسة، [المسماة بالنعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم، لجامعها محمد بن محمد المَرير] والمنة في ذلك لله، وهو المعين على الشروع في الجزء الثالث، وكان الفراغ من تسويده [بتطوان] في ثالث وعشري ربيع النبوي الأزهر، من عام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة وألف (1383) هجرية.

[وفيما يلي الفهرس المفصل لمواد هذا الجزء]:

فهرس المؤلف لمواد الجزء الثاني

من فهرسته: النعيم المقيم، في ذكر مدارس العلم و مجالس التعليم

الموضــــــوع:	رقم الصفحة:

ـ ما ختم به المؤلف نبذة من تاريخ تطوان، من قصيدة أنشأها في مدحها، وذكر منازهها والإشارة إلى ما تقلبت فيه، وما أسسه فيها مهاجرة الأندلس.: 5

ـ ابتداء القراءة بتطوان، والمناهج التي كانت متبعة في المغرب في التعليم، والمصنفات التي يدرس بها، والمراحل التي يجتازها التعليم:..7

ـ منهج المغرب كان يخالف مناهج تونس والأندلس، وللإمام ابن العربي منهج غريب في التعليم، وهو مستحسن عند ابن خلدون، لكن العوائد لا تساعد عليه:..............................9

ـ توجيه ابن خلدون وجه تقديم قراءة القرآن في التعليم

ـ المناهج العصرية وكونها كانت سبباً لارتفاع حفظ القرآن:. 10

ـ المكتب الأول الذي ابتدأت فيه قراءة القرآن على الفقيه كركيش :........................10

شيخنا الفقيه البركة سيدي عبد الله لوقش، وما قرأته عليه من المصنفات:......................11

ـ العقائد السنوسية وكونها أجلّ ما ألف في التوحيد، وثناء العلماء عليها.

ـ شيخنا الرهوني، وما قرأته عليه من المصنفات:...12

ـ من أخلاق شيخنا الرهوني غلبة الانبساط عليه ومزج الجد بالفكاهات حتى ربما خرج بذلك عن الحد المباح.

ـ إراحة النفس المكدودة بالجد بفسح المزاح؛ مباح أو مطلوب. وحديث" عليكم من العمل ما تطيقون"، الخ:..13

ـ قول سيدنا أبي الدرداء إني لأجم نفسي ببعض من الباطل.

ـ للطب في هذا مدخل؛ إذ قال جالينوس: يحدث من النظر في العلم من الهم والفكرة أمراض، ومعالجة ذلك يكون بالتلهي بما يريح النفس، من الفكاهات.

ـ تنزل سيد العالمين مع أصحابه ومعاملتهم معاملة النظير ومخاطبتهم بما يشبه المزاح الذي كله حق. وورد عن السيدة عائشة انه كان يمزح ويقول إن الله لا يؤاخذ المزاح الصادق في مزاحه.

- دعابة سيدنا علي ومزاحه من هذا النوع الحق وعليه كان أكابر الأصحاب كابن عمر وأفاضل العلماء والفقهاء الأخيار، في مزاحهم كابن سيرين الذي وصفوه بأنه كثير المزاح والضحك.
- الخلاصة أن ترويح النفس بالفكاهات - مما لا يخرج عن الأدب الشرعي - مباح.
- حديث " روحوا القلوب ساعة فساعة".
- قول سيدنا علي أجموا هذه القلوب، الخ.
- ماكان يقع من نعيمان الصحابي مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الفكاهة، الخ.
- محل جواز الترويح ببعض المزاح إنما هو لمن استغرق أوقاته في الجد، لالمن يستغرق أوقاته في اللعب. وحديث حنظلة بيَّن المراد.
- رجوع إلى ترجمة شيخنا الرهوني، فنقول كان شيخنا، مع ما لنا معه من الصداقة، ينظر إلينا أيام الطلب؛ نظرة اعتناء واعتبار:.....18
- ما قاله لي لما أجبته عن مسألة ضلّت عنه ونحن نقرأ عليه ألفية ابن مالك؛ ممَّا كان فألاً حسنًا، الخ.
- الكلام على الفأل وما قاله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في تفسيره وما كان يعجبه من ذلك، والأحاديث الواردة في ذلك وتفسير الأئمة لها:.....19
الطيرة والفرق بينها وبين الفأل:.....20
- أصل التطير في الجاهلية انهم كانوا يعتمدون على الطير والسانح والبارح.
- حديث لاطيرة والطيرة على من تطير الخ وقوله الطيرة شرك، وتفسير ذلك وباقي الحديث.
- تقسيم الفأل إلى ثلاثة أقسام؛ الضرب بالرمل والقرعة ومنه أخذ الفأل بالمصحف وما قيل في ذلك:.....21
- تفسير ابن العربي لقوله تعالى (وأن تستقسِموا بالأزلام) وأفاد أخيرًا انه لا يجوز أخذ الفأل من المصحف، وذكر محيي الدين عن عياض ما يفيد الجواز.
- تفسير الآية من أولها وهي قوله تعالى(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) وبسط الكلام في المسألة وتحرير القول فيها:.....23
- خلاصة القضية من هذا كله، الخ.
- طلب الظن بالأمارات المتعارفة كتفسير الرؤيا والفأل والإلهامات والكرامات، فهو تعلق بالله واسترشاد منه لا بغيره؛ فليس استقسامًا بالأزلام، ومنه أخذ الفأل من المصحف فليس بممنوع كما يفيده الفخر وغيره.

-رجوع إلى تتميم ترجمة الشيخ الرهوني وذكر شيوخه بتطوان وفاس:.....27

- تصديه بعد رجوعه من الرحلة الفاسية لدرس العلم من نحو وفقه وتوحيد وغير ذلك.
- كتابته على المؤلفات وتعليقاته عليها عند درسها.
- طريقته في التصوف أولاً؛ كانت درقاوية عن الشيخ ابن عجيبة، ثم انتقل إلى التجانية واغتبط بها واعتقدها اعتقاداً خالصاً وصار من حماتها ومن له الإذن في تلقين أورادها:.....28
- انتقادات الشنكيطي على الشيخ التجاني وإخراجه في بعضها عن الإسلام:..... 29
- رد بعض انتقاداته وبيان خروجه في ذلك عن سواء الطريق وتنكبه عن تخريج كلامه مخرجا يليق بمقامه.
- بعض كلام الشيخ التجاني الذي يدل على علو مقامه وتمسكه بالكتاب والسنة وسلوكه مسالك العارفين الدالين على الله:.....32
- مولد الشيخ التجاني ونشأته وشيوخه ووفاته:.....35
- إتمام ترجمة شيخنا الرهوني:.....35
- شيخنا ابن الأبار وما قرأته عليه من الفن:.....36
- الدروس الخصوصية والمذاكرات التي تعم الاتصال مع شيخنا ابن الأبار.
- ملازمتي للفقيه بعد رجوعي من حضرة فاس وحضوري دروس المختصر واغتباطي بذلك، وإنشائي أبياتاً في مدح الفقيه ودروسه:.....37
- سرد كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وإعجاب الشيخ بها، وإنشاد صاحب الطبقات قصيدة حميد في وصف الحمامة، وشرحها لكاتبه أثناء درسها مع شيخنا:.....39
- الفصول الأربعة وما كانت عليه العرب في تقسيمها وما عليه الناس الآن في تسميتها.
- سرد كتاب صحيح البخاري ليلاً مع جماعة من الفقهاء، وكان أولا دورياً بدار كل واحد من الحاضرين، ثم قرر شيخنا أن يكون بداره دائماً، وفي الحقيقة كان سردا للقسطلاني باللفظ:.....57
- بعض تحقيقات كتبها كاتبه في إيراد الفقيه الشنكيطي إشكالا في قوله تعالى (فبَدأ بأوْعِيتِهم قبلَ وعَاءِ أخِيهِ) وذلك بحضرة شيخنا المذكور.
- شيوخ شيخنا ابن الأبار بتطوان :..... 60
- الشيخ السلاوي والتعريف به وبما كان يكتبه في فتاواه وغيرها ومنها فتواه في قضية أولاد مدينة التي رجح بها ما للشيخ الرهوني على ما للتسولي واخراجها في صورة تويلف وافق عليه أكابر علماء فاس في وقته، ومنها تؤخذ ترجمة العلامة السلاوي.
- تكميل ترجمة العلامة السلاوي وذكر وفاته.

- رحلة الشيخ ابن الأبار لحضرة فاس لإتمام دراسته وإدراكه أكابر علمائها:..... 66

- إعجابه بشيخين من شيوخ الحضرة؛ سيدي الهادي الصقلي، وسيدي المدني ابن جلون.
- ترجمة سيدي المدني ابن جلون.
- ترجمة شيخ الشيوخ سيدي الحاج محمد بن ج المدني كنون، صاحب اختصار الرهوني.
- رجوع إلى وصف شيخنا ابن الأبار، وما كان عليه من الأخلاق الجميلة، والمحبة لأهل الله، معترفاً بالفضل لأهل الخصوصية منهم:.....70
- تعلق أهل العصر بالحس والمادة، وإعراضهم عن المعاني الروحية؛ أوقعهم في تقويض قواعد الإسلام:.....72
- ما قضى على قواعد الدين إلاّ المنتسبون له، وقد تفطن لهذا المبشرون من الأجانب، فقالوا إن نجاح التنصير لا يكون إلا بواسطة المرتدين من أهل الإسلام.
- اغتباط شيخنا ابن الأبار بالشيخ السالك سيدي محمد المخلوفي الغياتي :.....74
- كان الشيخ الغياتي مقصوداً في الكتابة لإخراج الجان ولكن بعد دفع مال كثير.
- طريقة الشيخ الغياتي في التصوف كانت كنتية، وله أتباع. الطريق الكنتية ونسبتها.
- الشيخ الكنتي ونسبته وصلاحه وتلاميذه وما قيل فيه من الشعر - القصيدة التي أنشأها فيه علامة شنقيط وأديبها الشيخ سيدي ابن المختار:.....75
- الإشارة إلى كتاب "عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي" لشرف الدين ابن المقري.
- الرجوع لإتمام ترجمة الشيخ الكنتي.:.....79
- وفاة الشيخ الغياتي.
- مكاتبة بين شيخين من شيوخ شيخنا ابن الأبار، وهما؛ أفيلال والصقلي.....80
- انتقاد بعض أهل تطوان لقول الشيخ المقضل أفيلال في قصيدته التي فيها التأسف على احتلال تطوان في الحرب الاسبانية؛ قوله"يا دهر" الخ وما أجاب به الشيخ، وما كتبناه في ذلك:....82
- غضب أهل القصر على أفيلال إذ قال في تلك القصيدة؛ "حيث أقامه يرضى ولو بقصر كتامة "
- الرجوع للكلام على الدهر. كتابة المؤلف في الموضوع تقييداً خاصاً يمكن أن يستقل بنفسه اشتمل على مباحث خمسة في الدهر، والحديث الذي ورد لا تسبوا الدهر الخ:.....85
- إتمام الكلام على رسالة الشيخ الصقلي لصديقه أفيلال، وما في ذلك:.....95
- أبو الشمقمق الشاعر الشهير، وذكر الشمقمقية، الخ.
- من ذيول ترجمة الشيخ الغياتي؛ الكتابة لإخراج الجان وجواز أخذ الأجرة عن ذلك لأنه من قبيل الرقى:.....95

-الرقى ومعناها:.....97
- مشروعية الرقى في الإسلام:.....97.
- كتب ما يرقى به وتعليقه على المرقى وهو الحرز أو شرب مانه، قديماً وحديثاً:.....101
-التمائم والتّولة المنهى عنهما:.....103
-النشرة وحكمها:.....104
التداوي بالرقى أو بالعقاقير الطبية واسناد التأثير إلى الله تعالى ؛هو شأن المؤمن الموحد...104
- الناس في التوكل وعدمه على ثلاثة أقسام.
- العزائم والرقى والفرق بينهما وأصل العزائم لإخراج الجان:.....106
- الصرع وإصابة الجان وتفسيرهما ومن ينكر ذلك من الفلاسفة وأهل الاعتزال:.....108
- الصرع عند الأطباء في العصر الحاضر:.....111
- تتمة بحث في الاشتطاط في الأجرة على إخراج الجان والفتوى، ونحوهما:.....112
- ترجمة شيخنا ابن الأبار:.....
114
- شيخنا سيدي محمد البقالي، وما قرأته عليه، وشهرته وأخلاقه، والفوائد التي أخذناها عنه.....:116
- [مسألة الجهر بالذكر في تشييع الجنائز].:.....122
- نسب شيخنا البقالي.:.....123
- ترجمة سيدي علال الحاج البقالي.:.....124
- [مبحث في مسألة إقامة الجمعة في قرى البادية].:.....125
- [مبحث في مسألة العدوى والفرار من أرض الوباء] والدخول إليها وحديث "لاعدوى" الخ وحديث " فر من المجذوم" الخ ومافي ذلك من التأويلات والتفسيرات:.....126
- الرجوع لترجمة الشيخ البقالي[وتحرير مسألة توقف فيها] وما وقع في درس شيخ شيخنا السلاوي من السؤال عن قول خليل في سجود التلاوة "وقارئ إن جلس ليتعلم" هل يختص التعليم بقراءة ورش أويعم؟ وتوقف السلاوي.:.....132
- رحلة شيخنا البقالي لحضرة فاس لإتمام دروسه العليا:.....134
- لم يكن شيخنا ينتسب لطريقة من طرق التصوف المعروفة، وتمسكه فيما يظهر بطريقة شيخه السلاوي.:.....134
- عدم تصريحه بالانتقاد على هذه الفرق.
- انتقاد الفقيه السلاوي على ما يفعله الفقراء من التواجد والرقص.

-إنكار أكابر العلماء الرقص والتصفيق والرد على من يفعل ذلك وبيان الطريق الجادة:....135
- تأييد طريقة ابن عبد السلام بكلام الشاذلي عن شيخه ابن مشيش في انكار الغناء والرقص.
- جواب الإمام الشاطبي في ذلك وما قاله في الإنكار.
- اختلاف علماء الشريعة والحقيقة في مسألة الغناء والتواجد، وما في ذلك:..... 139
- اغتباط شيخنا البقالي بكلام سيدي عبد العزيز الدباغ واستحضار ما في الإبريز، مما يصح أن يقال انه إبريزي الطريقة:.....140
- طريقة سيدي عبد العزيز الدباغ متصلة بطريق العارف سيدي محمد بن ناصر الدرعي من طريق سيدي العربي الفشتالي:.....141
- شيخ الطريقة الناصرية سيدي محمد بن ناصر وولده سيدي أحمد، ومقامهما في الصلاح والعرفان:.....143
- لتطوان الحظ الوافر من الناصرية، وهي طريق الشيخ سيدي علي بركة.
-الورد الناصري، ومبنى هذ الطريقة على كثرة الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وعليها الشاذلية:.....144
- الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة:.....145
- حرص الشيخ الناصري على عدم تعدد الأخذ في الأوراد، وأن لاتؤخذ الأوراد من الكتُب ، وماكتبناه في ذلك:.....146
- [كلام أهل التحقيق في مسألة توقف الأذكار على إذن خاص]:.....147
- الصدر الأول لم يكن لهم إمام ومرشد وشيخ؛ إلاَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، وما تركه فينا من الكتاب والسنة، وتفصيل القول في ذلك:.....148
- [نشأة الصوفية وتطورها] لمَّا انقرض العصر الأول والثاني بما فيه، وخلف من بعدهم خلف شغلتهم زهرة الدنيا عن الجد والاجتهاد في أمر الدين بسبب الاختلاط؛ قامت طائفة أهل الجد والتقوى والزهد في الدنيا وخالفوا أهل الدنيا وسموا بعد ذلك صوفية:.....149
- افتراق الناس إلى فرقتين؛ أهل الظاهر وأهل الباطن، وتفسير ذلك:.....150
- أكابر الأمة في الصدر الأول لا يرون الخروج عن ظاهر الكتاب والسنة بحال.
- رؤساء أهل التصوف وعلماؤهم يحضون على اتباع الكتاب والسنة:.....152
- انتقاد العلماء بعض ما خالف فيه الصوفية ظاهر الشريعة:.....153
- التفاضل بين الغنى والفقر، وهل الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؟ وما في ذلك من التفصيل:.....154

- ما أحدثه الصوفية من اتخاذ الشيوخ والأخذ عنهم وبيان السند في ذلك بوجه يكفي ويشفي.....159
- [إحداث رموز واصطلاحات للعلوم واسناد تعليم ذلك لأهل الاختصاص]صحة الأخذ والتعلم في كل علم إنما يكون عن أهله المحققين له:.....160
- لا تجد عالما اشتهر كمالك والشافعي؛ إلا وله إمام اقتدى به وأخذ عنه.
- لا ينال العلم إلا بتلقين أستاذ ، والإنكار على من يقتصر على أخذ العلم من الكتب.
- [ما أحدثه أهل الباطن من مصطلحات يشبه ما أحدثه أهل الظاهر] كما لم تكن المشيخة بهذا عند الصوفية، كذلك لم تكن المشيخة بهذا المعنى عند أهل الظاهر في الصدر الأول:.....162
- لما ألفت الفنون وبوبت العلوم أحدثت لها اصطلاحات.
- توجيه حسن للعارف الحراق التطواني في وجه اتخاذ شيخ التربية.:.....163
-اتخاذ الصوفية لطريقهم سنداً إلى سيدنا علي، وجعلهم هو الواضع لها:.....164
- وجه إسناد الطريقة لسيدنا علي.
- التصوف بمعناه الحقيقي لاينكره إلا كافر أو فاجر.
-الكلام في التصوف يتحرر في طرفين وواسطة:.....166
-الورد وأصله وأخذه عن الشيوخ والتزامه والتحري في تلقينه وتوقيته :.....168
-الذكر بالإسم المفرد الشائع عند أهل الله وما قاله فيه بعض أهل الظاهر:.....172
-التفسير بالإشارة عند الصوفية:.....173
- [الرجوع لإتمام الكلام على الإسم المفرد ، وعلى أصل الأوراد].....174
- [طرق أخذ الأوراد وشروط شيخ التربية] التحقيق في أخذ الأوراد؛ إما أن يكون لأجل الفضل الوارد في الأذكار بمقتضى الإذن العام، فهذا لايحتاج إلى إذن، وإما أن يكون مأخوذا عن شيخ التربية فهذا لابد من الإذن فيه:.....177
- شروط شيخ التربية، ومآخذ الصوفية الصادقين كلها من الكتاب العزيز وسنة رسوله الشارحة له.
- الإلهام والكشف وشروط الأخذ بهما وما قاله في ذلك علماء الشريعة وأهل الحقيقة:..180
- ما قاله الأئمة في سقوط منزلة الشيخوخة في هذه الأزمان المتأخرة، وصارت تطلق على من ليس له بها أدنى مناسبة، وما قاله صاحب المدخل في بيان التلبيسات التي يقوم بها هؤلاء الضالون المضلون:.....182
- من أراد النجاة في هذا العصر؛ فليجعل القرآن والسنة شيخا له، يتلقى منهما الطريق المستقيم، ويستعين على ذلك بكتب أهل التصوف الحقيقي. وما أنشأته في ذلك من أبيات في اتخاذ "الفتوحات"

شيخا، وما وقع من الاتفاق في هذا مع الزائر الكبير سيدي المكي ابن شيخنا العلامة سيدي بن جعفر محمد الكتاني:.....184
- الحاتمي واختلاف الناس في شأنه وما قاله المحققون فيه:.....186
- الفتوحات وما قاله الناس في كلامه فيها وفي غيرها.
- الرجوع إلى إتمام ترجمة شيخنا البقالي:.....189
- ما كتبه الشيخ عبد الوهاب لوقش لصديقه سيدي المكي ابن ريسون، في معنى رثاء شيخنا البقالي.
- القصيدة التي أنشأتها في رثاء شيخنا البقالي:.....192
- [تذييل ترجمة الشيخ البقالي بتقييد حول ما افتتن الناس به في عصرنا من ظواهر ومستحدثات]:.....193
- مقدمة التقييد:.....193
- مقالة مجملة خلاصتها ان أسرار هذا الكون لايحيط بها بشر، وان هذا العالم عوالم لايحصيها إلا خالقها، وان أهل الهيئة في كل عصر إلى وقتنا هذا؛ لم يصلوا إلى الحقيقة بدليل تخطئة بعضهم لبعض:.....195
- الأجرام السماوية والكواكب السيارة وهل يجوز النظر فيها في الشرع الإسلامي؟ : 200
- النظر في علم النجوم، أو قل علم الهيئة، في الإسلام وما في ذلك من التفصيل:.....201
- هل اشتغل الصدر الأول من أهل الإسلام بهذا العلم؟ وتفصيل القول في ذلك:.....207
- [اعتناء الدولة العباسية بهذه العلوم ونبوغ جماعة من أهل الإسلام في ذلك تبعا لملوكهم].....209
- [الاهتمام بهذه العلوم بالأندلس والمغرب]:.....211
- الأفلاك عند قدماء الفلاسفة وهل هي في السماوات؟ وما قاله أهل الإسلام وأهل العصر في هذه السيارات. :.....220
- القول بأن الأفلاك سبعة وكل فلك له سيَّار من السيارات
- رد ابن سينا القول بحصر الأفلاك في السبعة، وقرره الفخر الرازي.
- مجاراة فلاسفة الإسلام اليونانيين في كون الأفلاك تسعة؛ سبعة للسيارات وجعلها هي السماوات السبع والثامن الكرسي والتاسع العرش، وإبطال ذلك.
- النظرية الجديدة اليوم انه لا أفلاك لهذه السيارات وإنما تدور حول نفسها وان السيارات ليست منحصرة في السبعة، إلخ
- هذه النظرية لاتنافي ما ورد عن علماء الإسلام، كما ان النجوم والكواكب سابحة في الفضاء.

- جاء ما يفيد في الآثار كون السماء هي الفلك؛ ليس معروفًا عند السلف. والحق ان السماوات السبع فوق الأفلاك لوجوه.
- إبطال ما تخيله أهل الهيئة في الأفلاك ومن تبعهم ممن جعل السماوات السبع هي الأفلاك السبعة وان الثامن الكرسي والتاسع العرش، بالأدلة النقلية والشرعية، وتأليف ابن تيمية في ذلك.
- هل الكواكب أرض؟ وهل هي مأهولة بالخلق؟ وهل في الشرع ما يمنع اعتقاد ذلك؟:.....226
- كون الكواكب مسكونة نظرية قديمة منقولة عن أرسطاليس اليوناني.
- إضطراب أهل العصر ومن قبلهم في موضوع سكنى الكواكب:.....229
- ما قالوه في سكنى عطارد - مرصد الشمس من عطارد .
- الحركة في الكون - مبدأ الفلكيين كله على التخمين والتخيل.
- سرعة سير الكواكب السيارات وغيرها لايعلمه إلا الله.
- إشتغال أهل العصر بالكواكب وبالخصوص القمر:.....232
- مايتراءى في جسم القمر من الجبال والأشجار وكلام العلماء في ذلك قديماً:.....233
- فكرة الصعود إلى القمر قديمة، وقول الإمام الألوسي في التجربة التي وقعت في عصره: 235
- ما قرره صاحب "فتوحات العلم الحديث" تحت ترجمة؛السفن السهمية ورحلة وهمية إلى المريخ.
- فكرة الصاروخ والسفن السهمية وما أسست عليه والحواجز التي تحول دونها.
- ما نشرته مجلة المصور المصرية تحت عنوان: أنت على القمر. والأسئلة في ذلك.
- قول أحد كتاب مجلة المصور إنا لم نوت من العلم إلا قليلا، وقد أنصف.
- مبالغة من يقول أنت على القمر، وتعداد ما يجده الواصل إليه من الفوائد والمصالح.
- من المضحكات ما نشرته مجلة العربي الكويتية من حجز أوراق السفر إلى القمر وتحديد الأجرة.
- هذه المخترعات التي ظهرت على يد هؤلاء إنما هي استخدام لبعض الخواص الأرضية، وقد استخدم المتقدمون شيئا كثيرا منها ولكن لم يتابعوا العمل بها:.....245
- منارة الاسكندرية وما ذكر فيها المؤرخون من العجائب كالمسعودي وياقوت والسيوطي في حسن المحاضرة.
- السباحة في الفضاء، والمحاولات القديمة في ذلك:.....247
- [نجاح الطيران اليوم سببه المثابرة على التجربة وإلهام الله لهذا الخلق الجديد]:....248
- أسرار هذا الكون لايحيط بها سابق ولا لاحق:.....248

- هل في الكون عوالم أخرى غير عالمنا؟ وهل الاعتقاد بوجودها ينافي عقيدة أهل الإسلام؟ وهل كان السلف يعرفون ذلك؟ :.....250
- رجوع الماديين قهرًا إلى قدرة الله تعالى:.....250
- ما قالته طبيبة إنجليزية للسيد علي الخطيب أثناء الحرب الجبلية مع اسبانيا.
- زلزلة أكادير وزلزلة عقول أهل المادة.:.....251
- [ما قيل في أسباب هذه الزلازل]:.....252
- رجوع بعض الباحثين من أهل العصر عن النظرية الأخيرة في نشأة الزلازل والتصريح بالعجز عن معرفة الأسباب الحقيقية .
- ما قاله أئمة الإسلام في هذا الموضوع:..... 256
- ما قاله فيها إمام المغرب سيدي عبد القادر الفاسي، وما أجا ب به سيدي عبد العزيز الدباغ في الإبريز.
- إن الله قد يواخذ قوما بما كسبت أيديهم ولا يواخذ آخرين لحكمة.
- الرجـــوع لموضوع؛ هل في الســـماوات دواب غيـــر الملائـــكة؟ وهل في الـــكون عوالم أخرى؟:.....259
- تجويز المتكلمين من أهل الإسلام إيجاد عوالم مماثلة لنا، وما حققه في ذلك صاحب " المواقف".:.....261
- لو أراد الله خلق ألف عالم بما فيه من العرش والكرسي والشمس والقمر؛ لفعل. وتصريح المعري بما يفيد الوقوع.
- ما ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس مما يفيد وجود تعدد العوالم في الأرضين السبعة.
- من حصر الكون في هذا العالم فقد حكم بفكره الضيق على ما لم يحط به علما.
- [رجوع لموضوع الاختراعات العجيبة التي وصل إليها البشر في عصرنا]:.....264
- من افتتن بهذه المخترعات، وهو مؤمن، فسله من خلق مواد الكهرباء؟ ومن خلق مواد الطائرات؟ ومن خلق مواد الطاقة الذرية؟
- هذه الغرائب التي ظهرت على يد البشر، قد أشارت إليها الآيات القرءانية والأحاديث النبوية.
- قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم "انها كائنة ولم ياتي تأويلها بعد" الخ. وتأويلها الآن.
- الوطنية الإسلامية هي الدين الذي يجمع بين المغربي والصيني والعجمي والعربي والأبيض والأسود ولا اعتبار بافتراق الوطن.

- هذا الاستعداد الحربي من الدول لإهلاك العالم ربما يشير إليه قوله تعالى(حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) الخ الآية.
- هذه الحوادث المزعجة تنذر حتى من لا يؤمن بالبعث؛ بقرب فناء هذه الدينا:.....267
- وقوع جل أمارات قرب قيام الساعة التي أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، بها.
- رجوع لموضوع محاولة الإنسان الاستقرار على ظهر القمر:.....270
- التراجع ممن كان يظن انه تمت له هذه المحاولة وتصريح رئيس جمهورية أمريكا السابق بتضليل هذه الأفكار ونسبتها للجنون والخور.
- [التذكير بقصة فرعون حين أمر ببناء صرح] مقارنة هذه المحاولة بما كان حاوله فرعون من بناء صرح يبلغ به إلى السماء:.....272
- [الوصول إلى الكواكب الآن حتى وإن تم فإنه لا يعد من الخوارق] الخوارق هي المعجزات التي لا تستند إلى اتخاذ سبب ولا معالجة صنعة أصلاً.:.....273
- [ختام الجزء الثاني من "النعيم المقيم في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم"]:.....275

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة الفقيه محمد المُرير
تطوان - المغرب

رئيس الجمعية:
السيد محمد بن عبد الخالق الطريس
الرئيس المنتدب:
ذ. عبد العزيز السعود
رئيس اللجنة الثقافية:
أ.د. امحمد ابن عبود
الكاتب العام لمنشورات تطاون أسمير :
أ.د. جعفر ابن الحاج السلّمي

العنـــوان
ساحة 9 أبريل ص.ب. 633 تطوان الهاتف: 039.70.20.25 الفاكس: 039.70.20.05
www.cyber.net.ma/asmir E-mail: tetouan.asmir.@caramail.com